من قضايا الإعلام في القرآن

رمضان لاوند

الأَديبْ و المُفَكِّرْ الرَّاحِل

رَمَضان عَبْدِ الرَّحْمن لاَوَنْد

عالم القرآن

من قضايا الإعلام في القرآن

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا: info@RamadanLawand.com

بسم الله الرحمن الرحیم

إهداء

إلى الذين عاهدوا الله عز وجل على تدبر آياته البينات، إعلاء لكلمته، وجهاداً في سبيله.. أهدي هذه المحاولة المتواضعة لفهم لكتاب الله، راجياً أن أحقق بها بعض ما أطمح إلى تحقيقه من الوعي بالدين الذي جاء هدى ورحمة للعالمين.

رمضان لاوند

ثبت بالمراجع

- **القرآن الكريم.**
- **السنة النبوية الشريفة.**
- **سيرة ابن هشام.**
- **وجوه في الزحام** / د.ريسمان.
- **المصحف الميسّر** / الشيخ عبد الجليل عيسى.
- **خصائص التصوّر الإسلامي** / سيد قطب.
- **مدارك السالكين** / ابن الجوزي.
- **سيكولوجية القصّة في القرآن** / الدكتور التهامي نقرة.
- **الفنّ القصصي في القرآن** / الدكتور محمد أحمد خلف الله.
- **الإعلام والاتصال بالجماهير** / الدكتور إبراهيم أمام.
- **الحبّ ضد الكراهية** /كارل مانينجر وجانيتا لايل مانينجر.
- **الفخري في الأدب السلطانية** / ابن طباطبا.
- **ولادة مملكة** / بسام العسلي.
- **مقدّمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي** / الدكتور يوسف فضل حسن.

مقدمة عامة

حول الإعلام والمعرفة في القرآن

أول ما يتبادر إلى ذهن الباحث في الظاهرة الإعلامية القرآنية أن يطرح التساؤلات التالية:

لماذا الإعلام؟ وما هو الدور الذي قام به الإعلام في تاريخ البشرية؟ وهل يمكن للإعلام أن يكون علماً بالمعنى الحقيقي لكلمة (علم)؟ أم أنه فنّ يستند في جانب منه إلى المواهب والقدرات الإنسانية المتفاوتة في فاعليتها عند مختلف الأشخاص؟ وهل يمكن أن نعتبر الرسالات السماوية ظاهرات إعلامية؟ وما هي أبرز الخصائص أو أبرز خصوصية في هذه الظاهرات الإعلامية السماوية ؟ إلخ.

لماذا الإعلام؟

الإعلام ضرورة بشرية لا يستغنى عنها، ذلك أنّ الإعلام هو حصيلة الحاجة الماسة إلى ممارسة عمليات الاتصال بين الإنسان وبين الإنسان والجماعة. فلو فقد الاتصال بين الناس لتعذّر ظهور الحضارات البشرية ولما تحقّقت الإنجازات المختلفة الخاصة بلغة التفاهم والتنظيمات الاجتماعية والتعاون الاقتصادي والمواهب الفكرية والفنية المختلفة، كما تعذّر ظهور الإنجازات التكنولوجية التي تستمتع بها الأجيال البشرية قديمها وحديثها.

بل إنّ في وسعنا القول: أنّه لولا الإعلام لم يكن هناك أي مبرّر للوجود البشري. ولعلّ امتياز آدم عليه السلام بمعرفة الأسماء التي علّمه الله إياها بعد خلقه مزيجاً من قبضة الطين ونفخة الروح الإلهي أن يكون الإعلان الأول والجوهري عن أهمية الظاهرة الإعلامية في الحياة البشرية. لقد سجدت الملائكة لآدم لأنّه يملك المعرفة ويستطيع أن يتصرّف بها تصرّف القادر الحر في اختياره، وأن يجعل منها منطلقاً لإعمار حياته بالطريقة التي يختارها لنفسه بها مصيره ويكون مسؤولاً عنها أمام ربه. وسبيله إلى هذا الإنجاز العظيم هو في تبادل الأفكار والعواطف مع أمثاله من الآدميين وبالتالي في تبادل العون، وأخيراً في صنع حياة حافلة بالحركة والإنتاج والأصالة.

ما هو الدور الذي قام به الإعلام في تاريخ البشرية؟

يترتّب على ما تقرّر في الفقرة السابقة أنّ دور الإعلام الذي تمّ بعمليات الاتصال المتبادل بين الناس أفراداً وجماعات هو الذي يميز الخير من الشر والهدى من الضلالة ويحقّق المنجزات المعنوية والمادية ويجسّد العطاء البشري بكلّ أشكاله. وبتعبير آخر يمكن أن نقول: أنّ دور الإعلام هو في تحقيق الظاهرة الجدلية الشاملة التي تتباين بها مصائر العباد وتختلف بها قدراتهم، وفي ضوء هذه الجدلية تتمّ المداولة بين الناس التي هي قانون من قوانين الخلق الإلهي. نجد هذه الظاهرة في قوله عزّ من قائل:

(إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)[1].

الإعلام علم أو فن؟

وقبل أن نعيّن الصفة الغالبة على الإعلام فنعرف نصيبه من العلم الحقيقي أو من الفن المستند إلى المواهب الأصلية يجدر بنا أن نقرّر ظاهرة ثابتة هي أنّ المركب الأساسي للإعلام هو (الكلمة) التي تصبح (عبارة) حين يجتمع عدد منها لأداء معنى معيّن. وليس المقصود بالكلمة هنا شبيهين بالكلمة يؤدّيان الدور الذي تؤدّيه. إنّ كلّاً من النغم والصورة والكلمة وما يجري مجراها كالإشارة ذات المعنى الخاص، هي رسائل تعبر المسافة القائمة بين المرسِل (بكسر السين) والمرسَل إليه (بفتح السين) ولا عجب في أن تطلق كلمة (عبارة) على الجملة ذات الفائدة لأنها تنطوي على معنى العبور من المرسِل إلى المرسَل إليه. يدخل في هذا المعنى وعلى هذا الأساس كلّ الفنون الأدبية من شعر ونثر ومسرح ثمّ المعنى، وعلى هذا الأساس كلّ الفنون الأدبية من شعر ونثر ومسرح ثمّ الفنون التشكيلية كالنحت والرسم والتصوير والزخرفة والعمارة ومن بعدها الفنون الموسيقية وفنون الرقص والإيقاع والتمثيل وغيرها.

1 . الآية 140 من سورة آل عمران .

كما قد يكون للإنجاز العلمي النظري التطبيقي دور إعلامي حين يُحدِث الإنجاز العلمي تأثيره النفسي العميق في النفوس أو يفتح للعقل البشري أبواباً لتبادل المعارف واكتشاف الجديد منها. بل نستطيع أن نقول أنّ المخلوقات المختلفة ابتداء من الأفلاك حتى وجوه الحياة النامية من نباتية وحيوانية وإنسانية تحتوي على أبعاد إعلامية يقوم فيها حوار بين الإنسان من ناحية وبين المخلوقات من ناحية أخرى. يكفي أن نتذكّر الحوار الذي جرى بين إبراهيم الخليل عليه السلام وبين الكوكب والقمر والشمس في بحثه عن مصدر الخلق لندرك بأنّ للطبيعة الجامدة دورها في إثارة العقل الإنساني وتحقيق رسالة إعلامية معيّنة.

أمّا أنّ في الإعلام صفة العلم الحقيقي فالثابت أنّ العملية الإعلامية مشروطة بمعرفة قوانين كثيرة... فإذا كان الإعلام بالكلمة المنطوقة، فإنّ للكلمة قوانينها الثابتة التي يتعارف عليها الناطقون بها. فمن جهل هذه القوانين عجز عن استعمال الكلمة التي يستعين بها الإعلام. وإذا كان الإعلام بالنغم أو الصورة أو الأداء التمثيلي وغيره من فنون الرقص والإيقاع، فهذه الفنون كلّها خاضعة لقوانين ثابتة يتعارف عليها القادرون على استعمالها. ومن عجز عن معرفة القوانين الخاصة برموزها وإشارتها المختلفة فقد عجز عن القيام في هذا الميدان بالعملية الإعلامية المطلوبة.

وخلاصة القول أنّ للإعلام قوانينه وقواعده الشبيهة بقوانين العلوم الحقيقية وقواعدها. يضاف إلى ما سبق أنّ الإعلام الناجح يحتاج إلى معرفة عميقة بقوانين المجتمعات البشرية وحقائق النفس الإنسانية. فكلّما زادت معرفة الإعلامي بهذه الحقائق وتلك القوانين زاد إتقانه لعمله الإعلامي.

★ ★ ★

لكنّ الإعلام في الوقت نفسه متّصل بالمواهب الفنية، فليس كلّ دارس لقواعد اللغة وقوانين الموسيقى والتصوير والنحت والشعر والنثر وغيرها من أنواع الأداء الإعلامي يجب أن يكون بالضرورة إعلامياً ناجحاً، ذلك لأنّه في حاجة إلى موهبة خاصة وقدرة ذاتية يحسن معها اختيار الكلمات المناسبة ويتميز بالقدرة على التخيّل والحفظ، ويحسن تذوّق الأشياء الجميلة فإذا كان الإعلام عن طريق الكلمة وجب أن تكون الفكرة التي تعبر عنها والجرس الذي تتميّز به والسياق الذي ترد فيه ذات قدرة إيحائية متميزة. وكذلك الشأن في النحت والتمثيل والإيقاع الموسيقي. ولما كان الناس يتساوون في مواهبهم الفنية فقد وجب أن تتباين قدراتهم في العطاء الإعلامي.

ويبلغ من أهمية الفن في العطاء الإعلامي أنّ المعجزة الكبرى التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم هي الكلام السماوي الذي يشتمل عليه القرآن الكريم. هذه المعجزة هي معجزة بيانية في الوقت نفسه الذي تميّز فيه بالإعجاز الفكري الشامل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. والله هو نفسه قد تحدّى أبلغ بلغاء قريش أن يأتوا بمثل هذا القرآن، أو بآيات من مثله. والإعجاز هنا يتمثّل في فنّ الأداء لا في علم الأداء وحسب. إذ لو كان الإعلام القرآني علماً ذا قوانين وقواعد محدّدة فقط لوجب أن يتساوى الجميع في تحقيق هذا الإعلام دون استثناء. لكنّ الواقع أنّه يتميّز بأصالة في العطاء تتجاوز القدرات الفنية الأصيلة عند الإنسان.

★ ★ ★

والجدير بالذكر أنّ الذات الإلهية قد طرحت موضوع الأصالة في فنّ الإعلام وكشفت عن التمايز في المواهب الفنية حين تحدّت المشركين من بلغاء العرب أن يأتوا بمثل الذي جاء به الوحي من كلمات السماء كما في قوله تبارك وتعالى: (وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ) [1]. وقوله: (قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) [2] وقوله (قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ) [3] فهل كان من الممكن أن يصدر هذا التحدّي من الذات الإلهية لو كان الإعلام الذي يتوسّل الكلمات لمجرد علم ذي قوانين وقواعد ثابتة واضحة تستوعبها العقول كما تستوعب قوانين العلوم المادية وقواعدها؟

1 . جزء من الآية 23 من سورة البقرة .

2 . جزء من الآية 38 من سورة يونس.

3. جزء من الآية 13 من سورة هود.

على أنّ القرآن الكريم لم يقتصر على توجيه التحديات في الميدان البياني وحسب بل تجاوزه إلى توجيه التحديات في ميدان الفكر الخالص حين قال تبارك وتعالى: (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اختلافا كَثِيرًا) [1].

وقد أثبتت حوليات التاريخ استمرار هذا التحدّي، وبالتالي استمرار العجز الفني والفكري عند الأجيال اللاحقة كلّها حتى يومنا هذا. فلا عجب أن يكون في الإعلام بعض صفات العلم الحقيقي، لكن صفته المميزة له هي أنّه فنّ من الأداء البياني والفكري نابع من المواهب الأصلية التي يتمايز فيها البلغاء وتتباين بها أقدار المفكرين.

هل أنّ الرسالات السماوية ظاهرة إعلامية؟

جواب هذا السؤال نجده في الشروط التي اتفق الإعلاميون على وجوب توفرها في الرسالة الإعلامية. لقد اتفق الإعلاميون المحدثون على أنّ شروط العملية الإعلامية هي توفر ما يلي:

1- المصدر أو المرسِل.
2- الرسالة.
3- المرسَل إليه أو المستقبل.
4- الهدف من الرسالة [2].

هذه الشروط تنطبق انطباقاً تاماً على الإعلام الذي قامت به الذات الإلهية. فهي المصدر الذي ينطق النبي المرسَل باسمه... والوحي السماوي الذي يجري تبليغه في خطاب موجّه إلى الناس أو في صحف مبيّنة أو في كتب سماوية جامعة هو الرسالة. أما المستقبل أو المرسل إليه فهو الناس الذين توجّه رسالة السماء إليهم. وأما الهدف فهو تعليم هؤلاء الناس وهدايتهم إلى طريق الرشاد.

1. جزء من الآية 82 من سورة النساء.

2 . انظر الكتاب (النظرية الرياضية لعملية الاتصال) تأليف شانون ويفر 1949.

في ضوء ما ذكرناه أعلاه يمكن أن نقول بأنّ الرسالات السماوية هي ظاهرات إعلامية تامّة لأنّ شروط الرسالة الإعلامية الأساسية متوفرة فيها.

خصوصية الرسالات السماوية أو خصائصها:

والجدير بالذكر أنّ الرسالات السماوية التي تتوفّر فيها الشروط الأساسية للرسالة الإعلامية قد تميزت بخصائص لا تختلف في جملتها عن الخصائص المتوفرة في الرسالات الإعلامية البشرية الناجحة وإن كانت ذات أصالة خاصة في أدائها المعجز.

1-لقد تعاقبت رسالات السماء على ألسنة عدد كبير من الأنبياء والرسل صلوات الله والسلام عليهم. منهم من ورد ذكره في القرآن ومنهم من لم يرد ذكره ولذلك فنحن لا نستطيع أن نحدد عددهم على التحقيق. وكلّ ما يقال عن عددهم هو من قبيل التخرّصات التي جاءت بها الإسرائيليات أو وردت في أحاديث لا تبلغ في جملتها مبلغ الصحة الكاملة. ولو شاء الله أن يعين عدد هؤلاء الأنبياء والرسل لفعل ولكنه لم يفعل. لقد اقتصر على قوله في هذا الصدد: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ) [1]هكذا قطعت جهيزة قول كلّ خطيب.

2-ولقد لوحظ أنّ العلاقات بين الأنبياء والرسل من جانب وبين الأقوام الذين تعاقبوا في التاريخ البشري من جانب آخر قد اختلفت اختلافاً كبيراً. أما آدم عليه السلام فقد عرفنا من قصته الواردة في القرآن أنه لم يكن غير نموذج بشري قدّمته العناية الإلهية على أنه الصورة الواقعية المحتملة لإنسان المستقبل بما فيه من جوانب القوة والضعف. فهو قوي بما علمه الله من الأسماء، وهو ضعيف حين نسي ولم يجد الله عنده العزم المطلوب، وهو مستحق للعفو والمغفرة حين علّمه الله كلمات فتاب عليه. وأمّا نوح فقد عرفنا من قصته الواردة في القرآن أنه قد أنذر قومه وحذرهم من مغبة الكفر والعناد والتنكّر لأوامر الله ونواهيه حتى إذا يئس منهم أمر ببناء الفلك ثم قضى الله بإبادة الكفرة بالماء الدافق الذي تحوّل إلى طوفان مدمّر. وأما ابراهيم الخليل فقد حدثنا وحي السماء في شخصه عن وقائع كشفت عن تفصيلات جديدة في التوجّه إلى السماء والدعوة إلى الله وبالرغم من عناد قومه ومبادرتهم إلى إحراقه بالنار لم يصبهم ما أصاب قوم نوح من التدمير والإبادة.

1 . الآية 78 من سورة غافر

ثم يأتي موسى عليه السلام فترفده العناية الإلهية بتسع آيات بينات معجزة إلى جانب التوراة. وتتميّز معجزاته بما يشبه في ظاهره سحر السحرة في عصره. وتبرز في حياته وقائع متباينة في أغراضها وفي الكشف عن جوانب الحقائق الإنسانية الكونية، عن تلك التي عرفناها عند ابراهيم الخليل ونوح عليهما السلام.

ثم يجيء عصر عيسى عليه السلام فتجري على يديه معجزات غير تلك التي جرت على يد موسى عليه السلام من قبله. مما يوحي باختلاف القيم الثقافية وأساليب المعرفة في عصره عن تلك التي كانت في العصور السابقة.

فإذا أرسل محمد صلى الله عليه وسلم لم تبرز إلى سطح الأحداث غير ظاهرة واحدة هي الظاهرة القرآنية التي جاءت تحدّياً بيانياً فكرياً، وفي الوقت نفسه، رسالة للعالمين فقد تجاوزت الحدود المحلية والقومية التي وقفت عندها فيما نعلم الرسالات السماوية السابقة.

★ ★ ★

ومما يلفت النظر أنّ المعجزات المادية التي جرت على أيدي الأنبياء والرسل السابقين كتحدّيات للمعاصرين لها أو عمليات الإبادة وتدمير الكفرة المعاندين لم تعد ذات دور أساسي في الدعوة إلى الله. فقد كان القرآن الكريم ولا زال هو الرسالة الإعلامية الوحيدة التي انعقدت بها ولا تزال الصلة بين الله وعباده. ولا شك أنّ اقتصار السماء على الاستعانة بالوحي السماوي المعجز وسيلة وحيدة للدعوة إلى الله هو الإعلان عن أنّه الدعوة الخاتمة لدعوات السماء البحتة المتعاملة مع العقل والقلب والنفس، أي المتعاملة بلغة العقل المفكر، وبلغة القلب الواعي، ولغة النفس المنفعلة بالعواطف المختلفة. والصفة الأساسية التي تتميز بها الرسالة الإعلامية هي الحوار.

3-والجدير بالذكر أنّ الحوار الواعي الذي يجري فيه تبادل الرأي وتتحقق به المناقشات بين طرفي الإعلام الرئيسيين هو الظاهرة الإعلامية العليا أو هو قمة الإعلام الذي يصلح للبقاء والقادر على تحقيق الغاية منه. فهو اللغة الخالدة والفاعلة والأسلوب الذي يمكن أن تواجه به كلّ الأجيال.

وقد بلغ من سعة الحوار وشموله لكلّ صغيرة وكبيرة في كتاب الله أنّ الله عز وجل لم يهمل في وحيه مناقشة أي واقعة من الواقعات رداً على ادعاءات المنكرين وافتراءاتهم. كما أنّ الحوار الذي لجأت إليه العناية الإلهية دون سواه هو إعلان عن بلوغ البشرية قمة النضوج وعن خروجها من الحدود المحلية والقومية إلى عالمية الثقافة البشرية.

★ ★ ★

وهذا لا يعني أنّ الحوار لم يكن مادة الدعوة إلى الله في الرسالات السابقة إذ لا معنى للرسالة ولا سبيل إلى تحقيق الغاية منها إلا به. لكنّ الحوار عند الأنبياء والرسل السابقين كان يجد إلى جانبه المعجزات المادية التي تلعب دوراً أساسياً في إدهاش أو في القضاء عليهم عندما تقضي الحكمة الإلهية بذلك. مما يدل إلى محدودية الدعوة في الماضي من ناحية وإلى ضرورة المعجزات الرادعة لأقوام لم يبلغوا درجة الوعي المطلوب من ناحية أخرى.

ومن الممكن تلخيص الخصائص الأساسية في الظاهرات الإعلامية السماوية بترتيبها الزمني كما يلي:

1- حوار ضيق في عهد آدم عليه السلام مع تحديد لفطرة النموذج البشري الذي هو شخص النبي نفسه.
2- حوار غير مجد ينتهي بإبادة قوم نوح بالطوفان.
3- حوار غير مجد أيضاً ولكنّه يتميّز بالتنوّع حين يحاور النبي ابراهيم عليه السلام كلّاً من الكواكب والقمر والشمس وأبيه وأهل قريته وصاحب الملك وربه، ترافقه معجزة إنقاذه من النار وحسب مع ظهور وحي مكتوب في صحف مبينة.
4- يتكرّر الحوار عند رسل آخرين من مثل هود وصالح وشعيب وينتهي معجزات مبيدة رادعة.
5- ظهور نوع جديد من المعجزات المادية ذات العلاقة بثقافة القوم ومهاراتهم العلمية على يد موسى عليه السلام مع اتساع لغة الحوار وتنوّعها في كتاب سماوي جامع (التوراة).
6- ظهور نوع آخر من المعجزات المادية ذات العلاقة بثقافة القوم ومهاراتهم العلمية على يد عيسى عليه السلام مع اتساع لغة الحوار وتنوّعها في كتاب سماوي جامع (الإنجيل).
7- ظهور نوع أخير من الحوار الشامل الذي يتوجّه إلى الناس كافة لا إلى أناس بأعيانهم دون أن ترافقه معجزات تدهش الناس أو تعاقبهم على الطريقة القديمة، مما يدل إلى أنّ الإعلام الذي يصلح لتأدية رسالة عالمية هو الذي يكون على صورة القرآن.

★ ★ ★

كلّ الملاحظات التي أثبتها في الفقرات السابقة هي التي دفعتني إلى إعمال العقل واستلهام القلب للكشف عن خصائص السياسة الإعلامية السماوية في جانبيها الفكري والتاريخي.

ولعلّي لا أحتاج إلى توكيد الظاهرة التي كشفت عنها هذه المقدّمة، وهي أنّ الرسالات الإعلامية السماوية لم تتّخذ خطة وحيدة ولم تستعن بأسلوب واحد في الدعوة إلى الله. إنّ لها قصة متكاملة الحلقات يأخذ بعضها برقاب بعض كما أنّ لها رؤية متكاملة يجدر بكلّ متدبر لآيات الله في قرآنه المجيد أن يحدّد معالمها بالقراءة الموجودة والتعرف إلى ما ترمز إليه الآيات المتلوّة وتقريره للمسلم من الحقائق الإعلامية التي يجدر به أن يستضيء بها في تعامله مع أصحاب العقائد المغايرة.

ولما كان كتاب الله كتاب علم وهداية... ولما كان الله عز وجل قد قال لنا في محكم تنزيله: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)[1].

ولما كانت للعلم أصوله وقواعده المعرفية التي جعلت منها العناية الإلهية شواهد بارزة في طريق المعرفة.

ولما كانت الرسالة الإعلامية الناجحة مشروطة بالبيان القوي والفكر الواضح فقد وجب أن يكون في القرآن الكريم ما يدل الدارس المتنبه إلى وجود هذه الشواهد ويساعده على التعرف إليها وتحديد أبعادها.

ولما كانت كلّ حضارة بشرية قد صدرت عن منهج معين في التفكير يتصل بخلفية ثقافية محدّدة كما نجد في الحضارات البشرية السابقة واللاحقة كالحضارة الفرعونية القديمة والحضارة اليونانية – الرومانية ثم الحضارة الغربية المعاصرة.

ولما كان القرآن الكريم قد حقّق تحولاً جذرياً في تفكير المسلمين أولاً ثمّ في تفكير البشرية كلّها في عدد من القرون وصنعت في ضوئه حضارة ذات أبعاد عالمية تحدّدت بها مناهج معينة في التفكير ونجحت في استقطاب عقول الملايين من البشر في عدد من القرون، فقد وجب أن يكون في التعليم القرآني ما يساعدنا على تحديد منهج واضح في المعرفة.

ولما كان الطابع الخاص بالحضارة الإسلامية ذا صلة فريدة يتميز بها عن الطوابع الخاصة بالحضارات السابقة للإسلام واللاحقة به فقد وجب أن نعثر على مقوّمات هذه الأصالة وشروطها في كتاب الله.

★ ★ ★

1 . جزء من الآية 3 من سورة المائدة

والواقع أنّ كثيراً من الدارسين قد حاولوا أن يعينوا الطابع الإسلامي الخاص ويحدّدوا أبعاده ولا سيما الباحثون منهم فيما يسمّى اليوم (عالم الحضارات) أو(فلسفة التاريخ) لكنّ أحد منهم لم ينتبه إلى ما يمكن أن نطلق عليه اسم (علم المعرفة) أو (منهج المعرفة) في كتاب الله رغم أنّ الكشف عن هذا المنهج أو ذلك العلم هو أبجدية أساسية للمراحل الدراسية التي تأتي بعدها.

ولعل السبب في ذلك هو أن علماء الحضارة والباحثين في علم المعرفة من الغربيين، ونحن عيلة عليهم، لم يجدوا في القرآن غير كتاب ديني بالمعنى الذي يتعارفون عليه وهم الذين صنّفوا الدين تصنيفاً نابعاً من تجاربهم الخاصة المتصلة بتاريخ الكنيسة المسيحية في اوربا.

وبتعبير آخر نستطيع القول: أنّ مناهج المعرفة في الغرب المعاصر الذي يهيمن على العقل الإنساني في القرن العشرين ويصوغ طرائق التفكير ويعطي الصيغة التي يطرحها كلّ ما تحتاج إليه هي في حقيقتها رد فعل لمناهج المعرفة التي كانت تلتزم بها الكنيسة في القرون الوسطى وبقيت تكافح للحفاظ عليها ومنحها فرص الهيمنة على صوغ الأفكار وأساليب التعامل مع المعرفة في كلّ جيل حتى اليوم رغم التراجع الذي سجلته أمام الأجيال المتعاقبة من المثقفين الرافضين لعالمها الفكري والروحي.

★ ★ ★

إنّ الواقعية التي نادى بها فرانسيس بيكون الانكليزي والعقلانية التي دعا إليها المفكر الفرنسي رينيه ديكارت في القرن السابع عشر هما الرد الصريح على جمود الكنيسة ورفضها لديناميكية الفكر الإنساني وحرصها على الاحتفاظ بما كانت تعتقده من الآراء الخاصة بعالم السماء من ناحية وبالحياة الدنيوية من ناحية أخرى.

والجدير بالذكر أنّ الكنيسة شنّت حرباً شاملة ضد دعاة الفكر الواقعي والمنادين برفض المسلمات الكنسية فحدثت سلسلة من المآسي التي أصابت بالموت حرقاً عالماً مثل جوردان وبرونو الإيطالي وبالتعذيب والسجن كلّاً من غاليليو وكوبر نيكوس لمجرد أنّ هؤلاء الرجال وأمثالهم قد طرحوا آراء علمية لها علاقة بطقوس العبادة وأسرار العقيدة بل بشؤون الدنيا ووقائع الطبيعة والحياة المادية. وكان من نتائج هذا الصراع أنّ الواقعية في البحث والعقلانية في التفكير قد عزلتا التيارات العلمية والفكرية الجديدة عن عالم الكنيسة وخلفياتها الثقافية وعقائدها المحوطة بالأسرار.

وكان من نتائج هذا العزل أنّ التيارات الفكرية الحديثة لم تحاول القضاء على عالم الكنيسة بل اقتصرت على تقليم أظافره والحدّ من تدخلاته في شؤون الحياة الدنيوية فنشأ عن ذلك ازدواج ثقافي.... في أحد جانبيه رؤية كنسية دينية تقوقعت على نفسها ورفضت الانسياق وراء التحرك الجديد إلا في عسر عسير وبطء شديد، وفي الجانب الآخر رؤية علمية مادية واقعية ترتبت على التيار الذي يرمز إليه كلّ من بيكون الانكليزي وديكارت الفرنسي ومن تأثر بهما وسار سيرتهما، فكانت العلمانية هي الفاصلة بين أسرار الدين الكنسي وثقافته ومناهجه وبين مناهج البحث والتفكير عند أصحاب العقول المتحرّرة.

وتعاقبت أجيال رسخت فيها ظاهرة الانفصام بين الفكر الديناميكي الواقعي وبين العقائد الكنسية الجامدة وفكرها التقليدي.

وعندما سيطرت الحضارة الغربية على العالم المعاصر لم يكن في وسع قادتها المفكرين وعلمائها أن يتحرّروا من القيم والمسلّمات التي نشأت نتيجة الصراعات المحتدمة بين القديم والجديد عندهم.

هكذا بقي الدين عندهم حيثما وقعوا على عقيدة دينية وثقافة دينية هو الدين الذي ترمز الكنيسة إليه... كما بقي الفكر الحر والعلم الواقعي ميزتين للعلم الجديد منفصلين عن العالم الديني. يدخل في هذا التصنيف عندهم الدين الإسلامي وبالتالي القرآن الكريم نفسه.

★ ★ ★

إنّ الفكر الغربي المعاصر حتى يومنا هذا يرفض عملياً أن يرى في الإسلام وكتابه السماوي غير ما يراه في دين الكنيسة وأناجيلها الأربعة.

وقد مكّن لهذا الفكر الغربي دوره في فرض وجهة نظره ومنح الشرعية لمناهجه في المعرفة ما تمتع ويتمتع به من كفاءات إعلامية وقدرة كبيرة على نشر أسلوبه في التعامل مع الكون والطبيعة والحياة وبالتالي مع عالم المعرفة المادية.

وبلغ من سلطان المد الثقافي الغربي وتفوّقه المادي والمعنوي أنه أحدث عند قطاع كبير من المثقفين المسلمين انفصاماً ثقافياً بين هذا القطاع وبين الرؤية المعرفية في القرآن الكريم، كما جمد كلّ نشاط عقلي في هذا القطاع والبحث المنظم. وبذلك لم يعد القرآن عند هذا الفريق الذي توصل إلى الهيمنة على التيارات الفكرية الرسمية، نقول لم يعد القرآن عند هذا الفريق غير مجموعة من التعاليم الروحية المعزولة عن الحياة اليومية.

نقول بأنّ الغربيين حتى اليوم يصرّون على اعتبار الإسلام ديناً تمارس طقوسه وتتردّد تعاليمه داخل المساجد والحلقات الفكرية المعزولة من الحياة المتحركة النشيطة بل يصرون على اتهامه بالعجز عن المواجهة مطالب الحياة الفتية النشيطة.

ومن الممكن أن نضيف إلى السبب التاريخي الذي أشرنا إليه في الفقرات السابقة سبباً آخر لا يقلّ تأثيراً عن السبب الأول وهو أنّ من مقتضيات التفرد القيادي لعالم الحضارة الغربية هو عدم الاعتراف بحركية الفكر الإسلامي وأصالة مناهج المعرفة في القرآن. فلو اعترف الغرب بهاتين الحقيقتين لأحدث زلزلة عنيفة في العقل الغربي العام وبالتالي أحدث شرخاً في البناء الثقافي عند الشعوب الغربية.

ولا عجب في ذلك فقد انقضت أجيال عديدة ردّدت فيها عقول الرافضين لمناهج الفكر الديني الزعم القائل بأنّ الدين غريب عن الحياة، وأنه لا يصلح لبناء مجتمع متطور متحرك ذي أبعاد مستقبلية. وقد صدرت عن هذا الترديد المستمر مسلّمات تتّصل بكلّ دين أو بكلّ ما يطلق عليه اسم دين، حتى غدت هذه المسلمات قاعدة من قواعد البنية الحضارية الغربية المعاصرة. إنّها قاعدة العلمانية التي كسبت ولا تزال تكسب المزيد من الأنصار بين فئات المثقفين المسلمين ممن استأثر الإعلام الغربي بعقولهم واستقلت مناهج المعرفة الغربية باهتماماتهم الأساسية.

وإذاً فإنّ إهمال الجوانب المضيئة في مناهج المعرفة وحقائق الإعلام في القرآن هو الحصيلة الضرورية لعاملين اثنين:

1-تأثر الغرب بالتجربة الدينية الكنسية التي دفعته إلى سحب رأيه في الفكر الديني الكنسي على كلّ دين في العالم.

2-حرصه على حماية توازنه الحضاري وتوكيد ثقة شعوبه بهذا التوازن جاعلاً من مصلحته في البقاء شيئاً فوق الحرية في البحث والتفكير، أي جاعلاً من مصلحته في البقاء شيئاً فوق الحرية في البحث أي جاعلاً من ولائه لسلطان حضارته شيئاً فوق الولاء المطلوب للحقيقة التي يفترض أن يلتقطها حيث وجدها خلافاً لما توارثناه من وصية النبي صلى الله عليه وسلم التي قال فيها: (المعرفة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها).

ولما كان حرصنا شديداً على فتح أبواب المعرفة مشرّعة أمام كلّ الطالبين.

ولما كنّا نعلم أن الإسلام الذي يحتويه كتاب الله، هو دين شامل، أي دين حياة تنتظم به أنشطة العقل كما تنتظم به أنشطة العبادة فتشكّل هذه وتلك كلّاً متكاملاً بحيث يصبح كلّ نشاط صغيراً كان أو كبيراً جزءاً من العملية التعبّدية...

ولما كنا نعلم أنّ على كلّ جيل من المسلمين أن يتدبر آيات الله في قرآنه وأن يصوغ منها مناهج حياته بفضل الحركة الفكرية والشمول المنهجي اللذين يتميز بهما الوحي السماوي، فإنّ من واجبنا نحن في هذا العصر،كما هو من واجب أبنائنا وأحفادنا حتى يوم يبعثون، أن نصوغ من آيات الله البيّنات في قرآنه مناهج حياتنا في ضوء الحركة الفكرية التي يبعثها فينا والشمول المنهجي الذي يطرح لنا أصوله وقواعده الأساسية.

ولعلّ هذا هو المعنى الذي جاء في الأثر الذي يقول (يبعث الله على رأس كلّ مائة سنة من يجدّد لهذه الأمة أمر دينها) والمهم في هذا الأثر ليس تحديد فترة التجديد بل الإعلان عن أنّ التجديد هو ظاهرة صحية.

يضاف إلى ما سبق أنّ دعوة النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى الاجتهاد ودفعهم إلى سلوك هذه المغامرة الكاشفة عن فتوّة العقل المسلم بغض النظر عن نتائج هذا الاجتهاد بقوله: (للمجتهد المصيب أجران وللمجتهد المخطئ أجر واحد...). إنّ هذه الدعوة هي البرهان الدامغ والآية القاطعة على ضرورة الاحتفاظ بالنشاط العقلي وتنمية العلاقة الجدلية بين الإنسان المسلم وكلّ من سواه من المخلوقات العاقلة وغير العاقلة.

★ ★ ★

في ضوء ما سبق نجد حقاً على كلّ جيل مسلم أن يعمل عقله في وضع صياغات جديدة وحلول متجددة والاستعانة بأساليب الفكر المتحرك مع كلّ واقعة وأمام كلّ ظاهرة. ولكي يصبح هذا الحق أمراً واقعاً تقضي علينا أمانة التفكير ومسؤولية التأمل الحرّ في أن نتلوَ كتاب الله تلاوة مجوّدة متدبّرة باحثين عن المنهج الفكري الذي طرحته العناية الإلهية لنا في تضاعيف الآيات والسور.

وطبيعي أنّنا حين ندعو إلى هذا النحو من البحث والتأمّل لا نقصد إلى وضع عقيدة الوحدانية والأوامر الصريحة الواضحة ذات النصوص المحدّدة في ضوء العمليات الاجتهادية، ذلك لأنّ الاجتهاد لا يكون في موضع النص... ومع ذلك فإنّ ميدان الإجتهاد واسع جداً بعيد ما بين الأطراف.

وإنّ السلف من بين العلماء رغم ما تميزوا به من النشاط الفكري لم يغطّوا هذا الميدان كلّه... وليس من المعقول أن تتمّ تغطيته أبداً. فطرق التفكير ومناهج المعرفة تتجدّد مع كلّ حضارة بل مع كلّ قرن من قرون. كما أنّ حصائد العقول وأساليب البحث

تتعاقب في غير توقف. فالمعرفة لا تعرف نهاية تقف عندها... والتأمّل الفكري لا ينقطع سيله عند حد معين. ولو حدث شيء من ذلك لتوقفت مسيرة الحضارات البشرية وأفلست العقول. ولعلنا نعلم جميعاً أن الأجيال الإسلامية التي توهّمت بأنّ الأول لم يترك للآخر شيئاً يقوله أو يبدعه أو يفكر فيه هي التي بتقليد القدماء والوقوف عند مرحلة التي بلغوها فلم يتجمّد النشاط الفقهي وحسب بل تجمدت بسبب ذلك كلّ وجوه الحياة فأغلقت الطبيعة أبوبها... وأصبح الكون منغلقاً على نفسه... وتقوقعت النفس البشرية منطوية على نفسها في ظلمات كهوف الجهل... وجمدت حركة الحياة في المجتمع وأسِنَت مياه السياسة وخاف الناس من كلّ جديد فيما لا علاقة له بالعقائد الأساسية.

ولما كانت وظيفة الحياة النشيطة والمتحركة موصلة بالقدرة على الاتصال الإعلامي وتغذية ظاهرة الحوار الصحي كما هي موصولة بمناهج المعرفة التي تتيح لها مزيداً من الانتصارات في ميدان الإنجاز الواقعي المتجدّد والفكر الحر فإنّ من الطبيعي أن نضمّ في بحوث هذا الكتاب الذي نقدّمه إلى الباحثين كلّاً من الظاهرة الإعلامية في كتاب الله في جانبيها التاريخي والعلمي، ومن مناهج على المعرفة التي تساعدنا على صوغ أساليب التفكير المنظم والتأمل المبدع والرؤية الواقعية لما يجري حولنا وتقع عليه حواسنا.

إنّ المعرفة المعزولة عن النشاط الإعلامي وفنّ الاتصال بالآخرين لا تلبث أن تذوي وتفقد قدرتها على النمو الإيجابي. كما أنّ النشاط الإعلامي المعزول عن مسيرة المعرفة يفقد تأثيره ويراوح في مكانه ويصبح تكراراً مملاً يبعث على السأم والغثيان.

والجدير بالذكر أنّنا خصّصنا القسم الأول من (عالم القرآن) الذي جعلناه عنواناً على سلسلة من الدراسات القرآنيه، لبحث الجانب الإعلامي من كتاب الله، على أن نخصّص القسم الثاني لبحث مناهج المعرفة في هذا الكتاب السماوي الكريم.

★ ★ ★

ولما كنا نعلم أنّ هذا الأسلوب من البحث لم نسبق إليه في التعامل مع كتاب الله عز وجل، إن كان فيما يتعلق بدراسة الظاهرة الإعلامية فيه أو فيما يتعلق بمنهاج المعرفة التي طرحها أمام الفكر المسلم، فإن تورطنا في الخطأ غير المقصود بالطبع أمر لا سبيل إلى تجنّبه. وكلّ ما نرجوه هو أن يستقبل القارئ ما نسجله من ملاحظات والافكار بالجد والاهتمام الضروريين الذين يتكافآن مع الدور القيادي العظيم الذي قام ويقوم به كتاب الله في عالم المسلمين بخاصة وعالم البشرية كلّها بعامة.

ونحن لا نطرح هذا الكتاب للقارئ المتخصص والعالم المستوعب وحسب بل نطرحه لكلّ قارئ راغب في المعرفة مؤمن بالدور القيادي العظيم للقرآن الكريم متفق معنا على النهضة العربية الإسلامية التي بدأت شتلاتها تهتز في أرضنا الخصبة مشروطة بتغذية العقيدة من ناحية والاستعانة بالخلفية الثقافية التي صنعها تراثنا الإسلامي، والانطلاق من وعي حقيقي بتوجيهات كتاب الله وتعليماته من ناحية ثانية.

والله نسأل أن يتقبل منا هذا العمل الذي لا نبتغي به غير وجهه الكريم إحياء لدينه وتمكيناً لرسالته في الأرض... والحمد لله أولاً وآخراً على أن وفقنا إلى القيام بهذه المحاولة ورحم الله من أهدى إلينا خطأنا والله من وراء القصد.

الكويت 1979/12/1

رمضان لاوند

الباب الأول

الفصل الأول

آدم عليه السلام

النموذج البشري الباقي للإعلام السماوي

تمهيد:

أوّل وأبرز ما يواجه قارئ القرآن الكريم أنه كتاب إعلامي، فهو تعبير عن رسالة السماء إلى العالمين... ولما كانت هذه الرسالة السماوية قد حققت غرضاً أساسياً هو إعلام الناس بالحق الذي جاء به وحي السماء من ناحية، والفوز بهداية الملايين من المؤمنين برفع القواعد الراسخة للوحدانية والدعوة إلى الله من ناحية أخرى، فمن الطبيعي جداً أن تدرس آياتها البينات على اختلاف الصور والأساليب التي وردت فيها، باعتبارها مادة إعلامية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

والجدير بالذكر أنّ القصة القرآنية هي واحدة من الصور والأساليب التي استعانت بها رسالة السماء إلى الناس كافة غاية تربوية تعليمية لا للتسلية وتزجية أوقات الفراغ عند القارئ المتدبر. يؤكد هذه الحقيقة ما جاء في كتاب الله على صورة الاستفهام التقريري في قوله عز وجل: (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها)[1] وفي قوله تبارك وتعالى (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اختلافا كَثِيرًا) [2]. وإذاً فالغاية من القصة القرآنية هي تدبّر المعنى الذي تقصد إلى تقريره والغرض الذي تهدف إلى تحقيقه. يكفي أن نتلو قوله عز وجل: (الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ) [3] وقوله: (كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) [4] وقوله: (وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَأَعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ) [5].

1 . الآية 24 سورة محمد

2. الآية 82 سورة النساء.

3 . الآية 1 سورة هود .

4. الآية 3 سورة فصلت.

5. الآية 44 سورة فصلت.

هكذا يتّضح لنا أنّ آيات الكتاب الكريم قد وردت محكمة مفصّلة وخرجت إلى الناس بلغة عربية صريحة بيّنة. كلّ حرف وكلمة وجملة نزلت بقدر معلوم. والقصة في كتاب الله مؤلفة من جمل وكلمات وحروف تشتمل على معان معينة تتحدث عن وقائع محددة فيها الجدّ الخالص، والتعليم المحض، وتتميّز بالإداء الأدبي المعجز، شأنها شأن كلّ الأساليب التي جاء بها الكتاب السماوي الكريم.

والجدير بالذكر أيضاً أنّ القصة القرآنية قد لعبت دوراً أساسياً في تحقيق معان معينه وقامت بمهمة رئيسية في تنوير القلوب وتمهيد الطريق إلى عقيدة الوحدانية التي هي الغرض الأول والأساسي لكلّ رسالات السماء. أوَليس أنّه عز وجل قد قال في محكم تنزيله: (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ)[1]؟

وإذاً فالقصة في القرآن رافد من روافد الدعوة إلى الله... جاءت على صور متعدّدة ووردت فيها وقائع محددة بقدر معلوم. وهذا يعني في منظور الإعلام السماوي أنّ القصة ليست لإثراء الخيال ولا لإمتاع العقل بل هي لتحريض العقل واستخدام الخيال لاستيعاب الحقائق الضرورية التي تقود الإنسان إلى الله.

والواقع من أجيال الدعاة والمصلحين وأرتال الأدباء الذين تعاقبوا على امتداد القرون قد اكتشفوا بدورهم أهمية القصة وتعرفوا إلى الدور العظيم الذي يمكن أن تقوم به في تربية القارئ وتحريك ذهنه وفتح أبواب المعرفة أمامه، حتى أنّ المتميزين منهم قد جعلوا من القصة وسيلة أساسية لطرح مذاهبهم الفكرية وتقديم الحلول المطلوبة للكثير من المعضلات التي واجهت ولا تزال تواجه المجتمعات البشرية. والخالدون من الأدباء والمصلحين والدعاة هم الذين جعلوا من قصصهم شواهد مضيئة في طريق البشرية إلى المستقبل. فالقصة في جوهرها وحقيقتها الأصلية عملية تعليم ومحاجاة وإقناع وتلقين... وبعبارة أخرى هي فنّ أساسي من فنون الإعلام الناجح.

1 . جزء من الآية 48 من سورة النساء.

قصة آدم علية السلام

في ضوء هذا المفهوم نتلو قصة آدم عليه السلام وندرك أنّ وقائعها التي وردت في عدد من المواقع القرآنية في تفصيل تارة، وفي إيجاز تارة أخرى قد قصد بها تعليم الناس وتهذيبهم، وبالتالي تقديم صورة واقعية للنموذج البشري الذي جعل الله منه خليفة في الأرض. وقبل أن نتعرف إلى أبعاد هذا النموذج، وبالتالي إلى الغرض الإعلامي من إيراد قصته، تفرض علينا طبيعة البحث أن نورد النصوص القرآنية التي وردت فيها تفصيلات هذه القصة مطولة أو موجزة.

تعالوا نتلو ما ورد في سورة البقرة بين الآية 30 والآية 39. قال تبارك وتعالى:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إبليس أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (39))...

ثم وردت قصة آدم عليه السلام مرة أخرى في سورة الأعراف على صورة لا تعارض أو تناقض الصورة التي وردت في سورة البقرة... لكنّ ما ورد في الثانية يعتبر تفصيلاً لبعض ما أُجمِل في الأولى. قال عز وجل في سورة الأعراف بين الآية 11 والآية 27 مايلي:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إبليس لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (11) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (15) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ

لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (18) وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (19) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (22) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (23) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (24) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ (25) يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (26) يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (27)).

هذا ويستأنف القرآن حديثه عن آدم عليه السلام في سورة طه، فنجد في قوله تبارك وتعالى في سورة طه بين الآية 115 والآية 121 مايلي:

(وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إبليس أَبَى (116) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (119) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (120) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121))...

★ ★ ★

هذه نصوص ثلاثة وردت في كتاب الله رويت فيها قصة آدم عليه السلام. ويلاحظ فيها أنها غير متعارضة ولا متناقضة في وقائعها الأساسية التي يمكن أن نلخصها فيما يلي:

يخبر الله ملائكته أنه جاعل في الأرض خليفة، وأنّ هذا الخليفة على غير ما يظنون ويتوهمون فيه من الفساد وسفك الدماء وأنه يفضلهم بما علمه الله من الأسماء وأنه يستحق تكريمهم له بالسجود له. وتسجد الملائكة للخليفة في الأرض الذي هو آدم عليه

السلام باستثناء إبليس الذي رفض أن يسجد له. ويأمر الله آدم وزوجه بالسكن في الجنه والتمتّع بما فيها من رغد العيش على ألّا يقربا الشجرة فيكونا من الظالمين. لكنّ الشيطان يزلهما عنها ويخرجهما مما كانا فيه من المقام الطيب ويقضي الله بهبوطهما جميعاً على أن يكون بعضهم لبعض عدواً وعلى أن يمكثوا في الأرض لأجلٍ معين.

ويتوب آدم إلى الله فتقبل توبته لكن سبقت كلمة الله في هبوطهم جميعاً إلى الأرض وفي وضعهم أمام خيارين... فمن اتّبع هدى الله فلا خوف عليه ومن كفر وكذب بآيات الله كان من أصحاب النار الخالدين فيها أبداً.

أما في سورة الأعراف حيث يرد النص الثاني لقصة أبي البشر عليه السلام فنجد تفصيلاً يكشف عن السبب الذي برر به إبليس رفضه للسجود فيزعم أنه خير من آدم فينزل به غضب الله ويخرج من الجنة بسبب كبريائه، ويطلب إبليس من ربه أن ينظره إلى يوم يبعثون فيستجاب طلبه. ويعلن إبليس عن عزمه على إغواء آدم في الأرض وزوجه ومن خرج منهما من الأجيال التالية في الوقت الذي يحذر الله فيه آدم وزوجه من وسوسات الشيطان والجديد الآخر في هذا النص هو الكشف عن حجة إبليس في إقناع آدم بالأكل من الشجرة المحرمة. أما غرضه الحقيقي فهو أن يبدي لهما ما خفى من سوءاتهما فزعم لهما أن الغرض من تحريم ثمار الشجرة هو الحيلولة دون أن يكونا ملَكين أو يكونا خالدين.

ويغوي آدم وزوجته فتبدو لهما سوءاتهما ويحاولان أن يخفياها. ويتوبان إلى الله بعد النداء الإلهي الذي سمعاه. لكنّ إرادة الله سبقت في هبوطهم إلى الأرض. وفي الوقت نفسه يوضعان أمام أحد خيارين ويترك لهما ولمن بعدهما من الأجيال النازلة منهما أن يختاروا طريق الهداية أو طريق الضلالة. ثم يتوجه وحي السماء إلى بني آدم فيحذرهم من فتنة الشيطان ومن أن يصيبهم ما أصاب أبويهم ويعلمهم أن الشيطان مرافق لهم مستمر في العمل على إضلالهم وأنه يراهم وقبيله من حيث لا يرونهم.

أما النص الثالث لقصة آدم عليه السلام في سورة طه فنجد فيه بالإضافة إلى الوقائع والأفكار الواردة في النصين الأولين تقرير نسيان آدم للتحذير الإلهي وضعف عزيمته أمام وسوسات الشيطان... لكن الله عز وجل في الوقت نفسه يضمن لآدم ألّا يجوع في الأرض ولا يعرى ولا يظمأ فيها ولا يضحى رغم ما كتب عليه من الشقاء وكذلك الأجيال التي تنزل منه ومن زوجه.

★ ★ ★

أمام هذه النصوص الثلاثة نجد بين أيدينا صورة ماثلة للنموذج البشري في حدود ما تمنحه العناية الإلهية من الامتيازات والخصائص وما تعرضه له من أسباب الفتنة والغواية. إنها صورة للمخلوق الذي لا يشبه الملائكة الذين (لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ

أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)[1] كما لا يشبه الشياطين الذين فطروا على المعصية فأصروا على الغواية والضلالة. وفي وسع هذا المخلوق الذي هو خليفة الله في الأرض أن يرتفع عالياً بحيث تكرمه الملائكة بالسجود له وأن يهبط إلى الدرك الأسفل بحيث يستحق عذاب النار خالداً فيها.

ويعلمنا الله عز وجل أنّ آدم عليه السلام ومن نزل منه من الأجيال التالية ليسوا بمنأى عن الغواية، وأن ارتكابهم للأخطاء محتمل جداً ففيهم نسيان وضعف في العزيمة، لكنّ السبيل إلى الخلاص تبقى ممهدة أمامهم عن طريق التوبة التي تعلمها آدم في كلمات من ربه عز وجل. فإذا لجأ إليها ابن آدم كما فعل أبو البشر نفسه وجد في رحمة الله ورعايته له ما يعود به إلى الجادة وما يتحرّر به من ذنوبه.

لقد خلق الإنسان في كبد.. فهو يتعرّض للشقاء في حياته الدنيوية.. والشقاء هنا هو حصيلة الابتلاء والفتنة.. فإذا ملك الإرادة المطلوبة للخروج من الفتنة والابتلاء صحيحاً معافى فقد خرج إلى رضاء الله ورضوانه.

والجدير بالذكر أنّ هذه الصورة البشرية النموذجية التي حققت قصة آدم عليه السلام خطوطها وعيّنت أبعادها قد تكرّرت في الإشارة إلى ما تتعرّض له من الفتنة والابتلاء وما تستطيعه من التغلّب عليهما أكثر من مرة... والإشارات هذه هي التي تحدّد طريق ابن آدم في حياته الدنيوية بحيث يكون الابتلاء وتكون الفتنة حقيقتين ملازمتين للإنسان يمتحن بهما فيعلم بفضلهما ما إذا كان جديراً بالهداية أو الضلالة، هذا هو كتاب الله في الآيات (155، 156، 157) من سورة البقرة يقول لنا: (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (157))... وفي الآيتين (2– 3) من سورة العنكبوت يقول الله عز وجلّ: (أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (3)).

.

★ ★ ★

1 . جزء من الأية 6 سورة التحريم

هكذا انطلقت دعوات السماء منذ ظهر أبو البشر حتى خاتم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً تحاور الأجيال كلّها في ضوء قاعدة مقررة هي الدنيا امتحان للبشر كلّهم... لكن هذا الامتحان ليس من العسر بحيث يعجز الإنسان عن النجاح فيه وليس من السهولة واليسر بحيث يتيسر النجاح فيه دون بذل الجهد المطلوب.

استراتيجية إعلامية:

في ضوء ما سبق نستطيع أن نقول أنّ شخصية آدم عليه السلام هي الصورة الاستراتيجية التي رسمتها العناية الإلهية للإنسان... أي أنّ هذه الشخصية هي التي تعكس فطرة الله التي خلق الناس عليها... بينما كانت رسالات السماء بكلّ ما تحتويه وتشتمل عليه من أساليب الدعوة، وأنواع الحوار، والوقائع السعيدة والمأساوية التي تفاوتت بها مصائر الأنبياء والرسل والأقوام الذين عاصروهم، خططاً فرعية يمكن أن نعتبرها صوراً للخطوات التفصيلية التطبيقية الهادفة إلى تحقيق الاستراتيجية الأساسية المتمثلة في (آدم) عليه السلام النموذج البشري الواقعي.

ولا عجب في أن تكون هذه الرؤية حقيقة واقعة، فإنّ تاريخ البشرية كلّه هو توكيد لها وتحقيق للمعنى الذي تعبر عنه. إنّ الآدمية في واقعها نقطة التقاء لنفخة سماوية من ناحية ولظلمة الطين وشهوات الغرائز وثقلها من ناحية أخرى.

والثابت أنّ تعدد الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم وتنوّع الأساليب التي لجأوا إليها، والوقائع التي رافقت مسيرتهم المختلفة، وتعاقب الانتصارات والهزائم لدعوتي الحق والباطل... هي كلّها توكيد لطبيعة الجدلية الفكرية والخلقية والوجدانية التي تتم بها المفاعلة الدائمة بين العنصرين الرئيسيين اللذين يتكوّن منهما الإنسان وهما قبضة الطين والنفخة الإلهية.

ولا شك أن تعاقب النهضات والحضارات البشرية كان ولا يزال التعبير الصادق عن استمرار هذه المفاعلة وتوكيد أنّ الإنسان قد خلق حقاً في كبد وأنّ عليه أن يشقى فيدفع ثمن الفوز برضوان الله جهداً وتعباً وصبراً أمام النكبات، كما أوتي القدرة على دفع الثمن المطلوب بفضل ما فطر عليه من الخير والإدراك والوعي بحقيقة الوحدانية والقيم التي تتصل بها.

★ ★ ★

وإذاً فالإنسان حصيلة قبضة من الطين ونفخة من روح الله، فهو بسبب من طبيعته الطينية معرض لوسوسات الشيطان وضغط الغرائز البهيمية... كما أنّه بسبب احتوائه لنفخة الروح الإلهي قادر على الإرتفاع بنفسه إلى مستويات عالية من الوعي بالحقيقة الإلهية التي تتمثل بعقيدة الوحدانية.

والقرآن الكريم حافل بالآيات التي تسلط الضوء على هاتين الظاهرتين المتداخلتين، كما أنّه حافل بالتوجيهات والبينات التي تمهد أمام الإنسان طريق الهداية وتحذره من طريق الغواية.

أما هاتان الظاهرتان الآدميتان المتداخلتان فقد تحدّث الوحي عنهما في قوله عز وجل في سورة الحِجر: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (28) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (30) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (31) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (32) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (33) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (34) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (35) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (36) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (37) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (38) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (39) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (40) قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (41) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (42) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (43)) ..

هذه الآيات البينات واضحة في إبراز الطبيعة الثنائية عند الإنسان الذي صنع بمزيج من قبضة من الطين المسنون ونفخة الروح الإلهية.

أما التوجيهات والبينات التي تفتح الطريقين، طريق الهداية وطريق الغواية أمام الإنسان فهي موجودة في عشرات من الآيات القرآنية.

★ ★ ★

وقد سبق أن عرضنا لسلطان الابتلاء والفتنة المقدورين على الإنسان والمتمثلَين في وسوسات الشيطان وإغراءاته المغوية المضلّة. وهنا نعرض للسلطان المقابل لهما والذي يطرح طريق الخلاص ويمدّ يد العون إلى الإنسان.

أوّل ما يتمثل هذا السلطان فيما يقرّره وحي السماء من أنّ الوحدانية فطرة فطر الإنسان عليها.. وأنّ الدين بعث به الأنبياء والرسل عليهم السلام هو صورة لهذه الفطرة الكريمة، نجد مصداق ذلك في قوله عز وجل (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ)[1].

1 . الآية 12 من سورة الأعراف.

هذه آية تقرّر أنّ الشهادة بوحدانية الخالق شيئ في فطرة الإنسان رافقته وهو لا يزال ذرّة في ظهر أبيه، فالآية إعلان عن أنّ عقيدة الوحدانية هي حقيقة إنسانية ثابتة تفرض نفسها حين لا تتعرض الفطرة للفساد وتصمد أمام الغواية المضلّلة.

كما نجد مصداق ذلك في قوله عز وجل: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)[1].

فهذه آية أخرى تعلن أنّ الدين الذي جاء به رسل السماء هو فطرة فطر الناس عليها.. أي أنّه توكيد وتثبيت لشهادة الوحدانية التي شهد الإنسان بها منذ هو ذرّة في ظهر أبيه.

★ ★ ★

ولما كان الإنسان بسبب من الجدلية التي يتعرّض لها والتي تتكوّن في ضوئها شخصيته موضوعاً للهداية والضلالة فقد قضت حكمة الله ورحمته أن تفتح أمامه باب العودة إلى الهداية إن زلّت به قدمه وضعفت نفسه أمام وسوسات الشيطان وسلطان الغرائز البهيمية وذلك عن طريق التوبة إلى الله. والتوبة في منهج التربية الإسلامية تمحو كلّ الذنوب حين تكون صادقة جادة. وليس هذا وحسب فقد أعلن الله في محكم تنزيله عن حبه للتوابين والمتطهرين كما في قوله عز وجل: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)[2] ، كما في قوله أيضاً: (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)[3].

ويتردّد نداء رباني يجلجل قوياً في قلوب الراغبة حقاً في الخلاص في قوله عز وجل: (قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ)[4]

فهل هناك ما هو أبين بياناً وأوضح وضوحاً من إبراز السلطان الإيجابي للنفخة السماوية التي تمثل أحد عنصري الكيان الإنساني؟ وهل هناك ما هو أقدر على تمهيد الطريق أمام الراغبين في التوبة إلى الله وعلى تشجيعهم في العودة إلى سبيل الهداية؟

★ ★ ★

1. الآية 30 من سورة الروم.
2. جزء من الآية 222 من سورة البقرة.
3. الآية 104 من سورة التوبة.
4. الآية 53 من سورة الزّمر

كلّ هذه المعاني نستوحيها من قصة آدم عليه السلام الذي خرج إلى الدنيا خليفة في الأرض فاستحقّ سجود الملائكة تكريماً له لقاء ما منحته العناية الإلهية من مواهب المعرفة وإرادة الخير، كما استحقّ عتابَ الله حين نسيَ ولم يكن له عزم كاف لمواجهة وسوسات الشيطان والصمود أمام شهوات الغريزة، وكما فاز بتوبة الله عليه بعد ذلك بفضل الكلمات التي علّمه الله إياها فصدع بها وعمل بما دعته إليه من العزم على فعل الخير فخرج بفضلها من ذنبه وقبل منه قبولاً حسناً.

★ ★ ★

هكذا يثبت لنا أنّ آدم عليه السلام هو النموذج البشري الذي طرح الصورة المستقبلية للإنسان وتتابعت الرسالات السماوية من بعده كعمليات إعلامية قصد بها تحقيق هذا النموذج والتعامل مع كلّ فئات البشر على أنهم مرآة مستمرة لهذه الجدلية التي تمثلت في شخص آدم نفسه. أي أنّ الخير والهداية والمعرفة الصحيحة فطرة فطر الإنسان عليها وأنّ الغواية والفتنة والضعف والجهل أعراض مرافقة لهذا الإنسان في الوقت نفسه، فهو أبداً مشدود بحبال الفطرة الطيبة من ناحية ومعرّض لطغيان الغواية وضلالات الجهل من ناحية أخرى في الوقت الذي يستطيع فيه أن يمارس عمله في ضوء خيارين أساسين، خيار الهداية الذي يفوز به في الدارين وخيار الضلالة الذي يخسر به في الدارين أيضاً.

★ ★ ★

على أنّ ما قررناه من الملاحظات لا يعني أنّ الخطة السماوية في التعامل مع البشر وفي إعلامهم برسالة الحق هي من البساطة بحيث يتصوّر القارئ.

بل أنّ في وسعنا القول بأن هذه الملاحظات قد ساعدت على تبسيط الموضوع تبسيطاً يكاد يكون مخلاً تنبهم به الحدود التفصيلية وتغيب معه التعقيدات الواقعية التي ترافق السياسة الإعلامية التي جعلت منها العناية الإلهية خطة عمل للأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم وأسلوباً يستوحيه الرجال والنساء الذين يجعلون من هؤلاء الرسل والأنبياء قدوة لهم.

إنّ المفاعلة الجدلية في الكيان الإنساني تحتاج إلى الكثير من الوعي والدقة في العمل والصبر في المواقف والعمق في الإيمان والصلابة في الأخلاق والصمود أمام المتاعب. وسنحاول فيما يلي من الفصول أن نتعرّف إلى بعض النماذج البشرية الأخرى التي كانت ولا تزال تعبيراً عن الاستراتيجيات الأساسية لحضارات بشرية متعدّدة. ولا شك أنّ إدراكنا للاستراتيجية الإعلامية

الدينية التي كان الإسلام الصورة الكاملة لها يكون أوضح وأبين حين نعقد مقارنة بين استراتيجيته والاستراتيجيات المغايرة التي سجلتها مسيرات البشرية في التاريخ.

الفصل الثاني

نماذج بشرية أخرى ومفارقات

تمهيد:

حاولنا في الفصل السابق أن نطرح الخطوط الرئيسية للنموذج البشري الذي جاءت به دعوة السماء كما ورد في كتاب الله عز وجل، وتبين لنا أن هذا النموذج قد وضعت له سياسة إعلامية تتفق مع طبيعته وتتعامل معه على أساس الحقائق التالية:

1) أنّ آدم عليه السلام خليفة في الأرض.
2) أنّه بفضل ما أوتيه من المعرفة والقدرة على الوعي السليم قد استحق سجود الملائكة تكريماً له.
3) أنّه في نفس الوقت نفسه ليس فوق مستوى الفتنة والغواية المتمثلتين في وسوسات الشياطين.
4) أنّه يملك القدرة على العودة إلى الله والفوز بعفو الله بالتوبة النصوح إليه.
5) أنّه يتمتّع بفطرة سليمة في صميم تكوينه وأنّ شهادته بربوبية الله عز وجل موصولة به صادرة عنه قبل أن يخرج إلى الدنيا.
6) أنّ الخطيئة والفساد أمران عارضان وليسا أصليين في تكوينه.
7) أنّ رحمة الله أقرب إليه من حبل الوريد.

كما تبيّن لنا أنّ هذه الخصائص كلّها نابعة من مفهوم عقيدة الوحدانية عنده وهي العقيدة التي تجمع بها في الذات الإلهية صفات السلام والرحمة والقوة والجبروت وغيرها من الصفات التي تتمثل بها القدرة الخالقة المطلقة مع الرحمة التي تسبق العذاب والغفران الذي يسبق العقوبة والحب الذي يسبق البغض والإيجابية التي تسبق السلبية. فإذا كان الله عزيزاً ذا انتقام في رؤية المؤمن لربّه فهو أيضاً بالناس لرؤوف رحيم في الرؤية نفسها. وفي ضوء هذه الصورة التي تخلق بها آدم، النموذج البشري الأول في كتاب الله، يمكن أن نقرّر بأنّ الخطة الإعلامية التي رسمتها العناية الإلهية تتراوح بين الترغيب والترهيب مع سبق صفة الرحمة التي تبعث الأمل عند الذين يسرفون على أنفسهم بالذنوب وتحضّ على التوبه عند الذين يظنون أن طريق التوبة قد سدت أمامهم كما تغذي في النفس روح التفاؤل بالباب الواسع للرحمة الإلهية.

النموذج اليوناني

أما النموذج اليوناني فقد نبع من ثقافة الأساطير التي كانت تمثل جملة القيم والمثل وأنواع السلوك عند الشعب اليوناني قبيل نهضته التي بدأت مع القرن السادس قبل الميلاد.

وفي سعينا أن نتعرّف إلى خصائص هذه الثقافة الأسطورية عند قدماء اليونان بالوقائع التالية التي يتفق عليها المؤرخون:

1) عقيدة الشرك التي يبدو فيها الكون خاضعاً لإرادة جملة من الآلهة يتصرّف كلّ واحد منها بقطاع معين من القطاعات المادية والأدبية... فهناك إله للنار وإله للموت وإله للبحر وإله للحب وإله للخمر إلخ.
2) الصراع الدائم بين هذه الآلهة رغم وجود آله أول وهو زيوس رب الأرباب كلّها.
3) الطابع المحلي لهذه الآلهة وفقدان صفة العالمية الكونية لها.
4) الصراع الدائم بين الآلهة وبين الإنسان وغلبة روح التشاؤم على العلاقة القائمة بين الإنسان وبين الآلهة.
5) خضوع الناس والآلهة معاً للقدر الذي يتصف بالعبثية والارتجال وفقدان المنطق والحكمة في صنع مصائر الجميع من الآلهة والبشر في وقت معاً.

ومن الطبيعي أن يستحيل على الفكر اليوناني الارتفاع إلى مستوى العالمية بسبب الصفة المحلية للآلهة بحيث لا يعود الإنسان عند اليوناني هو الإنسان في كلّ مكان وفي كلّ عصر بل يبقى الإنسان اليوناني وحسب.

وقد بقيت هذه الصورة القومية الضيقة موصولة بالفكر اليوناني حتى إنها لم تتجاوز سكان المدينة الواحدة بل أنها لم تتجاوز طبقة معينه من سكان المدينة الواحدة. فالحريات الديمقراطية وقف على الأحرار من سكان أثينا لأن أرسطوكان يؤمن بأن العبيد مجرد آلات لخدمة السادة الأحرار.

ولأن أفلاطون من قبله كان ينادي ببناء الحكم في المدينة على أساس طبقات ثلاث، طبقة الفلاسفة ثم طبقة الجنود وأخيراً طبقة العمال. أما العبيد والأجانب المقيمون داخل المدينة فلم يكن لهم أي حق من الحقوق المرسومة للسادة الأحرار من أبناء أثينا الأصليين.

★ ★ ★

هذا هو النموذج البشري الذي أفرزته الثقافة اليونانية القديمة النابعة من التراث الأسطوري الأول. ولم يطرأ على هذا النموذج اليوناني أي تغيير جوهري بعد ظهور الفلاسفة اليونانيين ابتداء من فلاسفة الطبيعة لاليس وانكسيمندر وانيكسمينس حتى أفلاطون وأرسطو.

★ ★ ★

يترتب على ظهور هذا النموذج البشري في الحضارة اليونانية أن يكون الإعلام فيها مقصورا في تحقيق القيم والتعامل مع المثل على أنها قيم ومثل يونانية محضة.

وبالرغم من أن اليونانيين قد انتشروا في المعمورة المعروفة حتى ذلك الوقت فقد بقوا معزولين إلى حد بعيد عن بقية الشعوب التي استعمروها أوأنششأوا فيها مستعمرات خاصه لهم. ولذلك كان الحوار مفقوداً بينهم وبين غيرهم من الشعوب وكانت اللغة اليونانية غريبة عن ألسنة الشعوب غير اليونانية باستثناء الموظفين العاملين في الإدارات اليونانية ورجال الأعمال الذين يتعاملون معهم.

لقد عجزت اللغة اليونانية عن التسلل إلى العامة من أبناء الشعوب بسبب من استمرار الطابع القومي للآلهة اليونانية وبالتالي من استمرار الطابع القومي للثقافة اليونانية أيضاً. لقد بقي الحوار وقفاً على اليونانيين وعلى القلة من المثقفين الموجودين عند مختلف الشعوب التي ارتبطت بهم بسبب الفتوح العسكرية.

النموذج الروماني:

والشأن هو نفسه عند الرومان الذين أديل لهم من اليونان فانتزعوا السلطان منهم واقتبسوا في الوقت نفسه بعض ما وجدوه عندهم من التراث الفكري. لكن الظاهرة المحققة أنّ الرومانيين لم يجدوا في الإنسان غير الإنسان الروماني وحسب حتى أنّ هذا النموذج الروماني قد بقي لزمن طويل ممثلاً لسكان روما الأحرار.

وبالرغم من تأثر الرومان بالعقائد الوثنية اليونانية واقتباسهم لبعض ألوان من الثقافة اليونانية فقد حرصوا على الاحتفاظ بالطابع القومي المحلي لآلهتهم وأطلقوا تسميات خاصة بهم على هذه الآلهة. كما أنّ قيمهم ومثلهم وتشريعاتهم النابعة منها كانت وقفاً على الأحرار من سكان روما. نجد مصداق ذلك في تسميتهم لغير سكان روما الأحرار باسم البرابرة تماماً كما فعل اليونانيون قبلهم.

أما خصائص النموذج البشري عند الرومانيين فهي لا تختلف في جوهرها عن خصائص النموذج البشري عند اليونانيين. وفي وسعنا أن نحصرها فيما يلي:

1) فقدان العالمية لمفهوم الإنسانية الرومانية.
2) قصر قيم الحرية والسيادة والحقوق القانونية على الإنسان الروماني.
3) ازدراء الإنسان غير الروماني.
4) العلاقة بين الإنسان والآلهة علاقة صراع.
5) خصوع الإنسان والآلهة لقدر يتصف بالعبثية واللامعقولية والارتجال.
6) اعتبار كلّ الشعوب، غير شعب روما، خامات مستهلكة لخدمة الإنسان الروماني.

★ ★ ★

صحيح أنّ حقوق المواطنية فد تجاوزت حدود روما فيما بعد كما تجاوزت حدود أثينا في وقت من الأوقات. لكنّ هذه الحقوق لم تصدر عن رؤيه ثقافيه أصلية ولكنّها فرضت فرضاً بسبب ظروف سياسية وعسكرية واقتصادية. أي أنّ اتساع مفهوم المواطنية وإشراك أبناء المدن الإيطالية الأخرى على مراحل في حمل صفة المواطنية كانا نتيجة لتسويات ومساومات وضغوط فرضتها حاجة أبناء روما إلى عون هؤلاء الناس وعجز أبناء روما وحدهم عن مواجهة المسؤوليات السياسية والعسكرية والاقتصادية الطارئة.

النموذج الغربي الحديث

كانت النهضة الغربية الحديثة ردّاً على حكومة الكنيسة وتمرّداً على سلطانها الذي انتشر إبّان القرون الوسطى، وقد نشأت بسبب ذلك السياسة العلمانية التي عزلت الكنيسة ومفهوماتها الدينية عزلاً يكاد يكون تاماً بعد سلسلة من المعارك الدامية والاضطرابات الفاجعة فظهرت فيها المجتمعات المدنية ذات الولاء القومي الخالص والذي رمزت الدولة إليه. وبذلك لم يعد لإنسان الكنيسة دور أساسي في قيادة المقدرات الفردية والجماعية. وبالرغم من انتشار المسيحية التي نادت بالمحبة علاقة فريدة بين الله والإنسان فقد تجاهل النموذج البشري الغربي هذه العلاقة ثمّ لم يعد يجد في الإنسان والمجتمع غير مجموعة من العلاقات المادية البحتة.

ومن الطبيعي أن يتكوّن هذا النموذج في ضوء الثقافة العامة الرافضة لمفهومات الكنيسة الدينية التي يمكن أن نلخصها فيما يلي:

1) الإنسان موضوع للخطيئة الأصلية.
2) الإله فدى الإنسان بشخص ابنه السيد المسيح الذي هو الله نفسه.
3) الإنسان رعية الكنيسة والكنيسة وكيلة المسيح في الأرض.
4) الحرية في التفكير والتشريع وقف على الكنيسة التي هي طبقة دينية متميزة.

هذه المفهومات سقطت كلّها أمام الثقافة الغربية الحديثة التي تمرّدت على ثقافة الكنيسة واتخذت مواقف متعارضة معها مناقضة لها. وفي وسعنا أن نلخص الخصائص الأساسية للنموذج البشري في الحضارة الغربية المعاصرة فيما يلي:

1) قطع كلّ علاقة عملية واقعية بين الإله وبين الإنسان.
2) المثل الأعلى عند الإنسان هو الدولة التي تمثل روح الشعب.
3) القيم والمثل والتشريعات كلّها نابعة من مصلحة الدولة التي يفترض فيها أن تمثل مصالح الشعب.
4) فقدان العالمية في مفهوم إنسانية الإنسان، فالحرية والقيم والمثل والأخلاق هي فرنسية أو إيطالية أو إنجليزية أو ألمانية أو أمريكية أوروسية إلخ.
5) القوانين تفرضها المصالح المباشرة والعلاقات بين الأمم والشعوب هي علاقة صراع لا تعاون، وتناكر لا تعارف.
6) المصالح الإقتصادية والسياسية والعسكرية هي التي تحدّد القيم الخلقية والاجتماعية.
7) يترتّب على هذه المفهومات أنّ القيم والمثل والأخلاق المرعية الجانب داخل المجتمعات التي تتمثل بها الحضارة الغربية تفقد كلّ دور لها في التعامل مع الشعوب والمجتمعات الموجودة خارج العالم الغربي. فالعلاقة بين الطرفين هي علاقة صراع وانتهازية ومساومات تتغير بها هذه العلاقة بتغير الضغوط التي تمارسها الشعوب والمجتمعات الأجنبية.

صحيح أنّ العالم الحديث ولا سيما بعد الحرب العالمية الثانية قد أطلق بتدخل من دول الحضارة الغربية المعاصرة شعارات ذات طابع عالمي، وأقرّ حقوق الإنسان العالمية ونادى بمقاومة الإستعمار وأقام المؤسسات الدولية لرعاية هذه الحقوق، لكنّ الواقع أنّ إطلاق هذه الشعارات وإقرار الحقوق العالمية للإنسان هما حصيلة ضغوط أو صراعات دولية ومصالح

جديدة نشأت عن التزاحم التوسعي الذي قامت به ولا تزال تقوم به الدولتان العظميان اللتان هما الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي.

إنهما لم ينبعا من الثقافة الأصيلة للإنسان الغربي بل فُرِضا دون أن يحدثا أي تغيير جوهري في القيم الأساسية للسياسات الدولية.

ولنا فيما يجري في العالم الثالث بتدخّل من الدول التي تتقاسم النفوذ العالمي، الآية والعلامة. والحجة البالغة على صحة هذا الواقع هو ما نعانيه نحن أبناء الأمة العربية بخاصة والشعوب الإسلامية بعامة من مآسي التدخل المسلح والمؤامرات التي تدمر سياساتنا التنموية وتحول دون يقظتنا الفكرية وإحياء تراثنا الثقافي.

وخلاصة القول أنّ النماذج البشرية التي طرحنا خطوطها الأساسية ابتداء من النموذج اليوناني حتى النموذج الغربي المعاصر هي إعلان عن مواقف مناقضة للموقف الإسلامي الذي تحدّثنا عنه في الفصل السابق.

ومن الطبيعي أن تتخذ السياسة الإعلامية النابعة من هذه النماذج موقفاً يتعارض مع الموقف الذي تتّخذه السياسة الإعلامية النابعة من النموذج الإسلامي.

ولعلّ أبرز صفة يتمايز بها النموذج القرآني من النماذج التي تعرضنا لها هي صفة:

1 – العالمية النابعة من عقيدة الوحدانية الصافية.

ويترتّب على صفة العالمية أن تتكوّن السياسة الإعلامية الإسلامية في ضوء التوجيهات والبيانات والقيم التالية:

(أ) أعظم ما يتميّز به الإنسان ويستحق به الكرامة هو إنسانيته كما في قوله عز وجل: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)[1].

---

1 . الآية 70 من سورة الإسراء.

(ب) العلاقة بين المجموعات البشرية هي علاقة تعارف لا تصارع. كما جاء في قوله عز من قائل: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)[1]

(ج) يترتّب على تكريم إنسانية الإنسان والمناداة بمبدأ التعارف بين المجموعات البشرية التي سماها كتاب الله شعوباً وقبائل أن تتمتع هذه الأخيرة بحرية الاعتقاد فلا يسمح لأي فريق من الناس أن يتوسل العنف والقوة لإكراه غيره على اتخاذ رأي معين والإيمان بعقيدة معينة. ومن هنا جاء قوله تبارك وتعالى: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[2].

(د) لكنّ الإمتناع عن إكراه الناس على اتخاذ عقيدة معينة لا يعني الامتناع عن الدعوة إلى الله. إنّ إقرار الحريات الدينية والمناداة بحق كلّ إنسان في اتخاذ الرأي أوالعقيدة الخاصة به في ضوء حريته في الاختيار لا يتعارض مع واجب الدعوة إلى الله والمناداة باتخاذ الرأي السليم واعتناق العقيدة الصحيحة. ذلك لأنّ إهمال واجب الدعوة إلى الله والمناداة بالحق يعني القضاء على حركية الحضارة الإنسانية. ولو حاولنا أن نحدد جوهر الحضارة الإنسانية لما وجدنا فيها غير هذه الجدلية التي تتمثل في الحوار القائم بين الآراء والعقائد والاتجاهات المتباينة. من هنا جاء قوله عز وجل للنبي المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم: (ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ)[3].

ولعل أبرز ما في هذه الآية الكريمة التعليل الذي لجأ إليه الوحي السماوي إذ طالب محمداً صلى الله عليه وسلم بالدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة... هذا التعليل يظهر في قوله تبارك وتعالى: "إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ".

1. الآية 13 من سورة الحجرات .
2 . الآية 256 من سورة البقرة.
3 . الآية 125 من سورة النحل .

أي أنّك يا محمد أنت ومن اقتدى بك من الدعاة الذين وجه هذا الطلب إليهم لا تعلمون حقيقة ما في نفوس الناس ولا تملكون الميزان الذي تزنون به ما ينطوون عليه، فالله أعلم منكم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم منكم بالمهتدي من عباده... يشرح هذه الظاهرة قوله عز وجل في مكان آخر: (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ)[1]

ثم يتكرّر هذا المعنى توكيدا للأمر الإلهي الوارد في آية الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة فنجده في الآيات والسور التالية 20 من آل عمران، 92 – 99 من المائدة و40 من الرعد، و52 من إبراهيم، و35 – 82 من النحل، و54 من النور، و18 من العنكبوت، و17 من يس، و12 من التغابن.

(هـ) وردّاً على التساؤلات التي قد ترد في عقول بعض الناس أو كلّهم عن السبب الذي يفسر خطة السماء في الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، يتحدث القرآن الكريم عن الأمانة التي قبل الإنسان أن يحملها فيذكر أنها حمل ثقيل رفضت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وحملها الإنسان. جاء ذلك في قوله عز وجل: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسان ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)[2].

وتقرّر الآية الكريمة أن إقدام الإنسان على حمل هذه الآمانة هو ظلم لنفسه وتعبير عن جهله بما يترتب على حملها من التبعات الجسام. وما دام أنه قد حمل الأمانة فإنّ من حقه أن يتمتع بحريته المسؤولة تمتعاً تاماً فلا يفرض عليه موقف من المواقف ولا يجوز إرغامه على اتخاذ رأي أو اعتناق عقيدة على غير إرادته. ذلك أنّ حمل الأمانة يقتضي الإحساس بالمسؤولية وتحمّل ما يترتب عليها من الواجبات. وإذاً فإنّ الحرية في حمل الأمانة توجب للحامل حقّه التام في الاختيار وهذا يعني في منطق الإنسان المناداة بالحوار المفتوح بين أصحاب الآراء والعقائد المختلفة.

(و) فإذا كان الحوار هو الوسيلة المشروعة الوحيدة التي يسمح للمؤمن بأن يلجأ إليها فهذا يعني أن كلّ جهد إعلامي لا يتفق مع روح هذه الوسيلة يجب أن يكون متعارضاً مع روح الإعلام القرآني وبالتالي يجب أن يكون متعارضاً مع مقومات الفكر الأساسي عند المسلم. ويترتب على هذه الحقيقة الإعلامية الإسلامية ما يلي:

1- تحريم التحريض على العدوان فلا يجوز الابتداء بالقتال أبداً.

---

1 . الآية 48 سورة الشورى .

2. الآية 72 من سورة الأحزاب.

والقتال المشروع هو القتال الدفاعي وحسب كما في قوله عز وجل في سورة البقرة: وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190).

2 – ثمّ تعيّن الآية التالية أبعاد هذا القتال كما تصنف نوعيات العدوان الذي يجب أن يقاومه المسلم... فالقتل يجب أن يتم حيث يتواجد المعتدون حتى في الأرض الحرام... أما العدوان فهو لا يقف عند القتل بالسلاح بل هو في إثارة الفتن التي هي أشدّ وأخطر آثاراً ونتائج.

نجد مصداق ذلك في قوله تبارك وتعالى في سورة البقرة: (وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (191))

فإذا انتهى المعتدون عن عدوانهم وجنحوا إلى السلام فعلى المسلم أن ينتهي عن قتاله الدفاعي وأن يجنح إلى السلام بدوره. كما في قوله عز وجل في سورة الأنفال: (وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (61))

والنظافة في القتال الدفاعي المشروع لا تقف عند الحد الذي تعين في الآيات السابقة بل تجاوزته إلى ما وراءه فقد جاء في كتاب الله ما يحرم على المسلم الغدر بمن يخاف خيانته له. إن عليه أن يطرح العهد الذي يقيده بمن يخاف خيانته بحيث يصبح هو ومن يتخوف خيانته له ويرقبها منه على حال مستوية في العلم بذلك. والمقصود بهذا التعليم القرآني النظيف أنّ إنذار المسلم لمن يخاف خيانته له واجب عليه. أي أن على المسلم أن ينذر العدو المرتقب بأنه قد قطع العهد الذي كان بينه وبينه فلا يأخذه على غرّة منه. إذ الأخذ على غرّة غدر لا يليق بأرباب المروءة. نجد مصداق ذلك في قوله تبارك وتعالى في سورة الأنفال: (وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (58))[1]

(ز) ومن الطبيعي أن يتساءل المسلم عمّا قد يصيبه من الأذى فيما لو جنح إلى السلم حين يجنح العدو إليه ثم يتبيّن أنّه خادع فيما أعلنه وأنه أعلن عن جنوحه إلى السلام توطئة للغدر به. أمام هذا التساؤل يقدم القرآن الكريم الضمانة المطلوبة أمام مثل هذا الاحتمال وهي الضمانة النابعة من ثقة المؤمن بربه ويقينه التام بأنّ الله لن يضيعه أبداً. فالله هو الحامي وهو المدافع عن المؤمنين وبالتالي هو الذي يكفيهم شر العدوان المبيت من قبل العدو شرط أن يلتزم المؤمنون بما فرضه الله عليهم من إعداد القوة اللازمة التي يرهبون بها عدوالله وعدوهم كما يرهبون بها آخرين من دونهم لا يعلمونهم لكنّ الله يعلمهم.

1 . راجع هامش صفحة 236 من الطبعة الثالثة للمصحف الميسر للشيخ عبد الجليل عيسى.

أما فيما يتعلق بالخداع المحتمل من قبل عدو يتظاهر بالجنوح إلى السلام في الوقت الذي يبيّت فيه نيّة الغدر فيقول عزّ وجل في محكم تنزيله: (وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ۚ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ)[1] وأمّا فيما يتعلق بالشرط المفروض على المؤمنين كعامل أساسي في إرهاب الأعداء والحيلولة دون مباغتتهم الغادرة لهم فيقول الله تبارك وتعالى: (وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ)[2]

والمقصود الظاهر في تقديم هذه الضمانة الإلهية هو التمكين للنظافة الخلقية وتنمية سياسة الدفاع عن النفس. وهذا يعني بوضوح تام أنّ القيم الخلقية التي تتمثل في الأمانة والإستقامة ومقاومة روح العدوان عند المسلم مقدّمة على كلّ اعتبار آخر. كما يترتب على الوثوق بهذه الضمانة الإلهية تمتين الصلة بين المؤمن وربه وتغذية اليقين بأنّ الله عز وجل مهيمن على كلّ الوقائع وأنّ عهده للمؤمنين هو عهد قائم ما دام أنّ الشروط المطلوبة منهم متحققة في قلوبهم وجوارحهم وسلوكهم في الحياة الدنيوية.

كلّ هذه الملاحظات التي سجلناها في الصفحات القليلة السابقة تؤكد النظافة في العملية الإعلامية الإسلامية وتفرض على المسلم حين يأخذ في الدعوة إلى الله التقيد بالحقائق الأساسية التي طرحها الوحي السماوي بالنسبة للإنسان.

مفارقات

ومن الطبيعي أن تبرز أمامنا صورة مقارنة للإعلام الإسلامي الذي يقتصر على الحوار النظيف ويحرم التحريض على العدوان وإثارة الأحقاد بحيث يصبح جدلاً نابعاً من الحس السليم واحترام العقل الإنساني وتوفير حرية الحوار والامتناع عن فرض عقيدة الوحدانية بالقوة، كما يصبح جدلاً نابعاً من الثقة المطلقة بالله عز وجل والاطمئنان الى الضمانات التي يقدّمها عز وجل إلى عباده حين يخلصون العبادة له ويلتزمون بالشروط التي وضعها لهم، كما تبرز الصورة المقابلة للإعلام غير الإسلامي الذي تستعين به المؤسسات والدول والجماعات التي لا تصدر عن عقيدة الوحدانية الصافية ولا تدين بدين الاسلام ولا تحترم الكرامة الإنسانية.

1 . الآية 58 من سورة الأنفال .

2 . الآية 62 من سورة الأنفال.

ولعلّ أبرز ما يلفت النظر في العمليات الإعلامية التي تقوم بها المجتمعات المعاصرة أنّها عمليات تعتمد الأساليب التالية:

1) تزييف الحقائق في إيراد الأخبار وكتابة التعليقات.
2) الاستعانة بأساليب غير أخلاقية منها الاعتماد على سلاح الجنس في اجتذاب النفوس وكسب الانصار.
3) تنمية الأحقاد الطبقية في المجتمع الواحد أو تغذية العصبيات العنصرية بين المجتمعات المتعدّدة.
4) القيام بما يسمى عملية غسل الدماغ عن طريق إثارة القلق وغرس الشعور بالذنب وإشاعة الاضطراب في نفسية الإنسان بحيث تجعله لا يعرف ما يحدث له وبذلك يتم تمهيد الطريق لتغيير الفكر ومحو العقيدة لزرع عقيدة جديدة بدلا منها.

وخلاصة القول أنّ الغاية من الإعلام الذي يقصد به غسيل الأدمغة والتلقين المذهبي هي السيطرة على عقل الإنسان والتحكم في سلوكه فيصبح صاحب هذا العقل تحت رحمة المؤسسات الإعلامية التي تستعبده فتحوله الى مجرد آلة فاقدة لحرية الاختيار.

***

ولعلّ أوضح تفسير لهذه الظاهرة هو أنّها نابعة من ضياع الكرامة الإنسانية واحتقار العقل الإنساني وتزييف إرادة الاختيار أو حريته. وبتعبير آخر نستطيع القول بأنّ هذا النوع من الإعلام أشبه ما يكون بعمليات التنويم المغناطيسي التي تنتزع من الإنسان إرادته ووعيه الطبيعي السليم وترغمه على التصرّف بوحي من الجهة التي نومته تنويماً مغناطيسياً. ويبقى لهذا الإعلام تأثيره ما دام أنّ في وسعه الاستمرار في ممارسة الضغوط المادية أوالمعنوية وإثارة القلق وتغذية روح الضياع عند من يتعرّضون له.

وعلى ذلك فنحن لا نبعد عن الحق حين نقرر أنّ الإعلام الحديث الذي يستند الى دراسات اجتماعية ونفسية ويلجأ إلى اكتشاف جوانب الضعف عند الإنسان واستغلال جهله بالحقائق الواقعة هو إعلام نابع من مصادر ثقافية غير سليمة. والنموذج البشري الذي يتحدّد بهذه المصادر الثقافية غير السليمة هو وحده نقطة الانطلاق للسياسات الإعلامية المزيفة.

من هنا كان اهتمامنا بإبراز النموذج البشري في القرآن الكريم وبعض النماذج المقابلة في مجتمعات بشرية غير إسلامية كالمجتمعات اليونانية والرومانية والغربية الحديثة.

***

والجدير بالذكر أنّ الفعاليات السياسية المعاصرة والتي تستمد قيمها من المصادر الثقافية الغربية تسخر كلّ المقدرات والقيم الثقافية عامة والدينية خاصة للسيطرة على عقول الجماهير وتنظيم نوع معيّن من الاتصالات بها لتحقيق أغراض سياسية وللتمكين لخطط العدوان على ثروات الشعوب المستضعفة وتعرية العقول عند هذه الشعوب من قدراتها المبدعة وحريات أصحابها في الاختيار.

ملامح تاريخية للإعلام المزيف:

ولما كان الإعلام المزيف نابعاً من الثقافات العامة المزيفة فقد سجل التاريخ سلسلة طويلة من السياسات والأساليب الإعلامية النابعة من رؤية فاسدة للنموذج البشري. وفيما يلي نماذج إعلامية متعددة سجلتها أقلام المؤرخين.

1 – الإعلام في مصر القديمة:

جاء في ص 2 من كتاب "الإعلام والاتصال بالجماهير" للدكتور إبراهيم إمام ما يلي: "وفي مصر القديمة حدثت عدّة تغيرات دينية وظهرت مذاهب جديدة خلال العصور المختلفة من تاريخها الطويل. وكان الكهنة يستخدمون أساليب السحر والعرافة للتأثير على الناس. ومن هذه الأساليب على سبيل المثال ما كان يسمّى " بهتافات الآلهة " عندما تنطلق التماثيل متحدّثة ناطقة: وكان الكهان يحملون التماثيل في زوارق على أكتافهم بينما يسير جمع من النسوة والفتيان يرتلون، وعندما يسأل التمثال سؤالاً يجيب عنه على الفور، وفي واقع الأمر كان الكهان هم الذين يجيبون عن الأسئلة من طرف خفي".

هذا الكلام الوارد في كتاب الدكتور إبراهيم إمام يطرح واقعاً أساسياً هو أنّ الكهان القدماء من المصريين كانوا يعتمدون أساليب ملتوية يوحون بها للناس أنّ الآلهة هي التي تكلّمهم. ولما كانت الآلهة موضع ثقة عند هؤلاء الناس فقد كانوا يتقبلون ما يسمعونه من الإجابات على أنّه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولما كان الكهان هم الناطقون الحقيقيون فقد كان من الطبيعي أن يصدر ما ينطقون به عن مصالح لهم وعن أوضاع مفروضة على جماهيرهم المخدوعة فتكون مهمتهم توكيد هذه الأوضاع الفاسدة والتمكين لامتيازاتهم المعنوية والمادية.

***

وقد تحدّث القرآن الكريم عن بعض أساليب هؤلاء الكهان حين أورد قصة كفاح موسى عليه السلام ضدّ أسلوب السحرة من قدماء المصريين فذكر أنّ سحرهم هو عمليات تخييل وحسب فقال: (يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ)[1] يقصد بذلك الحبال والعصى التي كان السحرة يلقونها فيخيلون للناس أنها تتحرك بفضل ما أوتوه من قوى علوية وامتيازات أفردتهم بها الآلهة المزعومة. وطبيعي أنّ هذا الأسلوب أسلوب غير أخلاقي لأنّه يقوم على التزييف ويعتمد الوهم سلاحاً له.

الإعلام عند شعوب قديمة أخرى:

والشأن هو نفسه عند بابل القديمة وغيرها من الشعوب التي مثلت أدواراً حضارية معينة في بلاد الشرق الأدنى. وقد كان الكهان عند بابل وغيرها من دول الحضارات القديمة في الشرق الادنى هم الذين يمثلون القيادات الثقافية ويستعينون بما كانوا يملكون من أساليب الإيحاء لتزييف إرادات السماء وطرح الأفكار التي يجدون في انتشارها تدعيماً لنظم الحياة عندهم.

كما أنّ معبد دلف عند اليونانيين كان يقوم بالدور نفسه حين يلجأ الجمهور إلى كهانه بحثاً عن إجابات معينة لقضايا وأسئلة محددة. فيبادر الكهان إلى وضع هذه الإجابات وتقديمها على أساس أنّها صادرة عن الآلهة التي يعبدها الناس. ولم يكن الرومانيون بدعاً من اليونانيين فيما اعتمدوه من أساليب الكهانة وخططها في التأثير على الجماهير.

الإعلام عند الجمعيات الباطنية في بعض العصور الاسلامية:

والجدير بالذكر أنّ بعض العصور الإسلامية قد عرف جمعيات سرية باطنية تأثرت بثقافات الكهانة القديمة واقتبست منها أساليبها ثمّ ابتدعت أساليب جديدة كانت أمعَن في سحق العقل الإنساني وأبعد تأثيراً في هدم المبادئ والقيم والنظم الإسلامية.

وكان في مقدمة هذه الجمعيات الخطيرة تلك التي تزعمها الحسن الصباح والتي استطاعت أن تستبعد عدداً غير قليل من عقول الناس ونفوسهم وأن تسخرهم لتحقيق مآربها وأغراضها السياسية والاجتماعية وبالتالي الدينية. فجعل الحسن الصباح من بعض أتباعه أدوات للقتل والتدمير بعد أن أفسد عقولهم وزين لهم بأساليبه الملتويه ما يريد زرعه في عقولهم وقلوبهم. وكان مما لجأ

1 . الآية 66 من سورة طه.

إليه تزييف الأحاديث الشريفة ونشر مبادئ الأفكار الهدامة والإباحة بين العامة. ويقال أنه استخدم مادة الحشيش بين ما استخدمه من أساليب الضغط على العقول وغسل الأدمغة عند أتباعه.

كما ظهر المدعو عبد الله بن ميمون القداح الذي أضاف إلى أساليب التزييف الإعلامي مناداته بمبدأ الثنوية من ناحية وإعداد دعاته بحيث يتظاهرون بادئ الأمر باعتناق المبادئ المعتمدة عند سامعيهم فيحدثون كلّ طبقة من الناس باللغة التي تعجبهم ويردّدون الأفكار التي ينادون بها في الوقت الذي يدسّون فيه الأفكار الخاصة. كما أنهم كانوا يعتمدون أساليب الشعوذة ويثيرون اهتمام الناس بالألغاز والأحاجي ويتظاهرون بالعفة والفضيلة... فهم صوفيون مع الصوفية وهم ملحدون مع الملحدين وهم فسقة مع الفساق وهم محافظون مع المحافظين فبلغوا من نفوس الناس مبلغاً عظيماً واستطاعوا إقناع الكثيرين بصحة مذهبهم وحققوا الغاية التي يريدونها وهي القضاء على سلامة الفكر الإسلامي ونظافة الأخلاق عند قطاع كبير من الناس.

وبلغت هذه الجمعيات السرية أبعد غاياتها حين ظهر أحد دعاة القداح عام 278 هـ ويسمّى الفرج بن عثمان القاشاني المعروف بذكرويه وأطلق على نفسه إسم قرمط فعرف أتباعة بالقرامطة. وخلاصة المذهب الذي دعا إليه قرمط هو إقرار شيوع الملكية والإباحية. وقد نجح قرمط في إقامة مجتمعات محدودة ذات نظام شيوعي وكان مما قرره، شيوع المرأة، من صنوف الإباحية التي نادى بها بما فيها إباحة العلاقة الجنسية بين الأب وابنته. وكان مما قاله أحد الشعراء القرامطة تبريراً لهذه العلاقة الآثمة: أليس الفراش لمن رباه ورواه في عامه المجدب؟ ولا ننسى في هذه المناسبة حركة الحشاشين التي حشدت بعض بسطاء الناس باسم الدين وجعلت منهم قتلة وسفاحين.

وفيما رواه ابن خلدون وابن الأثير في تاريخهما ما يعرض لكلّ هذه الحركات السرية الخطيرة التي اعتمدت سياسة إعلامية مزيفة تستند إلى خلفيات ثقافية تحتقر العقل الإنساني وتسخر بالكرامة الإنسانية وتعمل على تفجير الشهوات وإثارة الأحقاد بين الناس. وطبيعي أنّ هذا الموقف نابع من النموذج البشري الذي طرحه أصحاب هذه الجمعيات واعتبروه صورة للإنسان المعاصر لهم.

جمعيات سرية في تاريخ المسيحية:

هذه الظاهرة الإعلامية التي لعبت دوراً هاماً في عمليات الاتصال بالجماهير تكرّر ظهورها على نطاق واسع في تاريخ المسيحية. فقد ظهرت فيه جمعيات لهدم المسيحية والمجتمع المسيحي. واعتمدت على الأساليب التي لجأت إليها الجمعيات السرية الإسلامية. منها جمعية (فرسان المعبد) التي أنشئت عام 1118 م. كما ظهرت حركة السحر الأسود التي انتشرت في نهاية القرون الوسطى واجتاحت كلّ المجتمعات الأوربية على صورة دعوة منظمة وثورة واسعة النطاق على سلطان الكنيسة وتعاليم النصرانية، وإن بدت في ظاهرها طائفة من الحركات المحلية[1].

وخلاصة القول أنّ كلّ الوقائع التي اثبتناها مقتبسة من تاريخ الشعوب القديمة ثم العصر الإسلامي والعصر المسيحي خلال القرون الوسطى، هي توكيد للعلاقة القائمة بين السياسة الإعلامية من ناحية وبين القيم الثقافية التي انتشرت عند قدماء الكهان وعند مؤسّسي الجمعيات السرية من ناحية أخرى. وأهم ما في هذه القيم الثقافية الرؤية الخاصة بالنموذج البشري المزيف الذي صدر عنه أصحابها على اختلاف اتجاهاتهم ودوافعهم العميقة.

1 . انظر ص 3 من كتاب (الإعلام والاتصال بالجماهير) للدكتور ابراهيم إمام.

الفصل الثالث

مدخل إلى سياسة الإعلام السماوي

مضت أيام وشهور كنت أتسائل فيها عن تلك الفاعلية الخاصة التي تميز بها القرآن الكريم واستطاع بفضلها أن يحدث أخطر عملية تغيير في تاريخ الأمة العربية بخاصة وفي تاريخ الأمم الإسلامية بعامة. كنت أقول في نفسي: أنّ النقلة التي حققها عرب الجزيرة من مرحلة النظام القبلي الحافل بالمنازعات والهابط في كثير من قيمه الخلقية إلى مرحلة النظام العالمي الذي هو في واقعه قفزة واسعة عملاقة في مسيرة الإنسان من عقلية الغاب إلى عقلية التعاون الإنساني الشامل، أقول: أنّ هذه النقلة، بغض النظر عن الفترة التي احتفظت فيها بحركتيها الفتية، ما كان لها أن تتحقق في ظل المصادفات غير الواعية، بل لا بد أن تكون ثمرة لمنهج منظم وطريقة هادفة في مخاطبة العقول والمفاعلة مع قيم الماضي وتقاليده وعاداته.

فالدنيا لا تتحرك بالبشر دون نظام... ولا تتمّ مداولة الأيام بين الناس دون سنن معلومة وقوانين ثابتة. لقد كانت حركات المد والجزر في الصيغ المطروحة على امتداد القرون ولا تزال حتى اليوم ثمرة صفات وخصائص معينة بعضها يحدث ظاهرة المد والانتشار وبعضها الآخر يحدث ظاهرة الجزر والانحسار.

ولما كانت الحضارات ثمرة لإرادة متأثرة بدوافع خلقية وموصولة بمناهج عقلية منظمة مع توفر الظروف المادية التي تتيح لهذه وتلك تحقيق العمليات الإعمارية المطلوبة، فقد وجب أن يكون فن التعامل مع العقول والقلوب في مقدّمة العوامل التي تصنع هذه الحضارات وتمنحها القدرة على النمو والإزدهار.

ولما كانت الحضارات ثمرة لإرادة متأثرة بدوافع خلقية وموصولة بعقلية مطّردة الاتساع هي نقلة حضارية شاملة فقد وجب علينا حين نحاول درس هذه النقلة الحضارية والتعرّف إلى أسرارها أن نبحث فيها عمّا أطلقنا عليه في الفقرة السابقة عبارة (فنّ التعامل مع العقول والقلوب).

أوليس أنّ محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام قد صنع ما صنع بفنه الموهوب في التعامل مع عقول الناس وقلوبهم في عصره؟ أوليس أنّه قد جعل من دنيا الناس شيئاً غير الدنيا التي يعرفون بفضل الدعوة التي حملها إلى هؤلاء والصفات الخلقية التي تعامل بها معهم فخاطب بها العقول والقلوب وأحدث خلال جيل واحد من السنين أوسع عملية تغيير في تاريخ البشرية؟

وهنا نتساءل: ما هو مصدر القوة في دعوة السماء التي حملها إلى عشيرته الأقربين، ثم إلى أبناء قومه، ثم إلى العالمين؟ أوليس هو هذا الكتاب السماوي الذي نزل به الروح الأمين على قلبه ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين؟ أولم يعلن هذا الكتاب تحديه لمن رفضوا هذه الدعوة وأنكروها وطالبهم بأن يأتوا بسورة من مثله أو بعشر آيات من آياته مؤكداً لهم أنهم أعجز من أن يقلدوا لغة الكتاب السماوي وأن يأتوا بمثل ما يأتي به من حق مبين؟

ثم نتساءل مرة أخرى: إذا كان كتاب الله هو المعجزة الكبرى التي انفرد بها محمد عليه السلام وتسلّح بها للتعامل مع عقول الأجيال المعاصرة واللاحقة وقلوبها، فإنّ من الطبيعي جداً أن تكون الثقافة الإسلامية بكلّ أبعادها وجوانبها المادية والأدبية ثمرة للجهود المبذولة على امتداد القرون من أجل فهم هذه المعجزة وتحليل جوانبها واكتشاف أسرارها.

ولو أنصفنا لقلنا: أن كلّ علم وفن من علوم التراث الإسلامي وفنونه هما كتلك الكواكب السيارة التي تدور حول الشمس وقد ركبت فيها المراقب وصنعت الأجهزة الدقيقة لاكتشاف الحقائق الخبيئة في ذلك النجم المضيء.

إنّ طلاب المرحلة الثانوية، ناهيك عن طلاب الجامعات، يعلمون أنّ ازدهار علوم اللغة وظهور التيارات الفكرية وتعاقب المذاهب والفرق الدينية وتلاحق العلوم البشرية والطبيعية قد تمّ ابتداء من الإهتمام بكتاب الله والسعي إلى الاحتفاظ به ووضع التفاسير له.

والملاحظ أنّ هذه التفاسير قد تباينت ألوانها واختلفت اهتماماتها بتباين التخصصات العلمية والفنية واختلاف الاهتمامات عند أصحابها.

ومهما قيل في العلوم المتفرعة عن كتاب الله فإنّ الثابت أنّ هذا الكتاب السماوي العظيم قد قام بأعظم عملية إعلامية عرفها تاريخ الإعلام السماوي والبشري حتى اليوم.

أما أنه أعظم من كل إعلام سماوي سابق فلأنه لا يزال حتى يومنا هذا محتفظاً بطابعه الأصيل لم يصبه تحريف أو تغيير ولم تختلط به ثقافات أجنبية وإن اشتركت هذه الثقافات كلّ على طريقتها في تفسير نصوصه وتأويلها.

وتقرير هذه الأصالة لا يشهد به الوحي السماوي نفسه وحسب بل يشهد به المحققون من العلماء، المؤمنون منهم وغير المؤمنين. أما الكتب والصحف السماوية الأخرى فإنّ لنا من شهادة هؤلاء العلماء أنفسهم بالإضافة إلى شهادة الوحي السماوي ما يؤكد دخول التحريفات عليها واختلاط النصوص الثقافية الغريبة عنها بنصوصها الأصلية.

وليس أسهل علينا من جمع الشواهد والشهادات التي تثبت سلامة النص القرآني وأصالته والفساد الذي دخل على النصوص السماوية الأخرى بسبب الإختلاطات القائمة بين نصوص السماء ونصوص البشر.

لكنّنا أغفلنا ذكرها لأنها مبذولة في كتاب الله نفسه كما في كتب المحققين من الدارسين.

وإذاً فنحن حين نواجه القرآن الكريم إنما نواجه كتاباً إعلامياً حفظت نصوصه وحيل بينها وبين أي تغيير طارئ، وحين نحاول أن نتعرف إلى مواطن الأصالة في منهجه الإعلامي، فنحن واثقون بأنّنا نتعرف إلى المنهج السماوي الذي ارتضته العناية الإلهية خطة سلوك وطريقة تفكير وأسلوب تعامل مع عقول الناس وقلوبهم لا في جيل واحد معين بل في كلّ الأجيال والقرون.

***

وتزداد أهمية النظر في الخصائص الإعلامية لكتاب الله بإزدياد الدور الذي قام القرآن الكريم ويقوم به حتى يومنا هذا وإلى يوم يبعثون.

ولكي ندرك حجم هذه الخصائص الإعلامية في كتاب الله يجب أن نتذكر دائما ونحن نتعرّف إلى هذه الظاهرة الإعلامية الخطيرة أنّ كلّ شيء في حياتنا العربية الإسلامية مدين في ازدهاره وبقائه لهذا الكتاب السماوي العظيم.

لقد أصبحت اللغة العربية لغة الثقافة العالمية في عهود الازدهار الحضاري الإسلامي بفضل القرآن. واحتفظت اللغة العربية بنفسها أصيلة متّحدة الأصول عبر القرون حتى اليوم بفضل القرآن. وأصبحت أقدم لغة حية متطوّرة قادرة على الاستجابة لكلّ التحديات من بين لغات العالم كلّه بفضل القرآن.

كما أنّ الحضارة الإسلامية تخوض معركة البقاء في عصرنا هذا بقوة ظاهرة رغم الثغرات التي تتسلّل منها الروافد الخارجية ثم تحتفظ هذه الحضارة بمواطئ أقدام لها بفضل القرآن.

وإذاً فإنّ في وسعنا أن نقرّر بأنّ الإعلام القرآني بمعناه الواسع هو المصدر الوحيد للفكر الإيجابي الإسلامي الذي استوعب هموم البشرية لعدد من القرون، وهو نفسه المصدر الوحيد لقيمنا الثقافية وموازيننا العقلية التي نتسلّح بها اليوم في معركتنا الفاصلة التي نتخذ فيها موقف الدفاع بإنتظار أن تتغير موازين القوى وتتفجر الطاقات الكامنة في عقول المسلمين وقلوبهم.

فإذا كان الأمر كذلك فإنّ علينا أن نطرح السؤال التالي:

ما هي السياسة الإعلامية في القرآن ؟ وما هي علاقتها بالمناهج العلمية الحديثة؟

الفصل الرابع

السياسة الإعلامية في القرآن؟

تمهيد:

هذا سؤال رددته بيني وبين نفسي غير مرة وحاولت أن أجد جواباً عنه. وكلّما مضت الأيام وتعاقبت الأسابيع زاد إلحاح السؤال علي كما زاد شعوري بالعجز عن الإجابة.

حتى كان يوم قلت فيه لنفسي: ما دام أنّ القرآن كتاب يتوجه إلى البشر ويتعامل مع عقولهم وقلوبهم، وما دام أنه شديد الاهتمام بكلّ حادث يحدث لا في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وحسب بل في العصور السابقة التي تعاقبت فيها نبوات وأحداث ذات أغراض خلقية وعقدية وأبعاد تشريعية وتنظيمية، فقد وجب أن أبدأ باستعراض المراحل التي قصّ علينا القرآن بعض ما حدث فيها وروى لنا بعض نصوص المحاورات التي جرت بين الفرقاء في أثنائها.

ثم رأيت أنّ هذه المحاورات وتلك الأحداث قد اختلفت وجهاتها وتباينت أساليب التعامل فيها مع الناس تباين الظروف الزمانية والمكانية. وبدا لي أنّ هذا التباين وذلك الاختلاف لابد أن يكونا لأغراض تربوية ولسنن إعلامية ارتضتها لنا العناية الإلهية.

هذا هو القرآن يقول لنا في الآية 176 من سورة الأعراف:(فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ).

وإذاً فالقرآن لا يورد القصص لأغراض فنية أو لتسلية القارئ والسامع بل يورده للتفكير والتدبير والتوجيه أي لغرض إعلامي. ومن هنا ندرك المعاني المقصودة في الآيات التالية:

1- (وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) الآية 120 سورة هود.
2- (نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ) الآية 13 من سورة الكهف.
3- (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ). الآية 78 من سورة غافر.

والجدير بالذكر أنّ القصص القرآنية تبدو للقارئ وهو يستعرض شريط الأحداث والمواقف فيها أشبه ما تكون، لو جمع بعضهما إلى بعض بترتيب خاص، بملحمة بشرية تحكي حكاية الحوار والتعامل الطويلين بين السماء والأرض أو بين الله والبشر بواسطة الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

والتأمل في هذه الملحمة يكشف عن ظاهرة التوازي الدقيق بين الوقائع والمحاورات من ناحية وبين المستويات الحضارية المتعاقبة من ناحية أخرى.

ولا شك أنّ تصنيف هذه المحاورات والوقائع يساعدنا على التعرف إلى المراحل المختلفة التي مر بها الإعلام السماوي عبر عشرات القرون. ففيها الحكمة والموعظة الحسنة... وفيها الإنذار الشديد... وفيها المعجزة القارعة التي تستأصل شأفة المعاندين، والمعجزة التي تثير الدهشة والعجب والروع عند الكافرين، والمعجزة التي يترتب عليها تسليم المؤمنين... كما أنّ فيها الحوار المنطقي المنظم ولفت الأنظار إلى الإعجاز في خلق السماوات والأرض إلخ..

إنّ جملة هذه المعاني هي التي تعيّن الجانب التاريخي من السياسة الإعلامية في دعوات السماء والتي جاء بها القرآن على صورة نماذج مختارة لتحقيق غرض تعليمي توجيهي معيّن. فنحن باستيعابنا لتفصيلات هذه المعاني متمثلة في وقائع محدّدة نكون قد استوعبنا الصورة الكاملة للمنهج السماوي في التعامل مع الأقوام أو الشعوب والقبائل تبعا لمستوياتهم وظروفهم الحضارية وموضعهم من تاريخ البشر.

في ضوء هذا التمهيد نستطيع أن نسرد قصة الإعلام القرآني حتى يوم الإسلام الذي ظهرت فيه نبوة المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم. ونستطيع أن نتعرف إلى جملة الأساليب والسنن التي ارتضتها العناية الإلهية خطة عمل وأسلوب تعامل مع البشر حتى عصر النضوج المتمثل في دعوة الإسلام.

أي نحن مع القرآن الكريم أمام شريط إعلامي كامل مستوف لكلّ شروط الإعلام في صورته التاريخية. وانطلاقاً من هذا الشريط يمكن أن نتعرف إلى قمة الإعلام التي ظهرت في القرآن الكريم وهو المعجزة الإعلامية الكبرى وأن نتفهّم أسرارها.

مع المنهج العلمي:

وقبل أن نقدّم هذه الصورة التاريخية للإعلام السماوي والتي جاءت جزءاً من الإعلام المعاصر المتمثل في القرآن الكريم يجدر بنا أن نسجل ظاهرة بالغة الأهمية بالنسبة لكلّ دارس لكتاب الله.

هذه الظاهرة هي تلك التي تعارف الناس عليها اليوم في طرح العلوم المختلفة ومناقشة القضايا العارضة.

إنّ مناهج البحث وطرائق التأليف العصرية تلتزم خطة التصنيف في عرض الوقائع والفصل بين الموضوعات المطروحة فصلاً تاماً. فعالم الطبيعة يحرص في كتابه الذي يؤلفه على اختيار القضايا المتصلة باهتمامه العلمي الضيق دون أن يعير القضايا المختصة بالعلوم الأخرى أي اهتمام.

وهذه خطة صالحة بل ضرورية جداً لأغراض تطبيقية وتنظيمية تتصل بطبيعة المعلومات. وكذلك الشأن بالنسبة لغير عالم الطبيعة. إنّ الاختصاص الضيق والتجزيئية المحدودة هما مما يتفق مع قدرات الإنسان العادية وإمكاناته لا سيما وأنّ المعارف البشرية قد أصبحت من الاتساع والعمق بحيث يتعذّر على العقل الواحد أن يستوعبها. ولو فرضنا المستحيل واستوعب العقل الواحد هذه المعارف كلّها لاستحال عليه أن يوردها في مؤلّف واحد في حدود المكان الذي تشغله كلّ منها من كون الإنسان المادي والأدبي.

أما القرآن الكريم فهو لم يأتِ على مثال معين من أنساق التأليف الإنساني. أي أنه ليس كتاباً قصصياً ليأتي على صورة كتاب قصصي.. وهو ليس كتاباً علمياً ليخرج على صورة كتاب علمي... وهو ليس كتاباً وعظياً بالمعنى الضيق للكلمة بحيث يأتي على صورة موعظة وحسب... وهو ليس كتاباً أدبياً ليأتي على صورة ديوان شعري أو نثر مرسل... بل هو القرآن... كتاب له أسلوبه الخاص في التأليف وطريقته الخاصة في عرض القصص أو بعض أحداثها ومنهجه الخاص في طرح الوقائع الكونية والطبيعية وفي اختيار مواعظه...

لنقل: أنه ليس شعراً ولا نثراً ولا قصصاً أو علماً مقرراً بل هو القرآن كما ذكرنا قبل قليل.

ومن هنا وجب أن نتدارس كتاب الله ونتتبع تعاليمه بغير العقلية التي تكوّنت لنا من خلال تعاملنا مع القوانين الطبيعية المسندة إلى وجود علاقات ثابتة بين أجزاء الطبيعة التي نراها بالعين المجردة أو بواسطة المراقبة، ونحس بها بلمس اليدين وشم الأنف وذوق اللسان أو بواسطة الأجهزة التي تمكّننا من الإحساس بما يدقّ عن إحساس البشر العادي.

إنّ القرآن الكريم كما جاء فيه: (كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)[1].

1 . الآية 3 من سورة فصّلت.

لكنّ هذا لا يمنعنا ونحن نتعرّض لفهم كتاب الله في ضوء رؤية أصلية غايتها تعلم الحق الذي أتى به في حدود ما توفر لنا من ملكات الفهم والاستيعاب، نقول: أنّ هذا لا يمنعنا من أن نستخدم تجاربنا ومعارفنا الإعلامية أو غير الإعلامية لنتعرّف إلى بعض الحقائق في كتاب الله.

عودة إلى نموذج آدم عليه السلام

سبق أن تحدثنا عن الدور الذي قامت به الظاهرة آدم عله السلام حين تعاقبت في حياته الجوانب الإيجابيه والسلبية ثم الإيجابية الثانية التي عاد بها إلى الله. وقلنا أنّ ترجمة حياة هذا النبي الكريم كشفت عن أبعاد النموذج البشري كما خرج من بين يدي الخالق عز وجل: كائناً متميزاً بالقدرة على المعرفة والاختيار ومتّصفاً في الوقت نفسه بالضعف في العزيمة والنسيان ومتمتعاً بفرصة العودة إلى الله والتوبة إليه والتطهر من شوائب الضعف والانحراف.

هذا النموذج البشري الذي حاولنا أن نحدّد معالم شخصيته وطرحنا إلى جانبه باختصار شديد صوراً مقارنة لنماذج بشرية أخرى، وتبيّنا الفارق الأساسي بين النموذج الآدمي في القرآن الكريم وبين النماذج التي تحدّدت في حضارات وثقافات غير إسلامية، هذا النموذج هو حجر الأساس في سيرة الإعلام السماوي الذي تتابعت حلقاته عبر عشرات القرون أو مئات القرون كما في رأي بعض الناس، وتلوّنت كلّ حلقة من هذه الحلقات بلون معين من ألوان التعامل مع البشر بحيث يمكننا القول بأنّ للإعلام السماوي قصة ذات فصول متعدّدة... وفي كلّ فصل منها تاريخ لظاهرة إعلامية مفردة تتغير معالمها وتتحدّد صفاتها وأساليب التعامل فيها بتغير الظروف التاريخية والأوضاع الثقافية والتيارات الاجتماعية وطبائع الحكم والسياسة.

ولا شك أنّ ظاهرة التنوع هذه في فصول القصة التاريخية للإعلام السماوي قد سجلت في الوقت نفسه (ثابتة) واحدة لا تتغير... هي نفسها جوهر العمل الإعلامي السماوي في عصر آدم عليه السلام... كما أنها هي نفسها جوهر العمل الإعلامي السماوي في عصر خاتم الرسل محمد صلوات الله وسلامه عليه... وستبقى هي نفسها جوهر العمل الإعلامي السماوي حتى يوم يبعثون.

هذه (الثابتة) الواحدة التي لا تتغير والتي دارت وتدور حولها مسيرة الإعلام السماوي وكل إعلام نابع منه هي (عقيدة الوحدانية).

لقد ظهرت هذه (الثابتة) في الوقائع التي جرت يوم آدم عليه السلام، فكان تفرّد الوحدانية في الذات الإلهية هو المقياس الوحيد الذي قيمت به تصرفات آدم عليه السلام، والذي تحقّقت في ضوئه توبته، والذي برز في ضوئه امتيازه واستحقاقه لسجود الملائكة له بأمر من الله عز وجل.

كما ظهرت هذه الثابتة نفسها بوضوح تام في عصر محمد عليه السلام ولكلّ عصر بعده في قوله عز وجل: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ)[1].

وفي قوله (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)[2].

وإذاً فإنّ في وسعنا القول بأنّ قصة السياسة الإعلامية في تاريخ الدعوات السماوية كما وردت في القرآن الكريم هي قصة الدعوة إلى الوحدانية بأساليب وطرق متعددة تعدد الثقافات والحضارات المتلاحقة في تاريخ الأمم والشعوب.

بين الثوابت والمتغيرات

والواقع أنّ تغير الأساليب الإعلامية التي لجأت إليها السماء في توجيه الرسالات والرسل لا يعني أي تغيير في الحقائق أو الحقيقة الواحدة الثابتة. فالثوابت هي التي تمثل روح الأمة وبالتالي تتشكل بها الخلفية الثقافية التي تتحقق بها وحدة الشخصية الحضارية لأمة معينة أو لعدد من الأمم.

ولما كانت رسالات السماء التي جاءت على ألسنة من لا يحصى عددهم من الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم هي دعوة مستمرة إلى اعتناق عقيدة الوحدانية ففي وسعنا القول بأنّ ثقافة الإنسان النابعة من فطرته العميقة والتي هي ثقافة الإنسان المسلم، هي ثقافة الوحدانية.

ومعنى ثقافة الوحدانية أنّ مفهومها يبرز:

1- في معنى الربوبية.
2- في معنى العبودية.

1 . جزء من الآية 48 من سورة النساء .

2 . جزء من الآية 56 من سورة الذاريات .

3- في مفهوم المساواة المطلقة بين الأمم والشعوب حين يتساوى الجميع في اعتناقهم لمعنى الربوبية وحقيقة العبودية.

ويترتّب على هذه الخلفية الثقافية التناسق والانسجام في النظم الاجتماعية والاقتصادية وفي طبيعة الحكم ومقاييس الأخلاق إلخ...

وإذا كان القرآن الكريم قد أكد على وحدة دعوات السماء في جوهرها كما في قوله عز وجل: (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ)[1] وفي قوله تبارك وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم)[2]. فقد كشف في الوقت نفسه عن المتغيرات التي تعاقبت في أساليب الدعوة إلى الله وإذا كانت لنا هنا مهمة خاصة حين نبحث في الظاهرة الإعلامية للقرآن الكريم، فهي مهمة الكشف عن تاريخ الإعلام القرآني كمقدّمة للبحث في خصائص الإعلام القرآني كما بدت لنا ونحن نتدبر آيات الكتاب السماوي الكريم.

وقبل أن نتعرض للقصة الإعلامية القرآنية، وبعبارة أخرى لتاريخ الإعلام السماوي كما يبدو لنا في تضاعيف الآيات القرآنية يجب أن نتذكر الحقيقة البشرية التي أشار إليها كتاب الله في أكثر من موضع واحد حين قرر أنّ الدعوة إلى عقيدة الوحدانية هي في الحقيقة دعوة للعودة إلى الفطرة الأساسية التي فطر الإنسان عليها.. وأنّ الدين الذي جاء به الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم هو دين الفطرة أي هو دين جاء في أوامره ونواهيه وحدوده مطابقاً لطبيعة الفطرة الإنسانية العارية من الشوائب الدخيلة والانحرافات.

أما أن عقيدة الوحدانية هي عقيدة مثبتة في فطرة الإنسان فقد تقررت في قوله تبارك وتعالى: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ)[3]، وفي قوله تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)[4].

---

1. الآية 13 من سورة الشورى.
2. جزء من الآية 47 من سورة النساء .
3. الآية 172 سورة الأعراف.
4. الآية 30 سورة الروم .

فتاريخ الإعلام الإسلامي هو تاريخ الدعوة إلى تصحيح الأفكار الملتوية والعقيدة التي شابتها الشوائب وانحرفت بها التيارات المضللة والعودة بها جميعا إلى الحنيفية السمحاء.

والجدير بالذكر أنّ تسليط الضوء على فصول الدعوة إلى الله والأساليب الإعلامية التي قضت بها إرادة الله عز وجل هو في الحقيقة تاريخ لجوهر الحضارة البشرية على نحو من الأنحاء. ذلك لأنّ الإعلام، أي ظاهرة الاتصال بالآخرين، هو الذي يكشف عن الشكل والمحتوى المطلوبين للرسالة الإعلامية لتحقيق الغرض المقصود عند من يستقبلها.

وهذا لا يتم إلا في ضوء الفهم العميق لعقلية المستقبل لها ولطبيعة الردود المرتقبة من قبله. ومن الطبيعي أن يكون التعديل الذي يتم إدخاله على الرسالة الإعلامية هو الخطوة التي يتطلّبها ردّ الفعل عند المستقبل لها بادىء الرأي.

وسنحاول فيما يلي من الصفحات أن نتعرف إلى المراحل التي سجلتها الآيات القرآنية الكريمة لقصة السياسة الإعلامية لدعوة السماء منذ عصر أبينا آدم عليه السلام حتى عصر خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم.

لماذا الرؤية الإعلامية؟

وقبل أن أتحدث عن التنوع والاختلاف في الأساليب التي اختارتها العناية الإلهية في التعامل مع الإنسان وتبليغها دعوة الحق يجب أن أذكر بادىء الرأي السبب الذي دفعني إلى الاهتمام بالرؤية الإعلامية في القرآن بخاصة وفي الكتب السماوية بعامة.

***

لقد بدأت منذ سنوات أتساءل فيما بيني وبين نفسي: ما هو السر في أنّ كتاب الله عز وجل قد استقطب قلوب مئات الملايين من البشر وعقولهم؟

وكان الجواب المنطقي الذي تفرضه طبيعة الخلق والتجارب الفكرية كلّها أنّ الاستقطاب المستمر مشروط بسنن وقواعد ثابتة هي جزء من السنن والقواعد العامة التي ينتظم بها الكون وتستمر بها حركة الحياة في كلّ ميدان من الميادين. وهذا يعني أن للقرآن منهجاً في التعامل مع البشر وخطة خاصة في التحاور معهم التزمت بها كلّ الرسالات السماوية من قبله على أساس

أنها شيء في صميم السنن والقواعد التي قضت بها إرادة الله عز وجل... وهي السنن والقواعد التي تتعاقب بها وقائع الكون والحياة على نحو منظم دقيق.

***

وإذا فقد وجب أن تكون الدعوة إلى الله بكلّ ما يرافقها من أساليب التعبير وأنواع السلوك خاضعة لقوانين وبالتالي متجاوبة مع الفطرة التي فطر البشر عليها في القصص القرآني. إنّ العلاقة بين الرسل والأنبياء من ناحية وبين شعوبهم وأقوامهم من ناحية أخرى لم تكن ثابتة على صورة واحدة.

كانت هناك تغيرات مستمرة هي حصيلة التطور الذي حققته البشرية على امتداد الأجيال والقرون..

إنها تغيرات تتّصل بالزمان والمكان كما تتّصل بالأوضاع الثقافية والتقاليد والعادات الموجودة عند تلك الأقوام.

هناك أقوام تلقت دعوة السماء فأنكرتها وآذت أصحابها فأصابها بسبب ذلك شرعظيم... وهناك أقوام كشفت عن مستوى ثقافي رفيع نسبيا في المحاورات التي جرت بينها وبين الرسول المرسل إليها.

ومع ذلك فقد أنكرت الدعوة وغضبت لآلهة الآباء والأجداد واعتدت على الرسول دون أن تنزل بها العقوبة المدمرة التي نزلت بغيرها من الأقوام.

ومن ناحية ثالثة نلاحظ أنّ المعجزات التي ترافق الرسل صلوات الله وسلامه عليهم كانت مختلفة في موضوعاتها باختلاف ثقافات العصور التي ظهر فيها هؤلاء الرسل أنفسهم.

كما نلاحظ من ناحية رابعة أنّ خاتمة دعوات السماء لم تصحبها معجزات مادية من أي طراز بالمعنى الذي عرفته الدعوات السابقة عليها بل اقتصرت هذه الدعوة على طرح تحدّ واحد أساسي هو كلام الله نفسه... وهذا يعني أنّ العناية الإلهية قد اعتبرت الكلام السماوي الموحي به على صورته المعلومة، قمة إعجازية تتفق مع أعلى مراحل النضج البشري.

ولما كانت هذه الملاحظات في حاجة إلى قدر كاف من الوضوح بإيراد الشواهد المختلفة، ولما كان إدراك الرؤية الإعلامية في كتاب الله مشروطاً بتقديم ما يمكن تقديمه من الوقائع الخاصة بمنهج الدعوة إلى الله فإنني سأختار من النصوص القرآنية ما

يعينني على رسم اللوحة الإعلامية التي تساعدني بدورها على فهم العناصر والأصول التي جعلت منها العناية الإلهية وسائل ضرورية للتعامل مع البشر.

القاسم المشترك

هناك قاسم مشترك يستوعب كلّ رسالات السماء بل يستوعب كلّ الاهتمامات البشرية كما صورها القرآن الكريم ابتداء من اليوم الذي خرج فيه أبو البشر آدم عليه السلام إنساناً سوياً وواجه التجربة التي انتهت به مع زوجه حواء إلى الأرض. هذا القاسم المشترك الذي تعاقب عليه كلّ الرسل وحمله كلّ الأنبياء وجاءت كلّ كلمات السماء تدعو إليه هو الإيمان بالله الواحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

وإذا كانت الدعوة إلى الله الواحد الذي ليس كمثله شيء هي هذا القاسم المشترك فإنّ جوهر الدعوة أو العملية الإعلامية كما يقال اليوم هو التسليم ببديهية أساسية أشرنا إليها قبل قليل، خلاصتها أنّ الإيمان بالله هو شيء في فطرة الإنسان وأنّ الغرض من دعوات السماء هو العودة بالإنسان إلى فطرته السليمة بعيداً عن وسوسات الشيطان وهمساته المضللة.

وإذاً فنحن لن نعود إلى موضوع العقيدة مع كلّ واقعة نوردها من كتاب الله بعد أن علمنا أنّ هذه العقيدة هي الغاية الكبرى التي تعمل على الوصول إليها كلّ الرسالات السماوية بالعنف تارة وباللين تارة أخرى وبالحوار الدائم في كلّ مرة.

لماذا جريمة قابيل ؟

وفي وسعنا القول بأنّ أول قصة حدثنا القرآن فيها عن أول واقعة خطيرة في تاريخ البشرية بعد ظهور النموذج البشري الأول المتمثل في آدم عليه السلام هي قصة الجريمة التي ارتكبها قابيل أحد أبناء الآدمي الأول وكان ضحيتها أخ لقابيل هو ابن آخر من أبناء أبي البشر.

وقبل أن نسلط الضوء على خلفيات هذه القصة يحسن بنا أن نورد ما جاء عنها في كتاب الله عز وجل. قال تبارك وتعالى في محكم تنزيله: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27) لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (28) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ

الْخَاسِرِينَ (30) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (31))[1].

لماذا قضت إرادة الله عز وجل بورود هذه القصة في كتاب الله؟ أول ما يلفت النظر في سياقها أنها وردت بمناسبة الحديث عن عناد بني اسرائيل وتنكرهم لنعم الله عليهم ورفضهم الدخول في الأرض المقدسة بزعم أنّ فيها قوماً جبارين وإصرارهم على هذا الرفض وبراءة موسى وأخيه منهم وطلبهما من الله عز وجل أن يفرق بينهما وبين هؤلاء القوم الفاسقين. فقضت إرادة الله أن يتيه بنو إسرائيل في الأرض أربعين سنة.

ثم وردت قصة ابني آدم قابيل وهابيل وصدر بعدها الحكم الإلهي موجّهاً إلى بني اسرائيل بأنّ من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً.

هل يمكن أن نقول: أنّ ورود هذه القصة هو لإعلان هذا الحكم الإلهي والتمهيد لما يترتب عليه من العقوبة، أم أنّ للقصة دوراً آخر وهدفاً تعليمياً إعلامياً بالإضافة إلى الجانب العقابي منها؟

يبدو لنا حين نعود إلى النموذج البشري الذي طرحته العناية الإلهية في شخص آدم عليه السلام والذي كشفت فيه عن الإنسان الواقعي بما فيه من جوانب القوة والضعف والذي رسمت فيه الصورة الإيجابية التي يعود بها هذا النموذج البشري إلى ربه ويستعيد بها طبيعته الفطرية السليمة، نقول: أنه يبدو لنا بعد ذلك أنّ قصة إبني آدم هي نموذج آخر رسمت فيه الصورة البشرية في جانبها السلبي وهي كشف عن البعد المقابل والهابط الذي يمكن أن يبلغ المستوى المتدني للجريمة.

فقابيل هذا يبتعد عن مواطن الهداية ويفقد إحساسه بالحضور الإلهي متأثراً بوسوسات إبليس.

ثم يكتشف سوء ما فعل كما يتبين مدى عجزه حين يجد الغراب أعرف منه بالطريقة التي يدفن بها جثة أخيه.

لقد كانت صورة آدم عليه السلام هي الصورة المشرقة التي تتحدد بها طريق الفوز والنجاح... كما جاءت صورة قابيل القاتل بلونها القاتم الذي تتحدد به طريق الخيبة والخسران المبين.

1 . الآيات 27 – 31 سورة المائدة .

***

القرآن كتاب سماوي له غرض تعليمي تربوي فهو يورد القصص ويضرب الأمثال لطرح نماذج للخير والشر تكون بمثابة الشواهد في الحياة الدنيوية تتميز بها طريق الشر من طريق الخير بحيث يصبح العارف بها والمطلع على الظروف التي تحيط بها على وعي بحقيقة ما يصيبه في دنياه وآخرته فيختار السير في إحدى الطريقين.

والجدير بالذكر أنّ وقائع النموذجين اللذين عرض لهما القرآن قد تعاقبت قبل نشوء المجتمعات البشرية الواسعة فهي إذاً مدخل إلى تاريخ السياسة الإعلامية السماوية التي رسمتها يد السماء فيما بعد عبر الأجيال والقرون وتنوّعت فيها الأساليب التي لجأت إليها العناية الإلهية في التعامل مع الأجيال البشرية المتعاقبة.

مع نوح عليه السلام:

ولعلّ قصة نوح عليه السلام أن تكون الفصل الأول من فصول التاريخ الإعلامي الذي تعاقبت فيه أنواع من الحوار وألوان من العلاقات بين الله وعباده... فكانت هذه الألوان وتلك الأنواع من العلاقات والمحاورات بمثابة خطط تعليمية تربوية يقصد بها التأريخ لتطوّر البشرية وتسليط الأضواء على العلاقات الجدلية بين ملكات الخير والحب والفضيلة من ناحية وملكات الشر والبغض والفساد من ناحية أخرى.

في ضوء هذا العرض نواجه قصة نوح عليه السلام ونحاول أن نستبين وجهاً من وجوه الإعلام السماوي وطريقة معينة من طرق التعامل مع البشر على أن نعتبر أسلوب التعامل مع البشر شيئاً في صميم العمل الإعلامي ذي الأغراض التربوية الهادفة.

نوح والطوفان

أوّل ما يلفت النظر في قصة نوح عليه السلام أنها تسلط الضوء على الفترة الطويلة جداً التي مضى فيها هذا النبي الكريم يدعو إلى عبادة الله وحده وقد مدّ الله في عمر دعوته حتى بلغت 950 عاماً من أعوام الكرة الأرضية.

ومما يلفت النظر أيضاً أنّ حصيلة هذه السنوات الطويلة الكثيرة لم تكن تتكافأ مع الجهد المبذول والصبر اللذين استعان بهما النبي للفوز بقلوب الناس في قريته.

لقد كانت السخرية والمعاندة والعداوة السافرة هي نصيبه من جمهرة الناس حتى داخله اليأس بعد تسعة قرون ونصف قرن من ممارسة الدعوة إلى الله فكانت معجزة الطوفان.

معجزة الطوفان:

والجدير بالذكر أنّ معجزة الطوفان هي أقدم الوقائع التاريخية التي رواها لنا القصص القرآني بعد تعرضه لكلّ من نموذج آدم عليه السلام وولده قابيل قاتل آخيه هابيل حسداً منه له وحقداً على أنّ الله قد تقبل منه قربانه دونه هو.

وقبل أن نتلو ما جاء في هذه القصة يجدر بنا أن نمر سريعاً بالمقدّمات التي سبقت يوم الطوفان. وهي مقدّمات طويلة حدثنا فيها الله عز وجل بلسانه تارة وعلى لسان نبيه نوح تارة أخرى عن الجهود التي بذلت لإقناع قوم النبي وتذكيرهم بحقيقة الكون وما وراءه وأنّ الله خلق كلّ شيء.في سورة نوح عرض رائع لمقدمات معجزة الطوفان وخلاصة العرض ما يلي:

1) أنذر نوح قومه وطالبهم بعبادة الله عز وجل.
2) أنبأهم أنّ الله يغفر لهم ذنوبهم إن تابوا وأقلعوا عن المكابرة والإنكار.
3) يئس نوح أو كاد من قومه فراح يناجي ربه ويقول له ما فعله من أجل إقناع قومه.
4) يبلغ اليأس عند نوح أعلى درجاته ويتدرج القارئ في استيعاب ظاهرة اليأس هذه من خلال الحوار الذي جرى بين نوح وقومه. وأخيراً يتوجه النبي إلى ربه ويسأله أن ينزل عقوبته الصارمة بهؤلاء القوم فيقول:

(وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (27))[1] ثمّ يبادر النبي إلى استثناء المؤمنين منهم بادئاً بنفسه فيقول في الآية الأخيرة من السورة (رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (28))[2].

ويستجيب الله للدعاء فيأمره ببناء الفلك. فيمضي نوح في تنفيذ أمر ربه. وفي أثناء ذلك يستمر الحوار بين النبي والمشركين من قومه، فيه سخرية المنكرين وتحدّيهم. حتى إذا تمّ صنع الفلك أوحى الله إلى نبيه أن يجعل في الفلك من آمن من قومه فإذا فعل بدأت السماء تمطر والأرض تجيش بالماء وتتمّ كلمة الله في الأرض.

1 . سورة نوح: 26-27
2 . سورة نوح: 28

***

ونجد في سورة هود ابتداء من الآية 36 قوله عز وجل: (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (37) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (39) حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (40) وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (41) وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (42) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (43)).

بمثل هذه العقوبه الرادعة انتهت قصة الدعوة إلى الله في يوم نوح عليه السلام.

والجدير بالذكر أنّ هذه العقوبة التي نزلت بقوم نوح لم تكن فريدة من نوعها. فقد قص علينا القرآن الكريم عدداً من القصص التي انتهت بأحداث مأساوية في عصور عدد من الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم. فهناك عاد قوم هود وثمود قوم صالح وأهل مدين قوم شعيب ثم قوم لوط وأصحاب الرس وأمم أخرى لم تحدّد هويتها.

***

ومما يلفت النظر أيضاً أنّ المحاورات التي رافقت هذه الأحداث لم تكن شديدة التنوّع ولا كانت حافلة بالمواقف الفكرية المتعدّدة. لقد كانت تتميز بالوضوح والبساطة والاختصار مع العلم أنّ الفترة الزمنية التي قضاها نوح عليه السلام مع قومه يدعوهم فيها إلى الله هي أطول ما عرفنا من الفترات التي قضاها غيره من الرسل والأنبياء. لقد امتدت هذه الفترة كما جاء في كتاب الله نفسه 950 سنة ومع ذلك فإنّ القرآن الكريم لم يورد أي صورة لمحاكمات عقلية مطولة تكشف عن التطوّر الثقافي في مجتمعه وإن كانت المحاورات المذكورة متفقة مع الفطرة الخالصة.

والشأن هو نفسه بالنسبة لبقية الأنبياء الذين عوقب أقوامهم بعقوبات شديدة رادعة.

وخلاصة القول في معجزة الطوفان والمعجزات التي عصفت بأقوام آخرين بعد عصر نوح أنها كانت معجزات تأديب وزجر واستئصال.

معجزة النار الباردة:

وتمضي عهود بعد ذلك تطول أوتقصر فيظهر نبي كريم آخر في تاريخ النبوات هو إبراهيم عليه السلام. وقد سجّلت نبوته في تاريخ الدعوة إلى الله تحولاً ظاهراً لا في طبيعة المعجزات وحسب بل في طبيعة المحاورات التي كانت تدور بين الأنبياء وأقوامهم.

أما التحوّل الظاهر في طبيعة المعجزات السماوية فظهر في معجزة النار التي كانت برداً وسلاماً على إبراهيم. لقد تنادى قوم إبراهيم وقرروا التخلّص منه واختاروا أن يحرقوه بالنار على أمل أن يحررهم حرقه من استمرار التناقض العنيف بين باطلهم وحقه أو بين رغبتهم في الحفاظ على التقاليد وإصراره على فضح هذه التقاليد بإظهار ما فيها من البطلان. وكان قرارهم بإحراق النبي آية على عجزهم وتهافت منطقهم أمام سلطان العقل: (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ)[1] لكنّ الله ينقذ نبيّه من النار بعد أن ألقي فيها بأن جعلها برداً وسلاماً عليه قال تعالى: (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ)[2] فيخرج النبي سليماً معافى فيصبح قومه من الأخسرين أعمالاً.

لكنّ الذي يلفت النظر هنا أن عدوان المشركين على إبراهيم وهو أشد من عدوان قوم نوح على نوح نفسه لم تقابله معجزة استئصال وزجر عنيف بل يبدو لنا وكأن الغرض منها هو التعليم والتخويف والحفز إلى التفكير والتدبر.

هكذا ظهرت المعجزة المادية وسيلة قهر معنوي وردع نفسي وتسجيل موقف يثبت لجيل ذلك العصر أنّ وراء أصنامه ومن فوقها إلهاً قادراً تتضاءل أمامه الأوثان والعبادات الأسطورية.

لماذا هذا التحوّل؟

يبقى أن نتساءل: لماذا لم تعد المعجزة المادية وسيلة استئصال كما كان شأن غيرها من المعجزات التي ظهرت عند رسل سابقين ورسل لاحقين؟

هل يمكن أن نعتبر هذا التحول إعلاناً عن دخول الدعوة السماوية مرحلة جديدة في التعامل مع البشر ؟ وكيف نعتبره إعلاناً عن مرحلة جديدة مع العلم أنّ معجزات أخرى استؤصلت بها أقوام من الناس ظهرت بعد إبراهيم عليه السلام؟

***

1 . الآية 68 من سورة الأنبياء
2 . الآية 69 من سورة الأنبياء

أما أنا فأميل إلى الظن بأنّ المعجزة التي تحولت بها النار إلى برد وسلام هي إعلان عن مرحلة جديدة. ولا يرد على هذا الظن القول بأنّ معجزات زاجرة عنيفة قد ظهرت بعد إبراهيم عليه السلام. ذلك لأنّ المراحل التاريخية في ميادين الفكر والثقافة والعادات تتداخل فتكون فيها العادات أو الأساليب الجديدة موصولة بالعادات والأساليب القديمة لكنّها في الوقت نفسه تؤذن بحركة التاريخ المستقبلي وتعيّن اتجاهه.

نجد مصداق ذلك في طبيعة المحاورات التي اتصفت بالتنوّع الشديد وكشفت عن الثراء العقلي والتحولات الحضارية في عصر إبراهيم الخليل.

والجدير بالذكر أنّ هذه المحاورات التي قام بها أو اشترك فيها إبراهيم عليه السلام تنقسم إلى الأقسام التالية:

1- حوار مع الذات: يخبرنا القرآن أنّ الهداية عند سيدنا إبراهيم كانت ثمرة حوار مع نفسه. وهي بداية طبيعية لصاحب الفطرة السليمة الخالية من الشوائب حين يسعى إلى معرفة الحقيقة. فهو يتساءل أبداً عن سر الكون الذي يحيط به من كلّ جانب. وهو يحاول النفاذ إلى ما وراء المشاهد التي تتعاقب أمام ناظريه ابتداء من الكوكب والنجوم في الليالي الحالكات وانتهاء بالشمس بالنهارات المضيئة مروراً بالقمر. وقد طرح القرآن الكريم صورة واقعية مؤثرة من خلال شخصية إبراهيم الخليل نفسه وقص علينا ما جرى لهذا النبي الكريم على صورة حوار داخلي جاء فيه قوله عز وجل في سورة الأنعام: (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79))..

بمثل هذا المنطق البسيط النابع من الفطرة السليمة بعيداً عن مناورات الفلاسفة وأساليبهم العقلية المعقدة أصبح النبي إبراهيم من الموقنين. وهكذا يكون الحوار النبوي مع الذات قد كشف عن الفارق الكبير بين الثبات والتحوّل. ودلّ على اتجاه الفطرة إلى التعلق بالحقيقة الثابتة دون المظاهر المتحولة حتى ولو كانت في عظمة الكواكب والقمر وروعة الشمس. لقد أدرك النبي إبراهيم عليه السلام أنّ التحوّل في الأجرام السماوية يفقدها جلالها وهيمنتها على نفسها ناهيك عن غيرها من الكائنات. وبذلك شاع اليقين في نفسه وتمت له رحمة ربه وأدرك كما لم يدرك من قبل قصة خلق وحقيقة الكون.

1- حوار مع العامة:

ويمضي القرآن بعد ذلك فيقدم إلينا صورة أخرى من صور الحوار في تفصيل لا سابقة له حين يحدثنا عن إبراهيم عليه السلام وهو يحمل دعوة السماء إلى قومه من عامة الناس. وهو في هذه الدعوة لا يقتصر على التذكير بآلاء الله ونعمه كما فعل سيدنا نوح من قبله بل استعان بخطة فيها من المحاكمات العقلية حظ غير قليل. وهذا يعني أن البشر في عصره قد حققوا تقدّماً في إدراكهم العقلي وأصبحوا قادرين على التحرّر نسبياً من الأساطير النابعة من مواجهة المجاهيل الكونية المحيطة بهم من كلّ جانب.

هنا يسأل النبي أباه وقومه عن التماثيل التي يعبدونها. فكان جوابهم هو الجواب الذي تعارف عليه عامة البشر من أنّ عبادتهم لها هي تقليد لآبائهم الذين كانوا يعبدونها من قبل. ويتّهمهم الخليل عليه السلام بالضلال لا يستثني أحداً منهم أو من آبائهم الأولين فيغضب القوم. فإذا تبين له عقم المناقشة المباشرة أوحي إليه أن يلجأ إلى خطة عملية يكشف بها لقومه عن عجز التماثيل وتفاهة شأنها، فيمضي عليه السلام في غفلة منهم يحطم الأصنام غير الصنم الكبير منها. فإذا جاءوا يتهمونه ويحاكمونه وجّه التهمة إلى هذا الصنم فيسقط في أيدي القوم حين يتذكرون أنّ الأصنام لا تنطق ولا تتحرك.

والواقع أنّ الحوار بين الطرفين حوار متسم بمنطق قوي فيه بساطة الفطرة وقوتها كما فيه شيء من النضج العقلي. ولننظر فيما يلي إلى الآيات 51–67 الواردة في سورة الأنبياء:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (51) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (54) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (55) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (56) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (57) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (58) قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (59) قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (60) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (61) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (62) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (63) فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (65) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (66) أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (67)..

هذا حوار مفصل إمتحن فيه عقل الإنسان في عصر أبي الأنبياء عليهم السلام. وكانت هذه المحكمة التي أسكتت قوم إبراهيم آية على تطور إيجابي في واعية الناس وإدراكهم وإن لم يبلغ هذا التطور مرحلة استيعاب العقيدة.

وفي هذا الحوار يتبين لنا الفارق الكبير بين العناد السفيه عند قوم نوح والعناد الممتزج بإقرار بعض ما جاء في أقوال إبراهيم عليه السلام مع الإصرار على التمسّك بتراث الآباء والتستر به. لقد كشف الحوار عن صراع بين اعترافهم من ناحية وبين تعلقهم المعنوي بما كان عليه آباؤهم من قبل.

قالوا لإبراهيم عليه السلام (وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ) وظنوا أنّ في هذا القول ما يحررهم من إثم العناد الذي اعترفوا به في الوقت نفسه كما جاء في قوله عز وجل: (فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (64) ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (65)).

والواقع بعد الحرج الذي أوقعهم فيه هذا الحوار قد حاولوا التخلّص بطريقة من الطرق. قالوا للنبي عليه السلام (أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ)، فيؤكد لهم النبي أنّ ما أتى به هو الحق وأنه من عند الله رب السماوات ورب الأرض الخالق لهم والمدبر لشؤونهم ومؤكداً أنها الشاهد على ربوبيته. وينتهي كلامه لهم بقوله: (قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ) حتى إذا أدرك ما أصاب القوم من الحيرة والاضطراب بادر إلى تبكيتهم قائلاً: (أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ).

وسقط القوم في المكابرة رغم ما ظهر عليهم من بوادر الإدراك والوعي فقرّروا التخلص من هذا الحرج الذي وضعوا فيه بقتل مصدره وإعدامه وهو شخص النبي عليه السلام فكان قرارهم بإحراقه. وقد تحدثت عن هذه الظاهرة في فقرة سابقة.

2- الحوار مع صاحب الملك:

ويمضي النبي عليه السلام في محاورة القوم بعد أن أصابتهم المعجزة المادية التي أنقذته من النار بالقهر المعنوي والردع النفسي فيتسامع أهل القرى به ثم يرفع أمره إلى صاحب الملك. وهذا يعني أنّ منطق إبراهيم ومحاوراته قد أحدثت تيارات فكرية عميقة اهتزت لها طبقات أخرى من الناس حتى أنها مست طبقة الحاكمين وفي مقدّمتهم صاحب الملك وعصفت بهم. ويستدعيه صاحب الملك ويجري معه حواراً خاصاً لإحراجه.

والملاحظ في هذا الحوار أنه قد اتخذ مادة فكرية أخرى غير التي اتخذها من قبل مع عامة الناس أو اتخذها النبي نفسه مع الكواكب والقمر والشمس في بحثه عن الذات الإلهية الخالقة.

لنقرأ ما جاء في الآية 258 من سورة البقرة. قال تبارك وتعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ).

الروايات القديمة تقول: أنّ هذا الحوار جرى بين أبي الأنبياء وبين صاحب ملك كبير. وأنّ النمروذ هو صاحب هذا الملك. ونحن هنا لا يهمّنا من يكون شخص صاحب الملك بل المهم هو الحوار نفسه والمستوى الجديد الذي انتقل إليه، مع العلم أنّ القرآن يقرر الواقعة ويكتفي بالتعقيب عليها بقوله: (وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ).

***

3- حوار مع الله:

وقبل أن نعقّب على هذه المحاورات جملة واحدة نورد صورة رابعة لحوار إبراهيم عليه السلام. وقد جرى هذا الحوار في أعماق ذاته بينه وبين الله عز وجل. لقد ورد في الآية 260 من سورة البقرة ما يلي: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ).

هل نفهم من وقائع هذه الآية أنّ الشكّ في قدرة الله على الخلق قد داخل نفس إبراهيم الخليل عليه السلام؟ وهل يمكن أن يحدث شيء من ذلك؟

الواقع أنّ هذا الحوار هو بمثابة تعليم للناس فيه برهنة على الخلق الإلهي المعجز مما لا تنكره الفطرة ولا يتجاوز بالعقل الإنساني في ذلك الوقت حدود ما يمكن أن يبلغه من الملاحظة وهو في الوقت نفسه إشارة إلى الطبيعة المعجزة للخلق الإلهي الذي لا يستوعب العقل الإنساني العادي تفصيلاته بملكاته المعروفة. هذا الخلق موصول إدراكه بملكة تعلو هذه الملكات الإنسانية. ذلك لأنّ هذه الملكات لا تستوعب غير ظاهر من العلاقات المادية الثابتة بين جزئيات هذا الخلق وحسب دون أن تتعرف إلى أسرار الأعجاز الإلهي الذي تتمّ به عملية الخلق.

ها نحن أولاء نجد أنفسنا أمام أربعة أنواع من الحوار انتهى كلّ منها إلى تثبيت عقيدة الوحدانية على صورة من الصور. أما الحوار الأول فقد كان بين النبي إبراهيم عليه السلام وبين أبرز الكائنات وأعظمها تأثيراً في النفوس لأول مرة يتقلّب وجه الإنسان معها في السماء من حوله... فكانت به نقلة النبي من الكواكب إلى القمر ثم إلى الشمس ومنها إلى الله عز وجل. وأما الحوار الثاني فقد حدث بين النبي نفسه عليه السلام وبين قومه في القرية التي نشأ فيها وانتهى هذا الحوار بتسليط الضوء على جمود الإنسان وتعلّقه بما تعارف عليه من التقاليد والعادات والقيم حتى ولو كانت هابطة ثم على مبادرته إلى إحراق النبي لا لأنه غير مقتنع بما جاءه به من العقيدة بل لأنّ عصبيته لتقاليده وعاداته أقوى من شجاعته على قبول الدين الجديد الذي حمل إليه. فهو يريد أن يحرق صاحب هذا الجديد ليحرّر نفسه من المأزق الذي وضعته فيه دعوة الحق. ثمّ لا يلبث أن يفاجأ بنجاة النبي من النار في معجزة مدهشة مثيرة للرعب في نفسه... وهنا نشهد حجة للنبي عليه السلام يفرض فيها على الأقل أن تزلزل النفوس عند من في قلوبهم مثقال ذرة من الخير والشجاعة على إظهاره بمقاومة ما وجدوا عليه آباءهم من الباطل.

ثم يأتي الحوار الثالث الذي جرى بين إبراهيم الخليل عليه السلام وبين صاحب الملك. فكان حواراً على مستوى أرفع مكانة. لقد تجاوز به الطرفان رؤية الفطرة البسيطة والسليمة في الوقت نفسه ثم الانفعال بصدمة المعجزة العابرة التي حطّمت بعض قوانين الطبيعة بجعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم. وإذا بهذا الحوار يتمّ على مستوى الجدل العقلي الخالص ويتناول ظاهرتين من ظاهراته.

الظاهرة الأولى التي تناولت قضية الحياة والموت والتي حاول صاحب الملك أن يلجأ معها إلى التلاعب بمقياس العقل وتجاهل المعنى المقصود من التحدي النبوي له. فبينما يتحدّث النبي عن فكرة الخلق الإلهي في مفهوم النقلة من الموت إلى الحياة أجاب صاحب الملك بمنطق القوة في الحفاظ على الحياة أو القضاء عليها.

والظاهرة الثانية هي التي تناولت قضية واقعة كونية تعجز قدرات صاحب الملك عن إحداث أي تغيير فيها وعن التلاعب بالمعنى الذي قصد النبي عليه السلام إليه والمماراة به فبهت الذي كفر... هكذا يكون الحوار الإبراهيمي قد بلغ القمة في أسلوب الدعوة إلى الله عز وجل.

أما الحوار الرابع فلم يكن من أجل تحقيق النقلة من الكفر إلى الإيمان بل كان خطوة لتعميق الإيمان الثابت وتحقيق المزيد من الطمأنينة في القلب. فهو درجة جديدة عليا من درجات الإيمان ولذلك جرى هذا الحوار بين إبراهيم الخليل عليه

السلام وبين ربه وأراد به أن يطمئن قلبه أكثر فأكثر فكانت معجزة الخلق التي تحولت بها الطيور المقطعة والموزعة على جبال أربعة إلى مخلوق حي بمجرد توجيه الدعوة إليها.

والثابت أنّ القصد من هذا الحوار هو تعميق الوعي المؤمن بوقائع تحدث في كلّ يوم أين تلفت المؤمن من حوله. لكأنّ منطق هذا الحوار يقول للمؤمن: أنّ في وسعك أن تشهد مع اشراقة كلّ شمس ومدار كلّ كوكب وتعاقب الليل والنهار وخروج كلّ مولود إلى الدنيا معجزة الخلق التي رغب النبي إبراهيم عليه السلام في أن يشهدها على الصورة التي رويت لنا.

***

هذا المنهج الإلهي الذي طرحته العناية الإلهية أمام البشر عند كلّ نقلة من النقلات الحاسمة في تاريخ الدعوة إلى الله هو الخط الطبيعي السليم الذي يستوعب كلّ مستويات الفكر الإنساني والرؤية العقلية الواعية عند كلّ الأجيال منذ تتكامل عندها ملكات الفهم المستند إلى مقاييس الفطرة السليمة.

والملاحظ أنّ مستويات هذا المنهج تقصد إلى تحقيق غرض واحد هو إثبات الوحدانية فلا تعود لأحد من الناس، مهما هبط الإدراك عنده أو استوى فوق قمة الفكر، حجة يبرر بها غفلته عن حقيقة هذه الوحدانية.

***

وإذا كانت هناك شعوب لم تستوعب مفهوم الوحدانية بعد الحوارات الأربعة التي قام بها إبراهيم الخليل فلأنها أسقطت المنهج الإلهي المتمثل في هذه الحوارات.

بعض هذه الأمم والشعوب وقف عند الحوار الأول ورفض أن يضع الكواكب والقمر والشمس وبالتالي أشياء الطبيعة في مكانها الحقيقي وتجاهل عبوديتها للخالق وخضوعها للقوة المسيرة لها فسقط في مأزق الوثنية على اختلاف وجوهها.

وبعض آخر من هذه الأمم والشعوب وقف عند الحوار الثاني ورفض التنازل عما وصل إليه من عادات الآباء والأجداد والتقاليد الدينية الهابطة رغم وضوح المعجزة التي جرت على مرأى ومسمع منه فغلبت عليه نزوة العصبية العمياء للباطل فسقط في عبادة الآباء والأجداد مع يقينه بأنّ هؤلاء الآباء والأجداد لم يكونوا في عباداتهم يعقلون شيئاً ولم يكونوا مهتدين إلى الحق. فخسر نفسه تحت ضغط المكابرة وفي ظلّ العناد الغبي.

وبعض ثالث من هذه الأمم والشعوب وقف عند الحوار الثالث ورفض الاستجابة لنداء العقل السوي والمعادلات الفكرية التي تكشف عن الحق في كلّ ظاهرة من ظاهرات الخلق تمسّكاً منه ببهلوانية العقل المحروم من نور الهداية ظناً منه بأن الالتواء في المجادلة هو وحده الذي يمنحه الامتياز الذي يطمح إليه فسقط في أوضاع ظاهرها عقلي منطقي وباطنها متاهات من الضلالات التي يلبس فيها الخيال لبوس العقل، والضلالة لبوس الهداية.

أما الحوار الرابع فهو الذي يتميز به من حقّقوا إيمانهم بواحد من الحوارات الثلاث السابقة بقصد تعميق الإيمان وتوفير مزيد من الطمأنينة للقلب.

***

وخلاصة القول في هذا المنهج الإلهي الذي جاء به أبو الأنبياء إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه وعيّن أقسامه من خلال الحوارات الأربعة هو تقرير حقيقة أساسية كبرى هي أنّ البشرية في مستوياتها المختلفة مهما تباعدت بينها القرون وتعاقبت بها الحضارات لا تخرج في ملكاتها التي فطرت عليها على هذه الحوارات الأربعة. وأنّ هذه الحوارات في حاجة إلى نور الهداية الذي يأذن به الله سبحانه وتعالى فيهب أصحابه القدرة على الوعي بوحدانية الخالق والإيمان به.

وتتأكّد هذه الظاهرة في قوله عز وجل لنبيه المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم في سورة الأنفال: (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63)) وفي آية أخرى من سورة القصص (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (56)).

***

هكذا نكون قد واجهنا ما يمكن أن نطلق عليه أول وأعظم ثورة في الوعي العقلي في تاريخ البشر. إنها الثورة التي يستحيل معها أن تدعي الأجيال اللاحقة عجزها عن إدارك الحق واستيعاب الدور الإلهي الخلاق. ذلك لأنّ هذه الثورة قد طرحت أمام العقول البشرية جملة المستويات والأساليب التي يجب أن تنتهي بأصحابها إلى اكتشاف العقيدة الصحيحة والتعريف إلى الوحدانية.

لماذا صحف إبراهيم؟

والجدير بالذكر أنّ الدعوة إلى الله في عصر النبي إبراهيم عليه السلام قد بدأت مع ظهور المنهج الذي أشرنا إليه، تتّخذ شكلاً حضارياً جديداً لم يكن موجوداً من قبل. ذلك لأنّ هذه الدعوة قد تسلّحت بفنون من الحوار المنظم ترمز إلى تطور البشرية وارتقائها إلى مستوى ثقافي يجاوز المستويات السابقة والتزامها بأنواع من القيود تفرضها الحياة الاجتماعية المشتركة حيث يفرض على كلّ فرد من أفراد المجتمع الجديد أن يمارس سياسة تعاون ويخضع لخطة التكامل في التعايش مع الآخرين.

إنّ ما جاء في الحوارات المذكورة يؤكد بأنّ ناس ذلك العصر كانوا يعيشون في قرى مبنية... فيها المعابد التي تستقطب السكان... كما فيها هيكلية الدولة التي ترمز إلى أنظمة مفروضة والتزامات متبادلة يؤكّدها وجود صاحب الملك الذي يحدثنا عنه كتاب الله. وهذا يعني أيضاً أن هناك تراثاً ثقافياً معيناً يستوعب الناس التابعين للدولة القائمة. وها نحن أولاء في أواخر القرن العشرين بعد الميلاد نعيش في ظل دولة ونلتزم لقوانين معينة ونخضع لتراث ثقافي واضح يستوعب وحدتنا ويحقق وجودنا الاجتماعي. وإذا كان هناك فرق بين عصر إبراهيم وبين عصرنا فهو فرق في الدرجة لا في الجوهر والطبيعة.

***

في ضوء هذه الصورة التي نخرج بها من قراءتنا لنصوص الحوارات نواجه التجربة الأولى التي سجلت بها الأوامر والنواهي ورسمت بها الالتزامات المتبادلة وعينت بفضلها النظم التي تتيح للناس فرصة العيش والحصول على ما يحتاجون إليه. هذه التجربة الأولى التي كتبت فيها أول شرعة للناس بطريقة متطورة، ظهرت على صورة (الصحف) التي أوحت بها السماء إلى إبراهيم عليه السلام وقدمت إلى الناس على أساس أنها الدستور الأول لتنظيم الحياة العقلية والخلقية والروحية وإظهار الدعوة إلى الله وتقرير قواعد أولية وأساسية لبناء المجتمع.

وإذا كان القرآن الكريم قد أطلق عليها إسم (صحف) فلأنها أخرجت إلى الناس في عصر حديث عهد ببناء الدولة وتنظيم المجتمع على النحو الذي ارتضاه الله لعباده. إنها لم تبلغ مستوى الكتاب الذي أطلق على التوراة والإنجيل والقرآن. وكما أن الفرق بين مجتمع إبراهيم ومجتمع العصر الحديث هو (فرق في الدرجة) لا في الجوهر والطبيعة فإنّ الفرق بين صحف إبراهيم والكتب هو (فرق في الدرجة) لا في الجوهر والطبيعة أيضاً.

والجدير بالذكر أنّ هذه الصحف قد ضاعت بمرّ الأجيال والقرون لكنّ جوهر الدعوة فيها لم يضع بل تكرّر ظهوره على صورة أكثر استيعاباً لقضايا الناس وبتنظيمات أكثر تعقداً في الكتب السماوية التالية.

وها هو كتاب الله عز وجل يروي لنا خلاصة ما جاء في صحف إبراهيم مكرراً في التوراة من بعد وهي كتاب موسى عليه السلام.

قال عزّ من قائل في سورة الأعلى: (سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (3) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (4) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (5) سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (6) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (7) وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى (8) فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى (9) سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (10) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (11) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (12) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (13) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى (14) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (15) بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (17) إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى (18) صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (19)) صدق الله العظيم.

فهل تخرج هذه الآيات الكريمة بقارئها عن الأصول الثابتة للدعوة خاتمة الرسالات التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم ؟ وإذاً فهذه الأصول هي نفسها التي جاءت على لسان إبراهيم وموسى عليهما السلام، وإذا كان هناك فرق فهو في التنظيمات اللاحقة التي فرضتها أوضاع المجتمعات البشرية من بعد.

***

وإذاً فنحن لا نأتي بجديد حين نقرر أنّ صحف إبراهيم كانت حجر الأساس للبنية الدينية التي تحققت كلّ أبعادها الأخلاقية والتنظيمية في القرآن الذي هو البنية المتكاملة لدعوة السماء في صورتها النهائية التي تستوعب حاجات البشر حتى يوم يبعثون.

إنّها، أي صحف إبراهيم، مفرق طريق كما تبين لنا ذلك من قبل وهي بالتالي الرؤية الثقافية الثابتة التي بعث بها الخالق إلى عباده وجعل منها ينبوع هداية ورحمة للعالمين.

لماذا استمرار العقوبات الزاجرة؟

لقد قلنا في الفقرات السابقة أنّ صحف ابراهيم والمنهج الذي حمله الوحي السماوي إليه كانت مفرق طريق وظاهرة تحول في تاريخ العلاقة بين رسالات السماء وبين أجيال البشر.

وتأكد لنا هذا القول بتتابع الرسالات السماوية التي جاءت من بعده في كتب مقروءة على الناس تركها أصحابها من الأنبياء والرسل من بعدهم لتكون بمثابة شواهد تعين الطريق إلى الله وتنظّم علاقات الناس بعضهم ببعض، وهذا صحيح لكنّ الوقائع التاريخية تشير إلى حدوث عقوبات زاجرة رادعة استؤصلت بها قرى أوقبائل بكاملها... وقد وقعت هذه العقوبات بعد عصر إبراهيم عليه السلام.

فهناك العقوبة التي تم بها استئصال جماعات كاملة من العباد كما حدث لقوم لوط. فقد أعلمنا القرآن الكريم بالمصير المأساوي لهؤلاء القوم في قوله تعالى في سورة هود: (قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (81) فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (82) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (83)).

ثم نجد بعد ذلك مباشرة قصة الحوار الذي جرى بين النبي شعيب وقومه في عدد من الآيات من سورة هود نفسها. وهو الحوار الذي قصد به النبي إلى تحذير قومه وتذكيرهم بما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح من قبله... وينتهي إلى القول: (وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ) حتى إذا استنفذ كلّ المحاولات الهادفة إلى تحذيرهم ويئس منهم أصاب القوم مثل ما أصاب من قبلهم فنجد ابتداء من الآية 94 من سورة هود نفسها قوله تبارك وتعالى: (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (94) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (95)).

***

لماذا بقيت المعجزة الرادعة التي يجري بها استئصال الكفار المعاندين المكابرين أسلوباً من أساليب تعامل السماء مع البشر بعد الذي شاهدناه من اقتصار المعجزة في عصر إبراهيم على تخويف المخالفين وإدهاشهم وهم الذين استمرّوا على عنادهم وأقاموا على كفرهم؟

أليس في هذه الظاهرة ما يتعارض مع ما قررناه من أنّ رسالات السماء قد انطلقت بعد عصر إبراهيم عليه السلام بخطة جديدة في التعامل مع الناس غير الخطة التي ظهرت في عصر نوح عليه السلام من قبله؟

الجواب عن هذا التساؤل نجده في تاريخ الحضارات البشرية. صحيح أنّ الحوار الهادف إلى الإقناع والمستوعب لمستويات متعدّدة من الجدال قد تميزت به رسالة أبي الأنبياء، لكنّ الثابت أيضاً أن التحولات والتطورات التي تتعاقب على امتداد القرون ليست على درجة واحدة في شعوب الأرض كلّها. وها نحن أولاء نجد في القرن العشرين سلماً من المستويات الحضارية تبدأ من المجتمع البدائي بحضارة معينة وتنتهي إلى مجتمع آخر يقف في قمة السلم بحضارة معينة أيضاً. ومن الطبيعي رغم كلّ الإنجازات الحضارية التي نشهدها اليوم أن يختلف التعامل مع الشعوب والقبائل باختلاف الطبائع والثقافات الشائعة عندها.

وإذاً فقد وجب أن نخرج من هذه الظاهرة برؤية إعلامية تربوية تقرر ضرورة الاستعانة بالأساليب التربوية العنيفة في بعض الأوقات رغم دخول البشرية في عصر الحوار العقلي.

إنّ الثابت حتى اليوم أن المجتمعات البشرية تمثل سلّماً طويلة ذات درجات كثيرة متفاوتة في حجم استيعابها لمنجزات الحضارة... ولا شك أنّ استمرار المعجزات العنيفة الرادعة إلى جانب الحوار العقلي والأساليب المتعدّدة للدعوة إلى الله هو دليل على رؤية إعلامية سماوية تتفق مع السنن والقوانين التي فطرت عليها طبائع البشر.

لقد قضت سنن الله عز وجل أن يستمر التعايش بين مستويات متباينة جداً من الكائنات المخلوقة في عالم الإنسان بخاصة والحيوان بعامة وكما أنّ ميدان الحياة حافل بمئات الآلاف من أنواع الكائنات الحية التي تمثل سلسلة لا تكاد تنقطع من سلم الحياة المتصاعدة فإنّ ميدان النشاط الإنساني بالذات هو أيضاً حافل بأنواع من الأنشطة لا يزال علماء الإنثروبولوجيا (الإنسان) حتى اليوم يجدون معه صعوبة بالغة في رسم خط بياني للمستويات المتعددة والمتباينة للمجتمعات البشرية.

إنّ استمرار المنهج الخاص الذي ارتضته الحكمة الإلهية في التعامل مع عناد بعض الناس أو أكثرهم ومع مكابرتهم في مواجهة رسالات السماء في عصر ما قبل إبراهيم الخليل عليه السلام وما بعده وهو المنهج الذي يزاوج الدعوة إلى الوحدانية مع إنزال العقوبات الرادعة بالمعاندين، لا يتعارض أبداً مع الخطة التي ارتضتها الحكمة الإلهية نفسها في التعامل مع نوع معين من البشر بأسلوب الحوار المنطقي وبالاعتماد على موازين الفطرة الإنسانية واستعدادها لاستيعاب رسالات السماء.

الصورة الإعلامية حتى ذلك الوقت...

والشيئ المتفق عليه أنّ رسالات السماء التي تعاقبت قبل ظهور الدعوات الدينية الكبرى المتمثلة في موسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم هو أنّ هذه الرسالات قد طرحت رؤية واضحة المعالم في تعامل السماء مع البشر وفي تقرير أساليب ووسائل متعددة في التأثير على العقول والقلوب. وتتكون هذه الرؤية من العناصر التالية:

1- عنصر المناداة بالوحدانية باعتبار أن القضية الكبرى التي تطرحها رسالات السماء هي قضية الإيمان بإله أحد صمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد... وأنّ هذا الإله لم يخلق البشر وكلّ الكائنات الواعية إلا لعبادته. فقد قال تبارك وتعالى في سورة الذاريات: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (56) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (57)). وإذاً فلا رسالة دينية حقيقية ما لم تكن رسالة الإيمان بالوحدانية والدعوة إلى عبادة الله عز وجل الخالق البارئ الذي لا شريك له في ألوهيته. يكفي أن نستشهد بقوله عز وجل (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ). وإذاً فإنّ الخط الفاصل الأساسي بين الفوز والخسارة في جنب الله هو هذا الإيمان وحسب.

والملاحظ أن توكيد الوحدانية في الألوهية قد تكرّر على صور متعدّدة وبأساليب متباينة نورد بعضها فيما يلي:

أ) الإعلان عن الإيمان بالوحدانية هو حقيقة شهدت بها فطرة البشر قبل مولدهم. كما في قوله عز وجل: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ)[1]

ب) توكيد الهيمنة الربانية على السماوات والأرض والإنكار على من يعبد ألوهيات مزيفة منسوبة إلى الكواكب والنجوم.

ورد هذا المعنى فيما رواه الوحي السماوي عن خضوع السماوت والأرض لإرادة الله وأوامره في قوله تبارك وتعالى: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)[2].

1 . الآية 172 من سورة الأعراف

2 . الآية 11 من سورة فصلت.

ج) إثبات العبودية لله عز وجل في عالم الجماد كلّه بما فيه الجبال والبحار والأنهار والحجارة الصغيرة والأشجار وأنواع النباتات كلّها كما في قوله عز من قائل: (تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا)[1]

إنّ قوله (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) إعلان عن خضوع كلّ الجمادات والكائنات غير العاقلة له وتسبيحها بحمده عز وجل وإن لم ندرك هذا التسبيح.

د) أمّا الأسلوب الرابع الذي تتحدى به رسالة السماء كلّ الألوهيات المزيفة وأنواع الشرك فهو الذي وجه فيما بعد إلى المسيح عليه السلام على صورة الاستفهام الإنكاري فيكون جواب المسيح عليه السلام بمثابة شهادة دامغة على تبرؤ النبي ممن نسبوا إليه صفة الألوهية... قال تبارك وتعالى في الآية 116 من سورة المائدة: (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ).

2- عنصر التهديد بالعقوبة الزاجرة التي لا تبقي ولا تذر وهو العنصر الذي لعب دوراً كبيراً وأساسياً في تأديب المعاندين وردعهم على امتداد عدد القرون فرضته العقول الغليظة والقلوب القاسية التي هي أقسى قسوة من الحجر نفسه. وقد نزلت هذه العقوبة كما ألمحنا من قبل في أقوام نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم من قدماء الأنبياء. وقد تمّ وقوع هذه العقوبة بأساليب مختلفة منها:

أ) بتوجيه الدعاء بذلك من قبل النبي نفسه كما فعل نوح عليه السلام إذ قال: (رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (27))

ب) بتخويف النبي لقومه وإنذارهم وتحذيرهم من إنزال العقوبة الصارمة بهم كما فعل النبي صالح إذ حذر قومه ثمود من عقر الناقة فلم ينتصحوا بنصحه كما قال تعالى في سورة الشعراء (فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ (157) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ)... أو كما فعل لوط مع قومه فحذرهم من الاستمرار في إتيان الرذائل وارتكاب الموبقات، وعندما يئس منهم دعا ربه أن ينجيه وأهله مما يعملون فنجاه الله وأهله ثم أخبرنا الوحي بما صار إليه أمر القوم في قوله تعالى في سورة الشعراء: (ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (172) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (173)).

1 . الآية 44 من سورة الأسراء.

أو كما فعل شعيب مع أصحاب الأيكة فقد حذرهم من السرقة والاعتداء على حقوق الآخرين وألح عليهم أن يزِنوا بالقسطاس المستقيم... لكنّ قومه أنكروا عليه دعوته وتحدّوه أن يعاقبهم بما كان يحذّرهم منه فلم يتوجّه بالدعاء إلى الله أن يعاقبهم بل اقتصر على القول: (رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ) وعاقبتهم السماء إذ استجابت لتحديهم في قولهم لنبيهم (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ) وإذا بهم يواجهون الهلاك الشامل حين (فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)[1]... عنصر التنويع في الحوار وطرح أساليب جديدة في الدعوة إلى الله عز وجل مع تحويل المعجزة إلى مصدر إثارة وإدهاش دون أن تكون فيها العقوبة الزاجرة... وقد سبق أن عرضنا لهذه الظاهرة من قبل وقررنا أنها ظاهرة جديدة تشير إلى تحوّل كبير في الأسلوب الذي اتخذته السماء مع فريق يفترض أن يكون الفريق الرائد بين بشر ذلك العصر رغم استمرار القاسم المشترك بين الجميع وهو العناد والمكابرة وعلى ذلك فلا ضرورة للعودة إلى هذا الموضوع مرة ثانية.

***

حتى هنا نكون قد كونا صورة عن مرحلة من مراحل الدعوة إلى الله كانت فيها رسالات السماء تستند في الأساس إلى خطة الردع التربوية بأشدّ أنواع العقوبات لكنها في شخص أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام لم تلبث حتى لجأت إلى أسلوب خاص كان بمثابة الإعلان عن عصر جديد تعتمد فيه الدعوة إلى الله خطة متجاوبة مع مجتمعات بلغت مستوى أرفع من مستويات الإدارك العقلي. وخلاصة القول أنّ شجرة النبوة النازلة من إبراهيم عليه السلام قد أعتمدت أكثر فأكثر جانب الإعلام التعليمي ولجأت إلى قدر أكبر من المحاكمات العقلية في الوقت نفسه الذي تميزت فيه المعجزات المادية بنتائجها التعليمية أكثر منها بنتائجها العقابية الزاجرة المدمرة. وفي هذه الظاهرة مايشير إلى تطوير إيجابي في مستويات الوعي البشري وبالتالي في مستويات الوعي الحضاري.

***

والجدير بالذكر أنّ الوحي السماوي قد علمنا بأنّ العقوبات الزاجرة التي كانت تنزل بالأقوام في عصور متقدّمة هي ردّ على عدد من الجرائم الخلقية إلى جانب الجريمة الكبرى التي هي الشرك بالله أو الإلحاد به. والمثل على ذلك:

أ) أنّ قوم صالح قد استهانوا بحرمات الله حين عقروا الناقة.

1 . انظر سورة الشعراء ابتداء من الآية 142.

ب) وأنّ قوم لوط قد استهانوا بالقيم الخلقية حين أقدموا على ارتكاب الرذائل متمثلة بالشذوذ الجنسي.

ت) وأنّ قوم شعيب قد استهانوا بحقوق الآخرين فلم يتردّدوا في السرقة بتطفيف الموازين.

وبذلك تكون دعوات السماء قد أخضعت للعقوبة الزاجرة ليس فقط الفريق الذي يشرك بالله بل أيضاً الفرقاء الذين يرتكبون الموبقات المتعارضة مع سلامة المجتمع البشري.

هكذا تكون رسالات السماء في تلك العصور السحيقة قد استوعبت بأساليبها التي اتخذتها في التعامل مع البشر كلّاً من الدعوة إلى عقيدة الوحدانية والدعوة إلى الاستقامة في التعامل مع الآخرين وهي التي تستوعب احترام الحرمات المقرّرة والنظافة الخلقية المتمثلة في ميدان الجنس ثم النظافة الخلقية المتمثلة في ميدان التعامل المادي.

***

يضاف إلى ماسبق أنّ الإعلام المتمثل في الرسالات السماوية قد علم البشرية آنذاك شيئا آخر وجعل منه درساً لكلّ البشر في كلّ العصور حين قرر بأساليب متعدّدة وفي وقائع مختلفة أنّ الالتزام لأوامر الله ونواهيه، التي لا تصدر إلا في ضوء الحق، يجب أن يكون فوق كلّ ولاء وأقوى من كلّ انتماء وأقرب إلى القلوب من كلّ صلة حتى الأبوة والنبوة وعلاقات الزواج وهي أقوى وأشد ما غرس في نفوس الناس من العلاقات والصلات.

- فهذا نوح عليه السلام يتعلّم من ربه درساً لا ينساه أبداً حين يتوجه إليه بالدعاء لمصلحة ولد له قال الله حين ذكر نوح ولده في قوله تعالى في سورة هود: (وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ(45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ).
- وهذا إبراهيم عليه السلام في الآية 74 من سورة الأنعام يتمرّد على أبيه ويرفض موافقته على ضلالته التي رضيها لنفسه يقول تبارك وتعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ).
- وهذا لوط عليه السلام يتعلّم من ربه أنّ الولاء لله والالتزام للقيم الخلقية المتمثلة في أوامر الله ونواهيه يهيمنان على كلّ التزام أو ولاء غيرهما، يدخل في ذلك الولاء للزوجة. وذلك فإنّه لم يتردّد في الإذعان لقضاء الله وقدره حين استثنيت

زوجته من أهل الناجين من عذاب الله فكان مصيرها كمصير من كانت تشاركهم في المكابرة واقتراف الموبقات.. نجد هذه الحقيقة في قوله عز وجل في سورة الشعراء: (فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (170) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (171)).

وورد في آية 83 من سورة الأعراف قوله تعالى: (فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ).

هكذا تتهاوى كلّ الحدود غير حدود الله... وتسقط كلّ الانتماءات باستثناء الانتماء إلى الله.

خلاصة

طرحنا في الصفحات السابقة بعض الوقائع التي وردت في كتاب الله وحاولنا من خلالها أن نضع رسماً بيانياً لهذه الوقائع يساعدنا على تحقيق رؤية معينة بطبيعة التعامل بين الله وعباده من البشر في فترة معينة من فترات التاريخ. كما مهّدنا لهذا الرسم البياني بالتحدّث عن أبي البشر آدم عليه السلام لا باعتباره نبياً مرسلاً إلى الناس ولا ناس في عصره كما نعلم بل باعتباره نموذجاً للبشري الذي جاء خليفة في الأرض... وفيما يلي نوجز مقومات هذا المخلوق المستخلف في الأرض كما نوجز الخطوط الرئيسية لظاهرة التعامل بين الله وعباده حتى قبيل العصر الموسوي.

1- تفضيل آدم على المخلوقات تفضيلاً استحق به بأمر من الله سجود الملائكة له.
2- أقدم آدم على حمل الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبَين أن يحملنها وأشفقن منها.
3- ضعف آدم أمام التجربة التي تعرض لها والتي أزله بها الشيطان كما أزلّ زوجته حواء من الجنة.
4- توبة آدم وتقبل الله لهذه التوبة منه مع استمراره في الأرض لخوض معركته التي قدرت عليه متسلحاً بأحد الخيارين أو متخذاً أحد النجدين نجد الإحسان ونجد الإساءة.
5- النموذج البشري الذي ظهر في شخص آدم هو النموذج الواقعي في أعلى مراتبه وأمثل صوره. وهذا يعني أن الأجيال التي جاءت وتجيء من بعده قد تعرضت وستبقى معرضة للتجربة التي يمنح معها أفرادها الخياران اللذان أشرنا إليهما من قبل... وتأتي الرسالات السماوية حتى ختامها بمثابة سياسة تربوية ذات وسائل إعلامية متعدّدة ومتنوّعة تعدد الأجيال وتنوّع أوضاعها النفسية والعاطفية والخلقية والعقلية.

6- ثم تأتي شخصية نوح عليه السلام برسالة سماوية ذات دور استثنائي وطابع مميز كشفت عن حاجة البشر إلى صدمات عنيفة من السماء بسبب إغراقهم في المكابرة والعناد. وقد تمثلت الصدمة الأولى في معجزة الطوفان التي أغرقت قوم نوح باستثناء المؤمنين والمؤمنات الذين حملهم معه الفلك.

7- تكرّر لجوء السماء إلى توسل العنف المدمر في مواجهة العناد والمكابرة عند أقوام جاءتهم الأنبياء قبل عصر إبراهيم الخليل وبعده.

8- تميّز نبوة إبراهيم الخليل بالحوار المتطور والمتنوّع إن مع الكواكب والقمر والشمس أو مع أبيه وأهل قريته أو مع صاحب الملك أو مع الله عز وجل. وقد تبيّن لنا أنّ الحوارات الثلاثة الأولى قد مثلت ثلاثة مستويات أو ثلاثة أنواع من الحوار العقلي وكان الثاني والثالث منها عاجزين عن التغلّب على روح المكابرة والعناد عند الناس العاديين وعند صاحب الملك بينما كان الحوار الأول مدخلاً للإيمان بالله وتوكيد وحدانيته. أما الحوار الرابع فهو بقصد إدخال المزيد من الطمأنينة إلى قلب المؤمن.

9- علّمتنا الوقائع الواردة في كتاب الله حول تلك الفترة أنّ الخضوع لأمر الله والولاء لذاته عز وجل مقدّمان على كلّ ولاء ومهيمنان على كلّ ارتباط أو قرابة... فهذا نوح يتلقى أمراً بإهمال ولده العاصي، وهذا ابراهيم يتمرّد على أبيه الوثني، وهذا لوط يترك زوجته العاصية ويخلفها وراءه... وهو درس نتعلم منه أنّه (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق) ولا موالاة له مهما تكن درجة القرابة منه حتى ولو كان ولداً أو أباً أو زوجة.

10- يستفاد من استمرار المعجزات العنيفة المدمرة رغم تميّز العصر الإبراهيمي بظاهرة الحوار المنظم والمتنوع وبخلوّه من الانتقام الإلهي المدمّر أو التحوّل التاريخي للمجتمعات البشرية لا يتمّ مرة واحدة وعلى درجة واحدة فيها كلّها بل تتفاوت السرعة في هذا التحوّل بتفاوت الوعي عندها، وهذا هو الذي يفسر تدخل الإعلام الحواري مع العقوبات في الدنيا وهي نوع أخر من الإعلام السماوي وطريقة في تعلم البشر وتوعيتهم. ففي هذه العقوبات كما جاء في كتاب الله (لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ).

11- أنّ تتابع العقوبات الإلهية الزاجرة والمدمرة دليل واضح على تجمّد العقول وقسوة القلوب وتخلّف هذه وتلك عن التفاعل مع خطة الحوار الهادف إلى إيقاظها على وحدانية الله وسلطانه وبذلك كانت الشدّة في التعامل مع بشر تلك الفترة التاريخية ضرورة إعلامية تربوية في الوقت نفسه الذي ظهرت فيه تباشير العصور التي اتخذت فيها المحاورات والمعجزات وجوها جديدة لم تكن لها من قبل.

12- الإعلان عن طبيعة العلاقة الحقيقية بين الله وبين مخلوقاته كلّها. وتأكيد أنها موصولة بإرادة الخلق عند الخالق عز وجل. وأنّ هذه لجأ ويلجأ الإنسان إليها لتفسير ظاهرة الخلق. وتبدو لنا فعالية الإرادة الإلهية في إخراج المخلوقات من العدم إلى الوجود، في الحوار الرابع الذي جرى بين إبراهيم الخليل عليه السلام وبين الله حين طلب النبي من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى فكان ما عرفناه من قصة الطيور الأربعة وعودتها إلى الحياة بعد الموت. هكذا تبدو لنا ظاهرة المعجزة في منهج الفلاسفة العقليين حين أصرّوا بعد ذلك على وضع تصور مفتعل لعلاقة الله بالكون وحاولوا أن يعطوا العقل صفة الألوهية إذ اعتبروا الله عقلاً مطلقاً لا حدود له ونسبوا إليه صفات نزعت عنه ملكة الاختيار والإرادة الحرة كما هو شأن أرسطو من بعد. كما يبدو لنا تهافت الوضعيين الذين أصروا على أن يعتبروا الطبيعة علّة للخلق فوقعوا في المحالة والتناقض ونزلوا بالذات الإلهية إلى مستوى العلاقات الفيزيقية والكيميائية بينها وبين المخلوقات. ومثل ذلك فيما يتعلّق بالماديين الغربيين على اختلافهم الذين استعانوا بفروضهم النظرية لمحاربة الكنيسة التي قاومت حق الإنسان الطبيعي في التفكير وحرية الإرادة في التعامل مع كلّ المخلوقات وفي حدود الحقائق والتصورات الإلهية الثابتة التي ضاعت في متاهات التصورات الكنسية خلال القرون الوسطى.

***

وخلاصة القول في العلاقة القائمة بين الله تبارك وتعالى وبين ظاهرة الخلق التي تعلمناها من حوار إبراهيم مع ربه والطلب إليه بأن يريه كيف يحيي الموتى، هو أن الإرادة الإلهية هي واحدة من الحقائق الثابتة التي لايستطيع الإنسان أن يدرك الدور الحقيقي لله عز وجل وأن يتصرف بعقله دونها. فالعلاقة بين الله والكون المخلوق ليست علاقة منطقية بمفهوم أرسطوولا هي علاقة وضعية بمفهوم أوغست كومت صاحب الفلسفة الوضعية وحسب بل هي علاقة الخالق بالمخلوقين أيضاً. فبالإرادة الإلهية تخرج الأكوان من العدم وبها يخرج الحي من الميت والميت من الحي وهي بذلك تتجاوز في أبعادها المهارات والطرائق المنطقية لتصبح من مدركات الوعي فوق العقلي وهو الذي يصنع الإيمان... أما التخيلات النابعة من الإدراك الحسي فهي التي تصنع الأساطير والفلسفات.

رفع قواعد البيت

أمّا وقد أدركنا المقومات الأساسية التي كشفت عنها وقائع الرسالات السماوية حتى قبيل العصر الموسوي فإنّ في تاريخ النبوة الإبراهيمية معالم جديدة تساعدنا على تكميل الرؤية الإعلامية التي جاءت بها هذه الرسالات المقدّسة.

الثابت كما جاء في كتاب الله أن إبراهيم عليه السلام قد غادر مسقط رأسه في جنوب العراق إلى بلاد الشام ومصر ثم انتهى به المطاف إلى وادي مكة حيث أخبرنا الله تبارك وتعالى أنه رفع فيه قواعد البيت الذي هو أول بيت وضع للناس مستعيناً بولده إسماعيل.

يقول الله تبارك وتعالى في سورة البقرة: (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129) وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (130) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (131)).

وهنا نتساءل: لماذا توجّه إبراهيم عليه السلام إلى وادي مكة ورفع القواعد من البيت مستعيناً بولده إسماعيل؟ هناك أكثر من تفسير واحد لما جاءنا به كتاب الله:

1- قوله تبارك وتعالى في سورة آل عمران: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (96)) وإذاً فرفع القواعد من هذا البيت يعني عملية إحياء لرسالة السماء بوضع حجر الأساس لمرحلة جديدة من مراحل التعامل بين السماء والبشر. وهو توكيد لمركزية العبادة التي ترمز إلى سلطان الله وهيمنته على عباده. ولم تجر عملية رفع القواعد إلا بعد أن تلقى إبراهيم عليه السلام كلمات من ربه فاستعدَّ لتعيين الأبعاد الحقيقية للدعوة إلى الله. وقد تحدّث القرآن الكريم عن هذا التوجيه التمهيدي فقال عزّ من قائل:

2- (وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) الآية 124 من سورة البقرة. وبتمام هذه الأهبّة التي أدرك بها إبراهيم عليه السلام أبعاد رسالته حدّد الله سبحانه وتعالى المكان الذي يستقطب عبادة البشر ويشدّهم إليه وقرر أن يكون مثابة للناس وأمناً، وانطلق

إبراهيم نفسه بالمطالب التي قدر في سابق علمه أن يحققها لهذا المكان فقال تبارك وتعالى في الآيتين 125 – 126 من سورة البقرة:

3- (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (125) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (126)).

***

حتى هنا تكون العناية الإلهية قد أضافت إلى مفهوم الإيمان والمحاورات التي تنتهي إلى تحقيقه منسكاً مهمته طرح وسيلة عملية ترمز إلى وحدة العقيدة وتوحيد صفوف المؤمنين بتعيين منسك مشترك لهم.

والجدير بالذكر أنّ الإعلان عن أنّ بيت الله في وادي مكة لم يتم إختياره عبثاً... ولم يكن توجّه إبراهيم عليه السلام إليه بمحض الصدفة بل هو تدبير من لدن حكيم خبير، قصد إلى إثبات أنّ بيت الله في وادٍ كوادي مكة لا زرع فيه ولا ضرع تلفحه حرارة الشمس اللاهبة في أكثر أيام السنة، قادر على تكوين مركز إشعاع روحي، وبالتالي صالح لتكوين مركز استقطاب لقلوب المؤمنين وعقولهم. فاختيار البيت الحرام في وادي مكة هو جزء من العملية التربوية السماوية التي تزود المؤمنين بما يحتاجون إليه من حرارة العقيدة وتوفير المنافع لهم. أو كأنّ الذات الإلهية قد أرادت أن تجعل من أرض مكة الصخرية التي تحيط بها هضاب بركانية لا تسقط العين منها إلا على صور ومشاهد كآبية متجهّمة، أشار إلى أنّ الدنيا في حقيقتها ونوازع الشهوات فيها لا تتجاوز في قيمتها تلك الأرض الصخرية العارية. وليس هذا وحسب فقد تعهّد الله عز وجل بأن يجعل منها أرضاً ومثابة للناس وأن يوفر لأهلها الرزق والثمرات التي يحتاجون إليها وقد وفى الله بوعده والله لا يخلف الميعاد.

ومما يلفت النظر أنّ وادي مكة يقع في جزيرة صحراوية قاحلة في الجزء الأكبر منها... قليلة موارد العيش بالمنطق الذي يتعارف عليه الناس. ومع ذلك فقد وجدت هذه المدينة في كلّ عصر من العصور بعد ذلك وسيلة لتوفير أسباب الطمأنينة والحصول على مصادر الرزق لكأنّ وجودها التاريخي واستمرارها مركز عبادة للمؤمنين حتى يومنا هذا علامتان على الطاقة الاستثنائية التي تتميز بها العقيدة والتي تستقطب بها هذا العقيدة قلوب الملايين من المؤمنين المنتشرين في أقطار الأرض كلّها.

مركزية الجزيرة العربية

ولو أننا قلبنا النظر قليلا في التحركات البشرية في الجزيرة العربية ووضعنا خطاً بيانياً لها لتبيّن لنا أنّ الجزيرة مصدر لا ينقطع لأفواج متلاحقة من البشر. فهي لا تضمّ فقط مركز إشعاع روحي يتمثل في البيت الحرام من وادي مكة بل يؤكد لنا تاريخنا وطبيعتها الجغرافية البشرية أنها الينبوع الذي يخرج إلى الدنيا من حولها هجرات بشرية كان لكلّ منها ولا يزال دور بالغ الأهمية في بعث النهضات الحضارية حتى مسافات شاسعة بعيدة عنها ولا سيما في البلدان المحيطة بالجزيرة. فهي إذاً مستودع بشري كبير تتزوّد منه الأقطار المجاورة والبعيدة، وفي دورات تاريخية متتابعة، بالعناصر البشرية. ولنا في الأصول البشرية للحضارات القديمة حتى يومنا هذا ولا سيما الأصول الخاصة بالحضارة الإسلامية ما يؤكد الدور الإيجابي الذي قامت وتقوم به الجزيرة حتى اليوم.

ولولا خروجنا عن الموضوع لتحدثنا مطولاً عن الحضارات التي نشأت في ظل هذه الهجرات الواسعة التي تمت إما لأسباب تتعلق بالانفجار السكاني أوتحت تأثير كوارث وضرورات اقتصادية. وكلّما كادت الصلة تنقطع بين هذه الجزيرة وبين الشعوب التي تعود إليها في أصولها التاريخية تجددت هذه الصلة على صورة من الصور التي يعرفها المؤرخون. وها نحن اليوم نعيش في فترة من التاريخ تتجدّد فيها الصلة بين الجزيرة العربية وبين الأقطار العربية كافة في المشرق والمغرب،كما تتجدّد بينها وبين الشعوب الإسلامية المترامية في أطراف الأرض. فالله أعلم حيث يجعل رسالته ضمن قوانين وسنن لا تتغيّر ولا تتبدّل.

***

هكذا أصبح البيت الحرم في وادي مكة ذا وظيفة إعلامية بالنسبة لكلّ المؤمنين في المشرق والمغرب، وهكذا أيضاً بدت الجزيرة بتحركاتها السكانية الظاهرة والخفية الموقع البشري الذي يرفد ما حوله بالأفواج المتلاحقة من المهاجرين.

لا مصادفات

وإذاً فليس اختيار البيت الحرام بيتاً أوّلَ لله يوضع للناس، وليس وجود وادي مكة في منطقة تقوم بدور المستودع البشري... وليس تجدّد الصلات مع العالم الخارجي والناجم عن المصدرين الروحي والبشري نوعاً من المصادفات. لقد كان هذا الاختيار بسبب من الدور الإيجابي الذي يقوم به التطابق بين مركزية العبادة وبين مركزية التواصل البشري. ولا عجب في ذلك فقد

كشفت الملاحظات والتجارب عن وجود تقديرات دقيقة جداً في كلّ ظاهرة من ظاهرات الخلق بحيث يتم بينها، ابتداء من أدق الكائنات حتى أكبرها، تناسق وتكامل لا ينهض لهما غير تدبير خالق حكيم.

العلماء كلّهم متفقون على تحقّق ظاهرات التناسق والتكامل وعلى وجود التلازم الشامل بين كلّ الأشياء وهي أظهر ما تكون في الكائنات الحية ولا سيما في الطبقات العليا منها خاصة طبقة الإنسان.

يؤكد هذه الحقيقة ما ورد في كتاب الله عز وجل من إشارات موحية بها ومن دلالات تعلن عن ملازمة ظاهرة الشمول والتناسق بحساب دقيق بين كلّ شيء قال عز وجل:

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) سورة القمر: الآية 49

(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) سورة الفرقان: الآية 2

(وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ) سورة الرعد: الآية 8

(الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ) سورة طه: الآية 5

خامة روحية وبشرية

مرة أخرى نعود إلى قوله تبارك وتعالى في سورة آل عمران: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (96)) والعودة هنا تتمّ في ظلّ قوله عز وجل وبوحي منه: (فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ* ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ) الآية 3-4 من سورة الملك، أي نحن نعود إلى هذا النص المتعلق بالبيت الحرام والمكان الذي اختير له في سابق علم الله. فإذاً اختيارات الله عز وجل دقيقة متكاملة بها وحدة البناء الكوني: لقد وجب أن يكون للبيت الحرام وللمكان الذي اختير له دور إعلامي خاص، وبتعبير آخر دور تربوي إلى جانب الأدوار الإعلامية والتربوية التي واجهتنا في تصرفات الأنبياء والرسل خلال أقدم فترات العصور النبوية.

وإذا كان هناك فرق بين أدوار القدماء من الأنبياء وبين الدور الذي قام ويقوم به البيت الحرام ففي أنّ أدوار القدماء من النبياء كانت مشروطة بعصور معينة وموقوفة على أجيال معينة من الناس، أما دور البيت الحرام الذي أقدم إبراهيم عليه السلام على رفع قواعده مع ولده اسماعيل فهو دور مستمر يقوم بمهمة إعلامية تربوية خطيرة تبدولنا اليوم أقوى ما تكون وأوضح وأقدر بمرور الزمن على استقطاب المزيد من حجاج بيت الله الحرام ولا سيما حين نعلم أن عدد الحجاج الذين تلاقوا في موسم عام 1399 قد تجاوز المليون من الرجال والنساء... كما يشير الرسم البياني الممتد منذ عدد من السنين وهو رقم في خانة ينتظر أن تعلوه أرقام أكبر وأعظم في السنوات القادمة.

وإذاً فالبيت الحرام بما يرمز إليه، ومن خلال النص القرآني الذي استشهدنا به يمكن أن نعتبره واحدة من أعظم الظاهرات الإعلامية التربوية التي تقرر اعتمادها في سابق علم الله بحيث تصبح مورداً لا ينقطع للخامات الروحية، إن صحّ التعبير، للأجيال البشرية كلّها... تماماً كما أنّ الجزيرة العربية نفسها قد قدر لها بسابق علم الله أن تكون المورد الدائم لأفواج متتابعة من البشر تتّجه بنظام ثابت وفي فترات معينة وفي ظلّ نظم اقتصادية اجتماعية نحوالعالم الخارجي تقديراً من عزيز حكيم.

***

هذا وقد أثبتت الوقائع التاريخية بأنّ ضعف العلاقة بين الجزيرة العربية وبين الأقطار الخارجية ابتداء من الأقطار العربية بالذات هو دلالة على جمود الحركية في المسيرة التاريخية لرسالة السماء، وبالتالي للحضارات البشرية النابعة منها. وليس ما يجري

في الربع الأخير من القرن العشرين غير الدليل على التلازم القوي بين الديناميكية الإسلامية بعامة والتواصل البشري بين الجزيرة العربية بما حولها بخاصة، بغض النظر عن الأسباب العارضة أو الأصلية للعلاقة الحضارية بين هذه الأطراف كلّها.

إنّ كلّ شيء في تاريخ الحضارات البشرية يؤكد بأنّ ما أقدم عليه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام من رفع قواعد البيت هو أمر نابع من تقدير إلهي مدبر حكيم ذي أغراض إعلامية تربوية هي اليوم أوضح منها في كثير من فترات التاريخ الماضية. (سنعود إلى مناقشة هذا الموضوع في فصل لاحق).

ملاحظات أخرى

ومما يلفت النظر أنّ خط السير الذي اتخذه إبراهيم الخليل عليه السلام ابتداء من قريته (أور) في جنوب العراق حتى مصر بكلّ ما يرمز إليه القطر العربي المسلم من أبعاد إفريقية، قد رسم شبه دائرة حول صحراء الجزيرة، لكأنّه بعد هذه الجولة وبعد انتقاله إلى وادي مكة وقيامه برفع القواعد من البيت بأمر من الله عز وجل قد طرح على صورة من الصور الشروط المصاحبة لاستمرار حركة الحياة بجانبيها المادي والمعنوي أي لاستمرار حركة الحياة كما أرادتها العناية الإلهية. وهي كما نعلم حركة تصنعها ظاهرات التناقض والتكامل في الوقت نفسه بين العالم المترامي الأطراف وبين الجزيرة بعامة ووادي مكة بالذات.

***

إنّ وادي مكة ومجاله الصحراوي من حوله هما من الناحيتين الجغرافية والحضارية نقيضان لكلّ الأقطار العربية التي تحيط بهما، بالإضافة إلى أنّ الأقطار التي تعربت بعد ظهور الدعوة الإسلامية تمثل في بنيتها الجغرافية والحضارية مثل البنية التي تتمثل في الجزيرة العربية وما حولها. إنّ أي نظرة سريعة إلى العالم العربي الواسع تؤكد ظاهرة التفاعل المستمر بين الصحراء والواحات العملاقة التي هي الأقطار العربية بالذات. (انظر الفصل الأخير من فصول الإعلام القرآني).

إعلان الإسلام ديناً للبشر

والجدير بالذكر أن رفع قواعد البيت في وادي مكة كان إيذاناً بالإعلان عن تكامل الدعوة إلى الله في جانبيها العقدي والتعبدي. إنّ الآيات الواردة على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام والتي تدلّ على أنهما قد ردّداها بعد الانتهاء من رفع قواعد البيت، هذه الآيات تبدولنا وكأنها إعلان عالمي للرؤية الدينية التي ارتضاها الله عز وجل لعباده.

فها هما إبراهيم وإسماعيل يدعوان ربهما أن يتقبل منهما عملهما الذي قاما به، وأن يجعلهما مسلمين له وأن يهبهما ذرية مسلمة وأن يبارك في هذه الذرية ويرسل فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آيات ربهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكي نفوسهم. قال تبارك وتعالى:

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (127) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (128) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (129)). الآية 127 حتى 129 من سورة البقرة.

***

والجدير بالذكر أنّ الرسالات السماوية التي تعاقبت بعد ذلك في أشخاص الرسل والأنبياء حتى محمد صلوات الله وسلامه عليهم هي توكيد للرسالة الكاملة التي جاء بها إبراهيم عليه السلام... وإذا كانت هناك فروق أو تحولات فهي موصولة بالتحولات الحضارية والشروط التاريخية التي قدرت العناية الإلهية أن تبلغ بها الدعوة تمامها مع رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ومع القرآن الكريم. نجد مصداق ذلك في قوله عز وجل: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ۚ). الآية 3 من سورة المائدة.

وفي ضوء هذه الفروق والشروط التاريخية وهي تنوّعات جانبية، نستطيع أن نستبين الأساليب الإعلامية المتعدّدة التي استعانت بها دعوات السماء في حواراتها مع الأجيال المتتابعة... وهي في تنوّعها تقصد إلى تقرير الحقيقة الخالدة الثابتة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ومن خلفها. إنها حقيقة الوحدانية. وليست الأوامر والنواهي وما تعاقب من المحللات والمحرمات غير تعبير عن قصة التطور البشري في مراحله التربوية والاجتماعية والاقتصادية الهادفة إلى تعميق العقيدة في النفوس وهي جوهر الدعوة إلى الله والتصوّر الكبير الذي تنبثق منه كلّ التصوّرات الدينية الأخرى.

توضيح:

وقبل أن ننتقل إلى المرحلة التي تلت عصر النبوة الإبراهيمية نلفت النظر إلى ظهور جماعة دينية من مسلمي الهند أطلقت على نفسها اسم (جماعة الدعوة إلى الله)، هذه الجماعة تزعم فيما انتهى إلينا من بعض أفرادها الذين أقاموا فترة من الزمن في الكويت بأنّ مكة والمدينة لم تعودا صالحتين للقيام بدورهما الروحي. وقد فاجأتنا هذه الدعوة ووجدنا فيها محاولة غير

محمودة لتجاهل ما قدره الله في سابق علمه وما أعطاه التاريخ شرعيته وأثبت فاعليته رغم كلّ المتاعب التي واجهت دور البيت الحرام ووضعته من العراقيل أمامه.

فالله أعلم حيث يجعل رسالته... فهو الذي يختار لها البيت الذي يحقق وحدة المؤمنين بها... وهو نفسه الذي يختار لها الأرض الصالحة لانتشارها... وهو عز وجل الذي يعلم علم الناس الذين يعيشون حول البيت الحرام بأكثر مما نعرف. فإذا كان البيت الحرام في مكة أول بيت وضع للناس منذ فجر تاريخهم... وإذا كان البيت الحرام قد نهض لمسؤولية العبادة في حدود ما قدره الله عز وجل حتى اليوم وبعد تلاحق أحداث خطيرة وتعاقب المصائر المتباينة لدين الله فإنّ أي دعوة لتجاهل الدور الذي يقوم به البيت الحرام هي حرب معلنة على الله ورسوله. وخلاصة القول أنّ اختيار البيت الحرام هو اختيار للأرض الحرام واختيار الأرض الحرام هو اختيار للمجتمع الذي يتحرك فوقها... هذه الثلاثية بوحدتها وتلازم عناصرها تعلن عن المصير المشترك لعناصرها الثلاثة.

إنّ اختيار وادي مكة مقاما للبيت الحرام هو جزء لا يتجزأ من سنن الله في خلقه... وسنن الله لا تبدل ولا تغير لأنها في صميم التكوين الشامل للخلق كلّه.

ونحن على مثل اليقين من أنّ هذه الدعوة الغريبة هي واحدة من المحاولات التي قامت وتقوم بها شعوبية نابعة من الجهل أو من النفاق. أما الجهل فيقاوم بالعلم وبتدبر آيات الله عز وجل والعودة إلى ما صنعه البيت الحرام وقام به من دور ديني عظيم حتى يومنا هذا وما يبشر بالقيام به في الأزمان القادمة. وأما النفاق فيقاوم بتعرية أصحابه وفضحهم. والمنافقون هم الذين كانوا منذ فجر الدعوة الإسلامية حتى اليوم يصنعون البلبلة ويشترون الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين.

***

إنّ حرصنا على تدعيم الدور الذي يقوم به البيت الحرام نابع من إيماننا بأن وحدة الأمة الإسلامية نابعة من الحفاظ على مصدر الإشعاع الديني الأول. ومهما تضاءل التواصل الديني بمعناه الشامل بين العالم الإسلامي الواسع وبين الرسالة التي يرمز إليها البيت الحرام فإنّ البقية من هذا التواصل وهي اليوم أقوى منها في عهود سابقة، هي الضمانة الكبرى لاستمرار التراث الإسلامي الخالد في جوانبه العقدية والتشريعية والخلقية وتماسكه الاجتماعي الشامل.

والثابت أنّ دعاء إبراهيم عليه السلام ربه أن يجعل مكة بلداً آمناً وأن يوفر له أسباب الرزق وأن يحفظه من كوارث الأيام لم يكن مجرد تمنيات على الله. فالنبي (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى) فإذا ردّد هذا الدعاء فمعناه أنّ الله هو الذي أنطقه بما سبق تقديره في علمه.

وخلاصة ما طلبه إبراهيم عليه السلام هو:

1- الأمن للبلد الذي رفعت فيه قواعد البيت.

2- تجنيب أهله عبادة الأصنام.

3- توجيه قلوب الناس إليه يزورونه حاجّين أو معتمرين.

4- توفير أسباب الرزق لأهله حتى لا يغادروه.

5- توكيد أنّ هذه المطالب هي من أمر الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

فهي إذاً ليست نزوة من نزوات النبي ولا رغبة صادرة عنه لمجرد أنه وجد نفسه في أرض موحشة جرداء، ولا لمجرد أنه خائف على مصير ذريته... إنها المطالب التي تعلن بطريقة غير مباشرة عن الدور الديني العظيم الذي قدر لهذا البلد أن يقوم به ولا سيما بعد تمام دعوة الإسلام في عصر محمد عليه السلام... ولكي يتأمن هذا الدور لابد من جعل هذا البلد نقطة ارتكاز لدعوة الإسلام في العالم كلّه بتجنيب أهله عبادة الأوثان وتوفير أسباب العيش لهم.

***

كلّ هذه المعاني نجدها في الآيات 35-38 من سورة إبراهيم: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (36) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (37) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (38)).

واستجاب الله دعاء إبراهيم بإذن منه... فكان البلد الآمن وكان البيت الحرام مثابة للناس فيما بعد... أما الوثنية التي ظهرت بعد ذلك في أوثان منصوبة في البيت الحرام فهي ليست الوثنية النابعة من تراث الناس التاريخي بل هي عبادة وافدة تم

استيرادها من الخارج في فترة قريبة العهد من ظهور الدعوة الإسلامية التي هي خاتمة الدعوات السماوية... لقد كانت أشبه بالأفكار الوافدة التي تستهوي في عصرنا اليوم قطاعات من الرأي العام تشد ورائها العامة من الناس... لكنها لا تبلغ أن تكون البديل عن تراث الأمة... إنها ظاهرة طغيان أجنبي لا تلبث أن تختفي أمام نهضة جدية في صفوف الأمة.

روى الرواة أنّ قصي بن كلاب، وفي رواية أخرى أنه عمرو بن لحي، والأول منهما أحد أجداد النبي عليه السلام، وجد له قريب جداً، قد أعجبته عبادة الناس للأصنام في بلاد الشام فحمل منها صنماً إلى أهله... ثم تكاثرت الأصنام تحت تأثير العصبيات القبلية المتنافسة لا بدافع من تراث ديني عميق شكّلته الأجيال المتتابعة في الجزيرة.

ومما يلفت النظر أنّ أدب الجاهلية لم يعر الأوثان أيّ اهتمام جدي. فهي، أي الأوثان، ظاهرة غزو أجنبي انتشرت مظاهرها في غفلة من الناس، فلمّا جاء الإسلام بعد جيلين من السنين تساقطت الأصنام كما تتساقط أوراق الخريف الصفراء دون أن تعقب ذلك ردة فعل جادة في مجتمع الجزيرة العربية. أما حروب الردة التي حدثت بعد وفاة النبي عليه السلام فلم تكن ردة إلى الوثنية بل كانت إعلاناً عن سوء فهم لبعض التشريعات ولا سيما الزكاة. فهي نكسة اجتماعية وقتية لم تلبث دوافعها حتى اختفت أمام قوة الدفع التي تشتمل عليها دعوة الإسلام الموصلة بالتراث العميق لهذه الأمة.

وإذاً فالإسلام لم يكن رؤية جديدة على سكان الجزيرة العربية ولا هو ظاهرة غريبة عنهم بل هو إحياء لتراث قديم وتطهير لعقيدة قديمة تلفعت بقشور خارجية لا جذور لها عميقة في ثقافة القوم وتقاليدهم.

وليس أدلّ على ذلك من أنّ الدعاة إلى الحنيفية السمحاء قد ظهروا قبل ظهور دعوة الإسلام ومن أنّ الناس كلّهم كانوا ينتظرون من يخرجهم ويحررهم من عالم الأساطير والآلهة الوثنية. وما أسرع ما استجابوا لهذه الدعوة وحرصوا على عقيدتها وإن تردد الكثيرون منهم أمام بعض تشريعاتها المالية والاجتماعية.

لقد كان انتصار الإسلام منذ فجره انتصاراً حاسماً. وهو الدليل الذي لا يرد على أنه استمرار لرسالات سابقة جاء يجدّد هذه الرسالات ويطهرها من الفساد العارض... لقد جاء القرآن مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل. وجاء يعلن أنّ الإسلام هو دين الله الباقي الوحيد الذي حمل إبراهيم عليه السلام شعلته قبل 25 قرناً من السنين.

أفليست كلّ هذه الوقائع براهين دامغة على أن اختيار البيت الحرام هو اختيار لنقطة ارتكاز ثابتة لدين الله الواحد؟ وأنّ ورود الوثنية عليه لفترة من الزمن هو كورود الفلسفات والعقائد الطارئة التي لا تلبث أن تختفي أمام نهضة الأمة الجادة؟

مهمة لا امتياز لها

قد يظن بعضهم أنّ في اختيار ناس الجزيرة ممثلين لدين الله وحملة لرسالته تمييزاً لهم. لكنّ الحقيقة أنّ الوحي السماوي حرص على نفي هذا الامتياز نفياً تاماً حين أعلن أنّ الناس في أقطار الدنيا كلّها متساوون أمام الله وأنّ خيرهم عنده هو أتقاهم. قال تبارك وتعالى في الآية 13 من سورة الحجرات: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ). وقال عليه السلام: (لا فضل لعربيّ على أعجمي إلا بالتقوى).كما تعاقبت الآيات التي ردّت على اليهود دعواهم في أنهم شعب الله المختار وأنهم أحباؤه من دون العالمين. وقد جاء فيها قوله تبارك وتعالى الآية 18 من سورة المائدة:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ).

وعندما أخبر الله عز وجل نبيه إبراهيم بأنه قد جعل منه إماماً وسأله النبي عليه السلام عن مصير ذريته من بعده وعلاقتها بهذه الإمامة جاء جواب السماء حاسماً واضح الأبعاد منكراً أي امتياز قد يتوهم أبناؤه حصولهم عليه فقال عزّ من قائل: (لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)، وإذاً فإنّ عهد الله لا ينال اليهود بغير ما ينال سواهم من أبناء الشعوب الأخرى. فالكلّ عند الله سواء يخضعون لمقياس واحد ويعاملون على أساس أنهم متساوون في الحقوق والواجبات.

***

ونمضي في قراءة آيات تالية لنجد أنّ الصفة التي منحتها السماء للبشر كلّهم دون استثناء هي صفة (الإسلام لله والقنوت بين يديه والتبرؤ من كلّ امتياز مسبق) لا فرق بين يهودي أو نصراني وبين غيرهما من عباد الله.

لنقرأ ما جاء في الآيات 133 –138 من سورة البقرة. قال تبارك وتعالى: (أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ) ويعقوب هو من ولد إبراهيم العبراني (أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (133) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134) وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (135) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى

وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (137) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (138)).

هكذا تكون هذه الآيات القرآنية قد طرحت المعنى الحقيقي للعبادة وسوّت بين الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم. فهم بالإيمان الحق جميعاً مسلمون لرب العالمين.

***

المهم أنّ اختيار وادي مكة مقاما للبيت الحرام لا يمنح أصحابه أي امتياز مسبق. بل أن الأمر على عكس ذلك إذ يحمّلهم الله مسؤولية الدعوة والالتزام لشروطها والتخلق بأخلاق الوحي فيها.

إنّ اختيار وادي مكة وتحميل ذرية إبراهيم الخليل مسؤولية الدعوة إلى الله وإلزام أفرادها بكلّ الواجبات التي يلزم بها غيرهم وإخضاعهم لنفس المعايير التي يخضع لها غيرهم، كلّ هذا دليل واضح على أن اختيار أرض معينة وناس معينين هو جزء من سنن الله وقوانينه التي لا تتحول ولا تتبدل.

***

وقد يتساءل بعضهم قائلا: مامعنى قوله تبارك وتعالى في الآية 33 من سورة آل عمران (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ). فنجيب قائلين أن الاصطفاء يلزم عنه الابتلاء بحمل الرسالة... وحمل الرسالة يعطي صفة الإمامة لصاحبه الذي يتعين عليه أن يكون نموذجاً صالحاً للأجيال التي تعاصره أو التي تأتي من بعده. والنموذج الصالح يلزم صاحبه بصبر وتضحية ومراقبة للنفس وشجاعة ونكران للذات وعزيمة لا تتيسّر لغيره من الناس (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ).

***

هذه التأملات تلاحقت في ذهني وأنا أتلو الآيات الكريمة المتعلقة بقصة رفع القواعد من البيت الحرام وبفقرات الحوار الذي جرى بين إبراهيم عليه السلام وبين ربه أو بينه وبين قومه أو بينه وبين صاحب الملك وأخيراً بينه وبين نفسه وهو يقلب وجهه في الكواكب والقمر والشمس.

ومما يلفت النظر أنّ الهيكلية العامة للرسالة السماوية قد بلغت تمامها في نبوة إبراهيم الخليل عليه السلام. فقد كشف عصر هذه النبوة عن الحقائق والوقائع التالية:

1) أنّ العقيدة الوحيدة هي عقيدة الوحدانية وهي الحقيقة المشتركة عند كلّ الأنبياء والرسل من جاء منهم قبل أبي الأنبياء أو بعده.
2) أنّ الإمامة تكليف لا تشريف وأنها مسؤولية ثقيلة لا يقوم بها ولا ينهض لها غير أصحاب العقول النيرة والأخلاق القوية.
3) أنه لا تمايز بين البشر إلا بالتقوى والكلّ عباد مسلمون لرب العالمين.
4) أنّ أسلوب الدعوة القائم على الحوار قد بدأ يظهر على أنه هو الأسلوب الذي سيتفرد من بعد بالدعوة إلى الله وإن رافقته في بعض الأوقات معجزات متباينة مختلفة بتباين العصور واختلافها لتدعيم ما يأتي به النبي من الحق.
هكذا تصبح المحاكمات العقلية طريق الإنسان إلى المعرفة وتقوم المعجزات في بعض الأوقات ولا سيما قبل الرسالة الخاتمة بدور المساعد تبعاً لتفاوت الوعي عند الناس.
5) أنّ وادي مكة هو المكان الذي اختارته العناية الإلهية ليكون مركزاً للبيت الحرام، أقدم بيت وأوّل بيت من بيوت الله، الذي هو القبلة الوحيدة للمصلّين في أقطار الأرض كلّها (وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ) من الآية 150 سورة البقرة.

المعجزات الكبرى بعد إبراهيم عليه السلام

قلنا أنّ جوهر الرسالات السماوية واحد لم يتغير... إنه هو نفسه الذي جاء به آدم أبو البشر عليه السلام وهو نفسه الذي جاء به محمد خاتم رسل الله في نهاية المطاف. كلّهم قالوا: (إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) وكلّهم ردّدوا دعوة الوحدانية ورافقت المعجزات دعوتهم الواحدة المشتركة.

لكنّ الحوارات التي لجأ هؤلاء الانبياء إليها لم تستقل بالجزء الأكبر من جهودهم إلا في أثناء النبوة الخاتمة التي نزل بها وحي السماء على محمد صلى الله عليه وسلم. ولما كانت هذه الحوارات ذات الطابع الإعلامي قد شغلت الحيز الأكبر من نشاط محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، ولما كان الله قد تعهّد بحفظها بقوله تبارك وتعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) فإنّ من مقتضيات التأريخ للإعلام السماوي أن نخصّص لدعوة محمد عليه السلام فصلاً قائماً بذاته وأن نقتصر في هذا الفصل على التأريخ للمعجزات المميزة التي رافقت رسالات بعض الرسل السابقين وبصورة خاصة موسى وعيسى عليهما السلام.

***

ذكرنا في صفحة سابقة أنّ المعجزات الرادعة التي أهلكت بعض الأقوام من المعاندين المكابرين لم تنقطع بعد العصر الإبراهيمي بل استمرت بحكم قانون بشري يقرر أنّ الشعوب والأمم لا تتطور ولا تحقق نقلتها بنفس السرعة وعلى درجة واحدة وأنّ الناس الذين بعث إليهم إبراهيم عليه السلام كانوا يمثلون طليعة بشرية استحقت أسلوب الحوار المتنوّع الذي جاء به النبي وبالتالي جنّبت الهلاك الذي أصاب غيرها من الأقوام رغم ما حاولته من تحريق صاحب الرسالة عليه السلام. فكانت معجزته مجرد حادث يروع القلوب ويثير الدهشة ويثبت أنه يتمتّع برعاية ربانية دون أن يعقب ذلك تدمير لأعيان أعداء الله. بينما ظهرت أقوام وقبائل بعد ذلك في عصور هود ولوط وصالح وشعيب لقيت مثل المصير الذي لقيه قوم نوح من قبل.

ومما يلفت النظر أنه في الوقت الذي تمنح فيه الرعاية الإلهية أنبياء بني إسرائيل ولا سيما موسى وعيسى عليهما السلام قدرة خارقة على إتيان أنواع من المعجزات، إذا بهذه الرعاية نفسها ترفض الاستجابة لمطالب بعض المعاندين من أيام محمد صلى الله عليه وسلم وتدفعه إلى القول بأنه في شخصه لا يعدو أن يكون بشراً رسولاً... هذه الظاهرة نجدها في آيات من سورة الإسراء قال تبارك وتعالى في سورة الإسراء: (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (93))..

ثم تمضي الآيات بعد ذلك تجادل عن قرار السماء في رفض الإستجابة والكشف عن طبيعة الناس فتقرّر أنه (وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا).

ثم تبين سبب الامتناع عن الاستجابة بقولها: (قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا (95)) الآيات: 94 – 97 من سورة الإسراء. ثم يتوجه الوحي إلى النبي مرة أخرى فيقول له: (قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (96))، فلا تحزن يا محمد ولا تبتئس، يكفيك أنّ ربك شهيد بينك وبين المعاندين فقد قضت سنة خلقي أن من يهده الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دون الله.

هذه المطالب التي رفضت من قبل الله عز وجل لم ترفض مثيلاتها من قبل... بل تمت على يد عيسى وموسى عليهما السلام معجزات هي أبعد أثر في النفوس وأكثر إثارة للعجب والدهشة.

ومن هنا نشعر أنّ ما رفض في يوم محمد عليه السلام وقبل من قبله هو شيئ في صميم المنهج الإلهي الذي جعلت منه العناية الإلهية خطة فريدة للتعامل مع البشر.

الفصل الخامس

المعجزات قبل محمد

موسى عليه السلام

إذا عدنا إلى عصر موسى عليه السلام وهو بين الرسل من أولي العزم، شهدنا سلسلة من المعجزات الخارقة لسنن الطبيعة والحياة والكون. فقد قضت العناية الإلهية أنّ نجاح الدعوة إلى الله في عصر موسى مشروط بإجراء المعجزات على يديه وبأن تكون هذه المعجزات ذات دور أساسي وكبير في نظام الحوار القائم بين رسول السماء وبين فرعون وقومه ثم بينه وبين بني إسرائيل.

ولما كان السحر من أبرز معالم الثقافة البشرية في ذلك العصر، وكان الناس أكثر تأثراً بالأحداث التي توهم بخرق قوانين الطبيعة بفعل السحر، فقد استعان النبي موسى عليه السلام بالأسلوب الذي كان يتعامل به الناس بعضهم مع بعض، مع فارق واحد هو أنّ السحر الذي كانوا يأتون به هو عملية تخييل وإيهام بينما الإنجاز الذي جاء به موسى هو من صنع خالق قادر حكيم أي هو تعبير عن تغير حقيقي يحدث في عنصر المعجزة، وقبل أن نورد طرفاً من الوقائع المعجزة التي بهت بها الكافرون المعاندون في عهد فرعون وقومه نجد حقاً علينا أن نورد الملاحظات التالية:

1 – أنّ الحوار الذي يخاطب العقول في عهد موسى وعيسى لم يكن يتفق اتفاقاً تاماً مع طبيعة الثقافة المعاصرة لهما... لقد كان أصحاب هذه الثقافة أكثر تأثراً بالخوارق المادية منهم بالحوار العقلي.

2 – أنّ الدعوات الدينية قبل دعوة الإسلام كانت دعوات محلية لا عالمية. فالناس في ذلك العصر لم يكونوا قد بلغوا بعد مرحلة الرؤية البشرية العامة. ولم يتجاوزوا مرحلة الولاء للقبيلة الواحدة والشعب الواحد.

3 – ولما كانت المعجزات المادية ذات تأثير يقف عند المشاهدين لها والفئة التي يتصل بها خبرها، كما يقف تأثيرها عند جيل معين فقد بدت أعظم تأثيراً في القلوب المغلقة والعقول المتشبعة بثقافة السحر والأعاجيب المثيرة. لقد بدت هذه المعجزات أشبه ما تكون بالصدمات الكهربائية التي يقصد بها إيقاظ الوعي البشري وهو لا يزال في مرحلة الطفولة الحضارية.

كما يؤكد أهمية المعجزات في ذلك العصر أنّ الكتب السماوية التي أوحى بها إلى رسل ذلك العصر وأنبيائه قد تركت مسؤولية الحفاظ عليها لأتباعها أنفسهم ولا سيما الكهان والأحبار من بينهم. نجد مصداق هذا الرأي في قوله تبارك وتعالى في الآية 44 من سورة المائدة: (إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ).

وإذاً فالله سبحانه وتعالى لم يتعهّد بالحفاظ على سلامة التوراة من التحريف والتغيير بل تركت هذه المهمة للربانيين والأحبار خلافاً لتعهّد الله سبحانه بالحفاظ على القرآن الكريم إذ يقول في هذا المعنى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ).

كلّ هذا الذي لاحظناه دليل واضح على أنّ الدعوات الدينية السابقة ليوم الإسلام هي تمهيد لظهور خاتمة الرسالات وبالتالي هي مقدّمات مرحلية تعدّ البشرية لتلقى الدعوة الإسلامية العالمية فيما بعد.

ونضيف إلى ما سبق أنّ عدداً من الأنبياء قد ظهروا قبل موسى وعيسى ومن بينهما. ومن أبرز الأنبياء السابقين يأتي يوسف عليه السلام ابن يعقوب. فإذا قرأنا قصته في سورة يوسف بدا لنا أشبه ما يكون بالرجل الصالح الذي لم تتح له فرصة القيام بدور واسع في عصره. لقد وقف تأثيره عند قلة من الناس الذين اتصلوا به كما لم يذكر الوحي القرآني لهو قائع خارقة تهدد التوازن الثقافي عند المجتمع في عصره أوتثير نقمة الأقوياء عليه بحيث تتزلزل بها قواعد الحياة العامة.

وكان يوسف عليه السلام شاباً يشعر بالغربة الروحية عمن حوله حتى عن إخوته الذين نزلوا من صلب نبي هو يعقوب عليه السلام. فبدا أشبه بالمصباح المضيء الذي يرسل نوره في الظلمات في هدوء ويسر.

وتبد ولنا هذه الغربة منذ صباه الأول حين قص على أبيه قصة الحلم الذي رآه والذي يقول فيه ابتداء من الآية 4 من سورة يوسف: (إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ (4) قَالَ يُبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (5).

أليس في هذا الحوار القصير ما يدلّ إلى وجود حدس عميق صادق عند النبي يعقوب عليه السلام بأنّ ولده يوسف هو ظاهرة غريبة عن أخوته وأنه يتمتع بما لا يتمتعون به من الامتيازات الخلقية والروحية ؟ والواقع أنّ يوسف بقى يحس بهذه الغربة على امتداد الأحدث والوقائع التي تعاقبت عليه منذ إلقائه في الجب ثمّ عثور إحدى القوافل عليه ثمّ بلوغه مرتبة الخازن عند عزيز مصر.

وكذلك كان شأن الأنبياء الذين أتوا من بعده... فقد يختلف عدد الناس الذين يتأثرون بكلّ منهم لكنهم بقوا بالنسبة لأولى العزم من الرسل الذين تحقّقت بهم تحولات تاريخية كبيرة أشبه بالمصابيح المتواضعة في الظلمة العامة... والجدير بالذكر أنّ ردود الأفعال التي نجمت عن عصور هؤلاء الأنبياء قد تباينت واختلفت في قوتها وسعتها.

كان كلّ منهم كالشهاب الثاقب في فضاء مظلم عريض. فإذا مضى هذا الشهاب تلاحمت موجات الظلمة في هذا الفضاء وعادت الى قريب مما كانت عليه من قبل.

***

حتى إذا جاء موسى عليه السلام كان بنو إسرائيل أكثر عدداً وأشد قوة وإن لم يحقّقوا بعد تحرّرهم من الطغيان الفرعوني الذي يقتل رجالهم ويستحيي نساءهم. وقد استطاع موسى عليه السلام بإذن من الله تبارك وتعالى أن يحرك القوة الكامنة عند بني إسرائيل فخرج بهم بعد جهود متطاولة من الأرض التي كانوا فيها مستذلين مستعبدين يتعرض الرجال منهم للقتل والنساء للسبي والمهانة.

لكنّ الظاهرة التي اتصف بها بنو إسرائل رغم ما شهدوه من معجزات النبي موسى عليه السلام، ورغم الانتصارات التي حقّقها نبيهم على فرعون بالذات وأعوانه من السحرة، ثمّ على جيشه الذي هلك في مياه البحر، هذه الظاهرة هي استمرار التحجر في عقولهم والغفلة في قلوبهم، ونزوات الوثنية في نفوسهم.

والواقع أنّ التحجّر الذي ترافقه قسوة القلوب لم يكن وقفاً على بني اسرائيل ولكنه كان أبرز عندهم، ثم بقي في صفوفهم جيلاً بعد جيل حتى يومنا هذا رغم تحرّر العديد غيرهم من القبائل والشعوب من قيود التحجر والقسوة فبَدت اليهودية العالمية كظاهرة ثقافية فكرية روحية اجتماعية أشبه بحفيرة من حفائر التاريخ البشري مع فارق واحد يقوم بين الحفائر التي اكتشفها العلماء المحدثون وبين الواقع اليهودي هو أنّ الحفائر المتعارف عليها أجساد متحجرة، بينما اليهودية عنوان على عقول وميول وأوهام ودعاوى ثابتة ترفض الخروج من أبراجها المعزولة التي بنتها لنفسها وأصرت على اعتبارها العالم الوحيد الذي يستوعب الحقائق البشرية التي تتمثل فيها هذه الدعاوي والميول والأوهام والعقول دون سواها من عباد الله في طول الدنيا وعرضها.

على أنّ الظاهرة الحفيرية التي يبرز بنوإسرائيل نموذجا باقيا لها بكلّ ما يتصل بها من أبعاد الحفيرة التاريخية، لا تمنعنا من تسليط بعض الضوء على الأنشطة الإعلامية التي قام بها موسى عليه السلام وعمل بها للفوز بقلوب الاسرائيليين وعقولهم.

الأنشطة الإعلامية الموسوية:

1 – أول ما يلفت النظر في الأنشطة التي قام بها موسى عليه السلام هو الدعوة إلى الله والمناداة بعبادته وحده دون سواه من الآلهة المزيفة.

وقد ظهرت هذه الدعوة في محاورات جرت بين النبي وبين فرعون الذي كان يقول للناس من حوله ويصدقه دعاته من الكهان: " أنا ربُّكُم الأعلَى ". وكان من هذه المحاورات ما ورد في الآيات 49 – 55 من سورة طه: (قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51) قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (52) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (53) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (54) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (55))

والجدير بالذكر أنّ تعرية فرعون من صفة الألوهية لم تكن تهدف إلى إقناع فرعون وحسب وتحريره من أوهامه بل كانت ذات أغراض اجتماعية اقتصادية سياسية وأخلاقية في مجتمع تشيع فيه الأساطير ويخضع لظلم اجتماعي شديد ويعاني مشكلات التمييز الطبقي والعنصري ويتأثر بأوهام السحر. وكان بنو اسرائيل بما يعانونه من أنواع المظالم، ومنها المظالم العنصرية، هم المجتمع الذي جعل منه موسى عليه السلام مادة جهاده، وموضع نشاطه، وغرضا لنشر رسالته، باعتبار أنهم أقدر على فهم مقاصد الوحدانية التي تحرّرهم من دعاوى فرعون بالألوهية، كما تحرّرهم من الظلم الاجتماعي – السياسي الواقع عليهم من قبل أعوان فرعون وشعبه.

2 – وثاني ما يلفت النظر في الأنشطة الإعلامية التي قام بها موسى عليه السلام هو استعانته بالمعجزة التي أجرتها العناية الإلهية على يديه.

وكانت معجزة العصا التي تحوّلت إلى حية تسعى تلقف ما يأفكه سحرة فرعون، من أكثر هذه المعجزات تأثيراً في زلزلة الأوهام والأساطير التي جمدت عقول الناس ومنحت فرعون سلطاناً أدبياً لا حدود له على أصحاب هذه العقول.

والواقع أنّ معجزة العصا قد حققت الغاية المطلوبة الى حد ما حين تقابل الفريقان: سحرة فرعون من جانب وموسى من جانب آخر.

وقد قصّ القرآن الكريم علينا قصة ذلك اليوم الذي جرت فيه المقابلة وتحدث عن ردود الفعل التي نجمت عن انتصار النبي عليه السلام في ميدان السحر، وقبل أن نعقّب بتحليل هذا الحادث الخطير نورد ما جاء في هذا المعنى في كتاب الله. قال عز من قائل في سورة طه: (وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (58) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (61) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (62) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (63) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (64) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (65) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (67) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (68) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (69))

ويستمرّ النص القرآني بعد ذلك ليحدثنا حديث موسى والسحرة الذين جمعهم فرعون بعد أن ألقى الرسول عليه السلام عصاه التي التهمت ما صنعه هؤلاء السحرة من أنواع الأحابيل. وكم كانت دهشة السحرة شديدة جداً حينما صدر عن عصا الرسول ما صدر من الحق المبين. يقول سبحانه وتعالى بعد ذلك: (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73))

الثابت من خلال هذه الايات الكريمة التي تقص علينا فصلاً من فصول الأحداث الموسوية الفرعونية هو أنّ معجزة موسى الأساسية التي جاء بها استجابة لتحديات الثقافة الشائعة في عصره هي معجزة شبيهة في ظاهرها بالسحر الفرعوني. لكنها في جوهرها تتميّز عنه. فبينما يتّخذ السحر أسلوب الإيهام والتخييل الذي يتلاعب بمخيلات البسطاء من الناس فيريهم شيئاً ما ليس بالشيء، إذا بموسى عليه السلام يلقي عصاه فلا تقف عند حدود التخييل كما هو شأن السحرة بل تتحوّل فعلاً إلى أفعى حقيقية تلقف ما يأفكون أي ما يدعونه من السحر كذباً وزوراً. ولا عجب في أن تنهار مقاومة السحرة أمامه حين

يشهدون التحول الحقيقي للعصا ويقتنعون تماماً بأنّ ما عندهم من الحيل قد قابله ما عند النبي من الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

لكنّ نجاح موسى عليه السلام في إنزال الهزيمة بالسحرة وهيمنته التامة عليهم لم يغير شيئاً من مواقف فرعون الذي لجأ إلى سحرته للقضاء على ظاهرة النبوة والحيلولة دون انتشار سلطانها في نفوس شعبه. فبادر الى استعمال القوة مستعيناً في هذه المرة بالمرتزقة من جنوده وكان ما قصّه القرآن علينا في السورة نفسها وحدثنا فيه عن عزم موسى على الخروج ببني إسرائيل من مصر الفرعونية بأمر من الله عز وجل.

وبذلك توقّفت المجابهة الثقافية وبدأت المجابهة المسلحة التي تعاقبت حوادثها بإقدام فرعون على اللحاق بالمهاجرين من بني إسرائيل يقودهم موسى عليه السلام. وهذا يعني أنّ موسى النبي قد نفض يده من النجاح في تغيير عقلية فرعون والنفاذ إلى من وراءه فقصر دوره على بني إسرائيل أنفسهم، واستعان بأسلوب يشبه السحر في ظاهرة لإنقاذهم من خطر فرعون وجنوده. فضرب البحر بعصاه وانقسمت مياه اليم فاجتازت جماهير اسرائيل الطريق فوق يابسة ممهدة حتى إذا جاوز المهاجرون منطقة البحر ولحق بهم فرعون وجنوده وتوسطوا المنطقة البحرية عادت المياه إلى ما كانت عليه وغشي المعتدين من أليم ما غشيهم فكانوا من المغرقين.

هذا الحادث روي كلّه باختصار شديد في سورة طه أيضاً، قال عزّ من قائل: (وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (77) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (78) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (79))

والجدير بالذكر أنّ موسى عليه السلام وقد وقف جهوده التعليمية على بني إسرائيل بقي يستعين بالأسلوب نفسه الذي هو الإعجاز المادي إلى جانب الدعوة إلى الله. وهو الأسلوب الذي يشبه السحر في ظاهره.

في ضوء هذا المنهج صدرت عن موسى عليه السلام وتحقّقت على يديه معجزات أخرى تتصل بثقافة العصر، منها ما جاء ذكره في عدد من السور: "الأعراف، طه، الشعراء، النمل، القصص" كما في قوله عز وجل: (وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ)[1] وورد المعنى نفسه في بقية السور المذكورة آنفاً.

1 . جزء من الآية 12 من سورة النمل

ومنها المعجزة التي جرى بها إحياء الميت بضربه ببعض جسد البقرة المشهورة. وقد ورد تفصيل هذه المعجزة من سورة البقرة بين الآية 67 والآية 73.

وكما أنّ حصيلة المعجزة عند فرعون هي التمادي في المكابرة والعناد فقد كانت حصيلة معجزة البقرة واليد البيضاء الخالصة من كلّ سوء مزيداً من العناد والمكابرة أيضاً عند فريق كبير من شعب إسرائيل، وقد وصف القرآن موقف بني إسرائيل وصفاً معجزاً وشاملاً حين تحدّث عن القسوة في قلوبهم والتحريف في ميولهم والنفاق في أخلاقهم. فقال عزّ من قائل بعد قصة البقرة:

(ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74) أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (76))..

ولو حاولنا أن نستوعب كلّ الوقائع التي رافقتها معجزات النبي موسى عليه السلام وهي كثيرة في القرآن لما وجدنا غير الظاهرة نفسها وهي ظاهرة المكابرة التي انطوى أصحابها على أنفسهم بدعوى أنهم شعب الله المختار، وزعمهم أنّ النار لن تمسهم وأنّ من سواهم من القبائل والشعوب خدم لهم. وهي نفسها المكابرة التي اتصف بها فرعون إذ ادّعى أنه الربّ الأعلى للناس، والقاسم المشترك بين الفريقين هو إصرار كلّ منهما على تمييز نفسه بصفات وخصائص لا تنسحب على غيرهما من الناس.

***

ولعلّ الحوار الذي جرى بين موسى وقومه حين عاد إليهم بعد أن أبلغه ربه بالفتنة التي انحرف بها قومه من بني إسرائيل عن دين الله، نقول: لعلّ هذا الحوار أن يكشف عن التباين الهائل بين قوة البيان وصدق الحجة عند النبي من ناحية وبين الغفلة الغبية عند بني إسرائيل من ناحية أخرى.

قال عز من قائل في سورة طه: (وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (86) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا

مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (88) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (89) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (91) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (97) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (98)

القصة كما نرى تقدّم عرضاً مفصلاً لما جرى في تلك الواقعة. وقد كشفت عن ظاهرة تقابل فيها الإيمان الغاضب والحائر في الوقت نفسه مع الكفر الغبي الذي يفتقد أبسط بسائط الوعي السليم في القلب والعقل.

والجدير بالذكر أنّ موسى عليه السلام لم يعد يجد ملجأ يلجأ إليه وسلاحاً يستعين به لإعادة المنحرفين من بني إسرائيل إلى الجادة ولإيقاظ وعيهم بالحق المتمثل في عبادة الله الواحد الأحد بعيداً عن دعاوى الوثنية وعن الشعوذة التي جعلت من ظاهرة الخوار في جسد العجل المصنوع من القوم فتنة لهؤلاء الناس، نعم إنه لم يجد ما يلجأ إليه غير مقاطعة هذا القطيع من الدهماء الذين خدعتهم تخييلات السامري.

***

ومع ذلك فإنّ الغباء والجفاف والهبوط الروحي عند بني إسرائيل، كلّ هذا لم يحل دون أن يتأثر بعض القوم بتلك الدفعة الروحية والنقاء العقلي اللذين أحدثتهما دعوة موسى عليه السلام. صحيح أنّ التوراة التي حملها إلى قومه قد حرّفت وأدخل عليها رؤوس الناس ما شاء لهم خيالهم أن يدخلوه من الأساطير الموروثة والأوهام الشائعة فيما كتبوه من شروح التلمود الذي هو بمثابة تفسير جاوز نصوص التوراة في تأثيره على أتباعها، لكنّ بقية من التعاليم الورادة فيها وبصيصاً من نور العقيدة استمرّا محتفظين ببعض ألَقهما في النفوس. لكنّ الروح الفرعونية التي ظهرت على الصورة الإسرائيلية متمثلة في أساطير الامتياز المزعوم لبني إسرائيل بقيت ممسكة بالمبادرة محيطة بالقلوب والعقول الإسرائيلية بعد وفاة النبي موسى عليه السلام وأخيه هارون.

لقد كانت الرسالة الموسوية دفعة ذات أبعاد إعلامية حققت خطوة باتجاه الدعوة الدينية التي جاءت خاتمة لدعوات السماء في عصر محمد صلى الله عليه وسلم.

***

وقد سبق في علم الله أنّ الإعداد الإعلامي لعالمية الدعوة الإسلامية التي قدّر لها أن تظهر بعد عدد من القرون يحتاج إلى سلسلة من المحاولات التصحيحية في أشخاص عدد غير محدد من الأنبياء والرسل حتى جاءت دعوة عيسى عليه السلام كمنعطف حاسم جديد في تاريخ الدعوة إلى الله وكدفعة تربوية بارزة بعد المحاولات التي ظهرت بين عصري موسى وعيسى عليهما السلام.

وبتعبير آخر نقول: أنّ الوعي بالوحدانية مع ما يرافقها من عالمية الدعوة والإصلاح هو القمة التي تتكامل بها الصور الإعلامية لرسالات السماء المتعاقبة في قرون متطاولة من السنين.

***

إنّ ظهور موسى فصل رئيسي من فصول ملحمة الرسالات التي مسرحها العالم كلّه تماماً كما هو شأن الرسل أولي العزم الذين ظهروا قبله وبعده في سلسلة بلغت تمامها في يوم محمد صلى الله عليه وسلم.

وقبل أن نبلغ هذا اليوم لابدّ وأن نسلّط بعض الضوء على يوم المسيح عيسى عليه السلام.

عيسى عليه السلام

أوّل ما يقتحم عقل الناظر في رسالة عيسى عليه السلام أنها جاءت توكيداً لرسالة التوراة وتصحيحاً لمسيرة من كانوا يزعمون أنهم من اتباعها والعاملين بها. والثابت أنّ رسالة المسيح هي مرحلة أخرى من المراحل التمهيدية التي كانت تعدّ البشرية لاستقبال دعوة الإسلام من بعد.

هكذا علمنا القرآن عندما قال لنا: (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ)[1].

الآية هنا صريحة واضحة في أنّ الأنبياء والرسل كلّهم جاؤوا برسالة واحدة هي رسالة الوحدانية. إنهم سلسلة من الرجال بدأت في حلقتها الأولى بنوح عليه السلام وانتهت بمحمد صلى الله عليه وسلم وبينهما كثرة من الأنبياء والرسل أبرزهم ثلاثة رجال قاموا بأدوار حاسمة في تاريخ الدعوة إلى الله: إبراهيم وموسى وعيسى صلوات الله وسلامه عليهم. أما إبراهيم فقد وضع الأسس الرئيسية لدعوة الوحدانية كما سبق أن ذكرنا هذا من قبل... وأما موسى فقد خاض معركة فاصلة في ميدان الإعلام السماوي مستعيناً بالحوار من ناحية وبالمعجزات التي تحدّت سحر السحرة والألوهية الفرعونية المزعومة والامتيازات المدعاة لبني إسرائيل من ناحية أخرى. أي أنه حاول أن يزلزل الجمود الرجعي في ثقافات الاسطورة والوثنية عند معاصريه كما بيّنا ذلك من قبل. وأما عيسى فقد جاء مصدّقاً لما بين يديه من التوراة التي جاءت بدورها مصدّقة لما بين يديها من دعوة إبراهيم الخليل الذي رسم بأمر من الله عز وجل الصورة الأساسية لرسالة الوحدانية ووضع الخطة الإعلامية في مزيج من الحوار وأسلوب المعجزات التي تدهش وتزلزل مواطن العناد والكفر عند الناس.

***

وأوّل ما يلفت النظر في سيرة هذا النبي الكريم أنه خرج إلى الدنيا على صورة معجزة وأسلوب لم يتعارف عليه الناس من قبل. فكان مولده بمثابة فتنة للناس ومدعاة للتساؤل حول حقيقته وطبيعة شخصيته.

وقد تحدّث القرآن عن هذه الظاهرة المعجزة وأعلن أنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم الذي خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون. أما عيسى نفسه فقد ولد من غير أب وعندما بشّرت السيدة مريم بقرب مولده وعلمت ما سيكون له من الشأن بعده: (قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (21))[2]. وبذلك أصبح عيسى عليه السلام منذ مولده قضية العصر في البلد الذي نشأ فيه أي

1 . جزء من الآية 13 من سورة الشورى.
2 . سورة مريم

أنه اجتذب الأضواء منذ البداية وثارت مناقشات حول كيفية خروجه إلى الدنيا فكان من الناس من صدق أمه وآمن بأنّ مولده معجزة إلهية. وكان من الناس من أنكر على أمه دعواها وأصرّ على رفض المعجزة.

وليس هذا وحسب فإنّ الإعجاز في مولده قد وجد في تكلّم عيسى وهو بعد صغير في مهده معجزة أخرى أيّدت ما جاءت به والدته وكشفت مسبقاً عن طبيعة الرسالة التي كان سيخرج بها إلى الناس في سنّ معينة.

وقد تحدّث القرآن عن هذه الظاهرة المعجزة بعد أن توجّهت به أمه إلى قومها وامتنعت عن مخاطبتهم عملاً بأمر الله عز وجل وأحالتهم إلى الطفل الوليد قال عزّ وجل في سورة مريم: (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۖ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33)).

وبدلاً من أن يجد ناس عصره في هاتين الظاهرتين توكيداً لعقيدة الوحدانية وآية على الحضور الإلهي فقد خلطوا بين كونه في مولده ونطقه المبكر إعلاناً عن قدرة الله عز وجل وتوكيداً لعبوديته، وبين فكرة تجسّد الإله في شخصه. فإذا بهم يتقولون على لسانه ما لم يقله ويزعمون أنه هو الله بعد أن جاءهم بالبينات والهدى ولا سيما بعد أن أجرى الله على يديه بعض المعجزات من مثل صنعه من الطين كهيئة الطير والنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ومن مثل إبرائه للأكمه والأبرص وإحيائه للموتى بإذن الله وتنبؤه بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم. وبالرغم من توكيده لهم أنه نبي مرسل إليهم مصدق لما بين يديه من التوراة وأنه جاء ليُحِلّ لهم بعض الذي حرّم عليهم.

وقد أورد القرآن هذه الدعوى الباطلة التي ردّدها أولئك الذين عميت بصائرهم على صورة استفهام استنكاري كما أورد جواب المسيح على السؤال مؤكّداً به عبوديته لله عزّ وجل. نجد هذا المعنى في قوله عزّ وجل في سورة المائدة: (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (117) إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (118))..

وهنا بدأت معركة حامية بين المسيح وأنصاره من الحواريين وبين الذين أنكروا عليه صدق ما جاء به من الحق حتى بلغ بهم الأمر مرحلة التخطيط لقتله. وقد أقدموا فعلاً على ارتكاب جريمة قتل وهم يحسبون أنّ الرجل الذي صلبوه هو عيسى المسيح نفسه لكنّ الله عز وجل يكشف عن الوهم الذي التبس به الأمر عليهم ويؤكد أنّ من صُلِبَ ليس شخص المسيح بل هو إنسان آخر شُبِّه لهم. فقال عز وجل في معرض إيراده لجرائم بني إسرائيل: وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (157) بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (158))[1].

وخلاصة القول أنّ نبوة عيسى عليه السلام قد تميزت بالصفات التالية:

1 – الحوار الشامل الذي تناول موضوع عقيدة الوحدانية والذي برأ به نفسه من دعوى الألوهية مؤكّداً أنّه عبد لله ورسوله إلى بني إسرائيل.

2 – أنّ المعجزات التي أتى بها هي غير المعجزات التي أتى بها من سبقه من الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم ولا سيما تلك التي أتى بها موسى عليه السلام. فقد ظهرت في مولده المعجزة الأولى وفي تكلّمه وهو طفل صغير المعجزة الثانية. حتى إذا بلغ مرحلة الدعوة إلى الله جرت على يديه معجزات منها إحياء الميت وإبراء الأكمه والأبرص وبثّ الحياة في الطين المصنوع على هيئة الطير وإنزال مائدة من السماء، إلخ.

3 – أنّه رغم الدعوى الوقحة التي زعم أصحابها أنّه وأمّه إلهان من دون الله لم يعنف في التعامل معهم بل كان أقصى ما صدر عنه قوله لربه في سورة المائدة: (إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (118)). لقد كان هيّناً ليّناً سمحاً محتفظاً بالأمل في أن يثوب هؤلاء الناس إلى رشدهم، بينما تميزت نبوة موسى عليه السلام بمعجزة الإبادة التي قضت على فرعون وجنوده في مياه البحر كما تميزت بالغضب المشروع الذي واجه به نكسة بني إسرائيل والمتمثلة في عودتهم عن عبادة الله إلى عبادة جسد العجل ذي الخوار وبالذي عزم عليه بعد ذلك بمقاطعة السامري، قائدهم إلى الشرك. ثم تميزت بالتيه الذي كتب على بني إسرائيل في الصحراء لسنين طويلة عقوبة لهم على كفرهم وعدوانهم. وبذلك اتّسمت نبوة عيسى بطابع ذهبت به مثلاً في المحبة والتسامح.

1 . سورة النساء

فإذا ذهب عصر المسيح عيسى عليه السلام عادت ظلمات الشرك تخوض معركتها العدوانية وتغلق أبواب الهداية أمام القلوب والعقول واستقلت بقيادة التيار الجديد الذي شوه رسالة هذا النبي الكريم ومضى المنادون بالانتصار له في دعواهم المزعومة بألوهيته مع إبراز ظاهرة التسامح في تعاليمه إبرازاً مبالغاً فيه لا يتفق مع روح الدعوة السماوية الأصيلة.

ومهما يكن الأمر فقد حقّقت نبوة المسيح عليه السلام إنجازاً جديداً رغم سقوط من جاء بعده في أسطورة الألوهية المزعومة له. هذا الإنجاز يتمثّل في مقاومة الامتيازات المزعومة لبني إسرائيل والتي اعتبروا بها أنفسهم شعب الله المختار وحصروا الفضائل كلّها في عنصرهم وفيمن نزل منهم من الأبناء والأحفاد.

وإذا كان موسى عليه السلام قد أدخل روح التشريع إلى دنيا الناس رغم صلابته المتوافقة مع عقلية بني إسرائيل، فقد مهّد المسيح عيسى عليه السلام لإدخال صفة العالمية للدعوة الدينية ووضع لمسات واضحة لروح التسامح والمحبة.

***

محمد عليه الصلاة والسلام

أوّل ما يلفت النظر في الظروف والوقائع التي رافقت حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم منذ مولده حتى بلوغه عامه الأربعين الذي تلقى فيه الوحي السماوي لأول مرة، نقول: أنّ هذه الوقائع والظروف كانت طبيعية جداً لم تتميز بالخوارق ولم تظهر فيها المعجزات المادية التي تعلن في وقت مبكر عن نبوته المنتظرة.

ولا شك أنّ هذه الظاهرة تعتبر تحولا خطيرا بالغ الأهمية في روح الرسالة وطبيعة الدور الذي كتب على النبي المصطفى أن يقوم به من بعد.

وكلّ ما ورد على السنة الرواة من المعجزات المادية التي يقال أنها رافقت مراحل حياته لا يبلغ درجة التواتر في صحة الرواية.

وقبل أن نطنب في الحديث عن الأخبار الخاصة بغرائب ومعجزات رافقت فيما يروى، المراحل الأولى من حياته صلى الله عليه وسلم نورد فيما يلي ما جاء في سيرة ابن هشام في حديث الملكين اللذين شقّا بطنه صلى الله عليه وسلم:

(قالت: فرجعنا به، فوالله أنّه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه لفي بهم "ماشية" لنا خلف بيوتنا، اذ أتانا أخوه يشتد، فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاه، فشقّا بطنه، فهم يسوطانه "يضربان بعضه بعضاً". قالت: فخرجت أنا وأبوه نحوه، فوجدناه قائماً منتقعاً وجهه. قالت: فالتزمته والتزمه أبوه، فقلنا له: مالكَ يا بني، قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاني وشقّا بطني، فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو. قالت فرجعنا به إلى خبائنا)[1].

***

ويتابع ابن هشام رواية ما جرى بعد ذلك فيذكر أنّ أبا النبي صلى الله عليه وسلم بالرضاع خشي أن يكون الغلام قد أصابه ما لا قبل له بحمايته منه فأمر زوجته بإلحاقه بأهله قبل أن يظهر ذلك عليه. وعادت حليمة بالغلام إلى آمنة التي أضافت إلى ما جاءتها به حليمة من الخبر خبراً مغرياً آخر ذكرت فيه أنها رأت حين حملت به نوراً خرج منها فأضاء لها قصور بصرى من أرض الشام. وأنه حين ولدته وقع وأنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء. ثم يؤكد ابن هشام هذه الرواية بأن يسندها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رداً على سؤال نفر من أصحابه حول ما يقال عن حادثة شق الصدر. وفي هذه المرة يطنب ابن هشام ويفصل في رواية الحادثة ويروي كلاماً قاله الرجلان الغريبان وحفظه عنهما الغلام الصغير.

1 . **أنظر القسم الأول من سيرة ابن هشام ص 164 فما بعدها.**

ولهذا الحادث ذيول وفروع كثيرة مذكورة كلّها في سيرة ابن هشام ولا سيما ما روته هذه السيرة حول علامات خاصة في جسده جعلت نفراً من نصارى الحبشة بعد أن نظروا إليه وسألوا أمه بالرضاع عنه وقلبوه، يعلنون عن رغبتهم في أخذه معهم وحمله إلى ملكهم وبلدهم بدعوى "إنه غلام كائن له شأن نحن نعرف أمره.. إلخ".

يضاف إلى هذه الروايات ما يقال من أنّ الراهب بحيرى في طريق الشام قد تفرّس في الغلام وعرف فيه النبي المنتظر وخوّف عمه أبا طالب عليه من اليهود، وما يقال أيضاً من أنّ غيمة كانت تظلّ محمداً الفتى وهو مع القافلة المتجهة إلى بلاد الشام إلخ..

كلّ هذه الروايات تفرض علينا طرح بعض التساؤلات وتسجيل بعض الملاحظات:

1) كلّ الروايات الصحيحة تدلّ إلى أنّ محمد صلى الله عليه وسلم قد فوجئ بالوحي حين جاءه لأول مرة فخاف وشاع الرعب في نفسه وتوجه نحو زوجته خديجة رضي الله عنها، يفضي إليها ما رآه ووقع له ولا يخفي خوفه عنها.

وتقول رواية ابن هشام أنّ زوجته قد طمأنته بأنّ الله لن يخزيه أبداً فهو (يحمل الكلّ، ويكسب المعدوم، ويقري الضيف).

كلّ هذه الوقائع والمحاورات تدل على طابع المفاجأة فيما حدث وعلى أنّ محمداً صلى الله عليه وسلم وزوجته لم تكن عندهما أي فكرة مسبقة عمّا أعدته العناية الإلهية له من الشأن العظيم.

2) حادث بناء الكعبة الذي تمّت تسوية النزاع فيه بين القبائل حين تقرر رفع الحجر الأسود إلى مكانه من بناء الكعبة، يدلّ على أن زعماء قريش وهم أقرب العرب إليه لم يكونوا يجدون فيه غير شاب صالح أمين. فاقتصروا على إطلاق صفة الأمين عليه. ولم يخطر في بالهم أنه سيكون النبي المنتظر.

3) لو صحّت الأخبار الإعجازية الخاصة بحادثة شق الصدر وخروج النور من جسد السيدة آمنه والدة النبي صلى الله عليه وسلم وما يقال من حضور الملائكة وبعض المصطَفين من النساء المتوفيات قبل قرون وغيرها من الأخبار والوقائع التي تحفل بها كتب السيرة، نقول: لو صحّت هذه الأخبار لوجب أن تحيط بالنبي صلى الله عليه وسلم هالة من التقديس قبل نزول الوحي إليه، فنحن نعلم اليوم أنّ العامة أسرع ما تكون إلى تقديس الإنسان الذي يلقى بعض ما يقال من أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قد لقيه قبل عام نبوته.

إنّ الحوليات الثابتة التي تروي تفصيلات المرحلة الأولى من دعوة الإسلام لا تشير من قريب أو بعيد إلى أنّ قريشاً ومن حول قريش ممن عايش النبي صلى الله عليه وسلم طوال الأربعين عاماً قد أحسّت أو استشعرت بأنّ لمحمد شأنه الذي عرف له بعد نبوته.

لقد كان جهاده صلى الله عليه وسلم في الأعوام العسيرة التي قضاها بين ظهراني قومه في مكة مقصوراً على الجانب الإعلامي البحت وبصورة أخصّ على الحوار وما يتصل به من مفاعلة العقول والقلوب. يؤكد هذه الظاهرة ما روي من أنّ نفراً من قريش قد اجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة وكان وجيهاً فيهم يتشاورون فيما يصدّون به محمداً عن دعوته حين تقدم عليهم وفود الحجيج ويسفهون ما جاء به من الدين الجديد أمام القادمين إليهم من العرب. وقد تبين من هذا الحوار أنهم لم يشيروا من قريب أو بعيد إلى صفات معجزة له سبقت خروجه بالرسالة الجديدة اليهم بل كان همّهم هو مقاومة الكلام البليغ المعجز الذي كان يردّده أمام الناس.

لننظر فيما رواه ابن هشام في ص 270 من القسم الأول لسيرته، وقد جرى الحوار بين جماعة القرشيين والوليد بن المغيرة:

الوليد: يا معشر قريش، إنّه قد حضر هذا الموسم، وإنّ وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكّذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً.

صوت: فأنت يا أبا عبد شمس فقل لنا وأقم لنا رأياً نقول به.

الوليد: بل أنتم فقولوا أسمع.

صوت: نقول أنّه كاهن.

الوليد: لا والله ما هو بكاهن. لقد رأينا الكهّان، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه.

صوت: نقول أنّه مجنون.

الوليد: لا والله ما هو بمجنون. لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته.

صوت: فنقول أنّه شاعر.

الوليد: كلّا ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كلّه رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه. فما هو بالشعر.

صوت: فنقول أنّه ساحر.

الوليد: لا والله ما هو بساحر. لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم.

صوت: إذاً فماذا نقول يا أبا عبد شمس؟

الوليد: والله إنّ لقوله لحلاوة وإنّ أصله لعذق وإنّ فرعه لغدق وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلّا عرف أنّه باطل. وإنّ أقرب القول فيه أن تقولوا ساحر، جاء بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته إلخ.

***

من الواضح في هذا الحوار أنّ الجميع متفقون على أنّ محمداً لم تكن له صفة الشاعر أو المجنون أو الكاهن بخاصة. ولو سبق لعِلمِهم ما روي عن معجزات حدثت له قبل نبوته أو عجائب رافقت بعض مراحل حياته السابقة على نبوته لغلبت صفة الكهانة عليه على الأقل.

لقد كان الحوار هو السلاح البارز الذي استعان به الفريقان. ولو سبق في علم الله أن تكون المعجزات سلاحاً من أسلحة الدعوة لكان الأولى أن تظهر على يديه في الفترة التي كان يعاني فيها شدة قريش ضدّه ويواجه أفكارها له أي في أثناء المرحلة المكية قبل الهجرة إلى المدينة المنورة.

لقد تقابل الفريقان كما يتقابل الحق والباطل والخير والشر بسلاح الحوار والجدال العقلي والخصائص الخلقية. وكان انتصار صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم انتصاراً نابعاً من القدرات الإنسانية إلى جانب الوحي السماوي الذي هو الإعجاز الوحيد الذي تحدّى به الإسلام أعداءه.

يدخل في هذا المعنى وينسحب رأينا في المعجزة عليه، ما رواه ابن هشام أيضاً في سيرته مستنداً إلى عبد الملك بن عبيد الثقفي من " أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراده الله بكرامته، وابتدأه بالنبوة، كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت ويفضي إلى شعاب مكة وبطون أوديتها، فلا يمرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله، قال: فيلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله وعن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة. فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم كذلك يرى ويسمع، ما شاء الله أن يمكث، ثمّ جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله، وهو بحِراء في شهر رمضان[1].

1 . انظر ص 234 – 235 من القسم الأول من سيرة ابن هشام.

إذا كان هذا الخبر صحيحاً فلماذا حار النبي صلى الله عليه وسلم فيما جاءه من الوحي أوّل مرة وشعر بالخوف وراح يفضي إلى زوجته بما رآه فإذا لم يجد عندها الجواب المقنع انتقل كلاهما إلى ورقة بن نوفل يستغيثانه؟

وما حاجته إلى أن يسأل ورقة بن نوفل في الوقت الذي كانت فيه الأشجار والأحجار تحييه وتسلّم عليه بتحية النبوة وسلام الرسالة؟

إنّ من حقنا أمام هذا السيل من الأخبار الخاصة بالمعجزات التي قيل أنها جرت على يديه أو رافقت بعض مراحل حياته أن نتوقف قليلاً أو كثيرا وأن نمتنع عن تصديقها.

ولا شك أنّ نفي هذه المعجزات وإنكارها هما قوة لدعوة الإسلام وتوكيد لأصالتها التي تتميز في أسلوبها عن أساليب الدعوات السماوية السابقة.

ولا غرابة في أن تستقل الدعوة الإسلامية بطابعها الحواري المميز، فقد قدّر لها أن تكون خاتمة الدعوات وأن تكون آياتها مرافقة لها في كلّ زمان ومكان. ولما كانت المعجزات المادية ذات طابع محلي في المكان والزمان... ولما كانت عالمية الدعوة الإسلامية واستمراريتها بعد انقضاء عصر النبوة في حاجة إلى آيات تتّفق مع صفتيها هاتين، فقد اختارت العناية الإلهية سلاح الإعلام الذي يستند إلى وعي العقل ونور القلب وقوة البيان.

وليس عبثاً أن القرآن الكريم قد شدد على ظاهرة الإعجاز البياني وتحدّى بها جهابذة اللغة وفصحاء العرب في ذلك العصر وفي كلّ عصر بعده.

ومما يدلّ إلى أنّ العناية الإلهية قد جعلت من الإعجاز البياني، المتميز بالحوار المتصل والمستند إلى ملكات العقل والقلب ووعيه، آية باقية على الزمن، ما جاء في القرآن الكريم من أنّ الله سبحانه وتعالى قد تعهّد بحفظ ما أنزله من وحي السماء في قوله تبارك وتعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[1] في الوقت الذي ترك فيه مصير الانجيل والتوراة لأهلهما يتولّون مهمة الحفاظ عليهما فأدخلوا فيهما من التحريفات ما لا يختلف عليه المحققون من المؤرخين. ورد هذا المعنى في قوله عز من قائل: (إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ)[2].

---

1 . من الآية 9 من سورة الحجر.

2 . من الاية 44 من سورة المائدة .

ثمّ تعيّن آية تالية دور القرآن في جملة الكتب السماوية وتعلن هيمنته عليها باعتباره الوحي السماوي النهائي الذي قدّر له أن يكون للناس أجمعين وللعصور كلّها في قوله عز وجل: (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (48))[1].

فالقرآن كما يقرر الوحي السماوي مصدق لما بين يديه مما جاء قبله من الكتب السماوية، ومهيمن عليها، وهو الحكم الفصل في كلّ قضية مطروحة والهادي إلى صراط مستقيم. أما قوته فهي في ذاته أي في بنيته اللغوية والفكرية، في جملة تعاليمه وأوامره ونواهيه، وهذا لا يتعارض مع التباين الذي ظهر بينه وبين ما سبقه من الكتب السماوية في بعض الجوانب فإنّ لكلّ أمة في كلّ عصر شرعة ومنهاجاً قبل تمام الدعوة الإسلامية. فلما جاء الإسلام كان القرآن هو كلمة الله النهائية للبشر في ضوء ما حققته البشرية من النضج.

وخلاصة القول أنّ المعجزة الكبرى التي ظهرت مع الإسلام ولا تزال ترافقه حتى اليوم وسترافقه حتى يوم يبعثون هي معجزة القرآن باعتباره مستوعباً لرسالة الحق على صورة تنوّعت فيها أساليب الدعوة وتعدّدت وجوه الجدال فيها داخل إطار واسع هو إطار الإعلام القائم على الحوار المفتوح.

***

والجدير بالذكر أنّ الفترة التي عقبت هجرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة المنورة قد تميزت بأنشطة طبيعية واقعية تعاقبت فيها وقائع الربح والخسارة وكانت المعارك سجالاً بين الفريقين ثم انتهت بانتصار موجة الإيمان المتمثلة في أفواج المسلمين وخضوع مكة لهم.

كلّ ذلك لكي تكون لمسيرة الإسلام صفة الواقعية والاستمرار والقدرة على مواجهة المتغيرات في العصور اللاحقة.

وليس أدلّ على ذلك من المواقف الحاسمة التي وقفها المسلمون أمام الأزمات العارضة... فكان النصر حليفهم في يوم بدر الكبرى، وكانت النكسة المحدودة نصيبهم يوم أحد، ثمّ كانت الأزمة الكبرى التي واجهوها يوم معركة الأحزاب، ومن بعدها كانت أزمة الانضباط التي برزت يوم الحديبية وميزة بعد النظر عند النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم. حتى إذا جاء يوم

1 . الآية 48 من سورة المائدة .

الفتح العظيم على أبواب مكة ظهرت حصيلة القوة المعنوية إلى جانب التعبئة العسكرية التي تميز بها المسلمون. واخيراً كان يوم حنين الذي كف الناس عن غرورهم وعرفهم بحدودهم التي يجب أن يقفوا عندها فانتصروا فيه بعد أن كادوا يتعرّضون لهزيمة منكرة رغم كثرة عددهم وعدتهم.

***

والثابت أنّ المحاورات المستمرة التي كانت تجري بين المسلمين بعضهم مع بعض ثم بينهم وبين الرسول صلى الله عليه وسلم حامل رسالة الوحي، وأنّ حسن الإفادة من الأزمات الناشئة والمواقف المصيرية التي كانت تواجه المسلمين، هذه وتلك كانت مادة إعلامية لتصحيح السلوك وبعث الحركة في مسيرة الدعوة مما يطلق عليه اليوم اسم "النقد الذاتي" الذي يتمّ بعون من وحي السماء يدل الناس على مواطن الخطأ ويسدّد خطواتهم حين تتعثر بهم الطريق.

أي أنّ المسيرة الإسلامية فيما سوى الوحي السماوي الذي يسدّد ويصوب ويصحح، وقد يلوم ويندّد، هي المسيرة التي كانت تنطلق في ضوء المبدأ التربوي الخالد مبدأ التجربة والخطأ.

وهذا يعني أنّ المعجزات المادية التي تخرق قوانين الطبيعة والتي جرت مثيلاتها على أيدي أنبياء ورسل سابقين، لم تقم بأي دور إيجابي ظاهر في عصر محمد صلى الله عليه وسلم.

**

أما ما ورد في القرآن الكريم مشيراً إلى المساندة التي قام بها الملائكة للمقاتلين المسلمين يوم بدر الكبرى فهو ظاهرة لا يستقل بها عصر النبي عليه السلام بل يمكن أن تتوفر لكلّ عصر في كلّ مكان حين يتصرّف المسلمون في ضوء ما أمر الله به.

يبدو هذا المعنى في قوله عز وجل: (إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ)[1].

وهذا يعني أنّ العون الالهي الذي يحقق النصر مقدور لكلّ جيل مسلم حين يلتزم هذا الجيل بأوامر الله ونواهيه بغض النظر عن الشكل الذي يتحقّق به هذا العون.

1 . انظر الآيتين: **124 – 125 من سورة آل عمران.**

فالنصر إذاً لم يكتب للمقاتلين يوم بدر فقط ولم يكن وقفاً عليهم بل هو مكتوب لهم في كلّ يوم من أيامهم التاريخية. ولا يتعارض هذا الرأي مع ما روي في سورة آل عمران عن الملائكة الذين أمدّ الله بهم جماعة المسلمين في بدر[1]. فالله عز وجل لا يلتزم لنوع واحد من المدد وطريقة واحدة من العون.

وفي ضوء هذه الرؤية يمكننا أن نرد ما روي في بعض كتب السيرة النبوية الشريفة من أنّ بعض الناس قد رأى رجالاً جاؤوا من عالم الغيب يقاتلون إلى جانب المسلمين. وقد اختلف الرواة في وصف أعمال هؤلاء الرجال ووصف الثياب التي كانوا يلبسونها.

منهم من سمع كلاماً يقولونه كما سمع حمحمة خيولهم ومنهم من لم ير أحداً منهم ولكنه شهد رأساً من رؤوس المشركين تسقط بضربة خفية قبل أن يبلغ سيفه رأس عدوه إلخ.

نقول هذا التزاماً منّا بالمبدأ الذي قررناه من أنّ ما جرى يوم بدر يمكن أن يجري في كلّ موقف يقفه المسلمون من عدوهم في ضوء قوله عز وجل: (إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ).

وإذاً فإنّ ما حدث لا يستقل به يوم بدر بل ينسحب على كلّ يوم من أيام المسلمين الصادقين في سلوكهم وقتالهم. أي أنّ العون الإلهي حق لكلّ مسلم لأنّ الله عز وجل قد ألزم به نفسه ضمن شروط معينة.

فإذا ثبت في الصحيح من الرواية أنّ معجزة قد وقعت في موقف من المواقف فإنّ هذه المعجزة لا تقلل أبداً من جوهر المنهج الذي ألزم الله به رسوله عليه السلام والمسلمين كافة حين شرط انتصارهم بأساليب ووسائل نابعة من الصدق في العمل، والانضباط في السلوك، والإخلاص في العقيدة. والجهاد في الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة. وبتعبير آخر، نابعة من النشاط الإعلامي في مختلف وجوهه.

---

1. جاء في ص 633 من سيرة ابن هشام تحت عنوان: " شهود الملائكة وقعة بدر " ما يلي:

" قال ابن اسحاق عن ابن عباس قال: حدثني رجل من بني غفار قال: أقبلت انا وابن عم لي حتى أصعدنا في جبل يشرف بنا على بدر، ونحن مشركان، ننتظر الوقعة على من تكون الدبرة " الدائرة " فننتهب مع من ينتهب. قال فبينما نحن في الجبل، اذ دنت منا سحابة، فسمعنا فيها حمحمة الخيل، فسمعت قائلا يقول: أقدم حيزوم، فأما ابن عمي فانكشف قناع قلبه، فمات مكانه، وأما أنا فكدت أهلك ثم تماسكت.

وفي رواية أخرى في الصفحة نفسها: " عن عبد الله بن عباس قال: كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضاً قد أرسلوهم على ظهورهم، ويوم حنين عمائم حمراً. " كما روي في الصفحة نفسها عن علي ابن أبي طالب قوله: " العمائم تيجان العرب، وكانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضاً قد أرخوها على ظهورهم، إلا جبريل فإنه كانت عليه عمامة صفراء". وهناك روايات أخرى لم نوردها اكتفاء بما أثبتناه في هذا الهامش.

ومما يلفت النظر أن حديث هرقل الذي ورد فيه وصف لعلاقة محمد صلى الله عليه وسلم بالمشركين ولوضع المسلمين الذين استجابوا لدعوة الإيمان هو توكيد لواقعية الأساليب التي توسّلتها الدعوة الدينية بكلّ ما في هذه الأساليب من خصائص الصراع الإنساني وطبيعة الإيمان..من مثل أنّ النبي عليه السلام كان يخوض حرباً هي سجال بينه وبين المشركين ومن أنّ أكثر أتباعه من ضعفاء الناس ومن أنهم لا يرتدون عن دينهم ومن أنهم يزيدون ولا ينقصون[1] إلخ. وهذا كلّه إعلان عن أنّ قوة المسلمين موصولة بصفات يحققها الإيمان والجهاد والصدق في المواقف دون تدخّل مباشر من المعجزات المادية على الطريقة التي استعان بها الأنبياء والرسل السابقون.

الواقع أنّ هرقل، إن صح ما روي عنه، قد وضع صورة علمية دقيقة وشاملة لنموذج بشري يتميّز بصفات الكمال الممكنة في حدود ما تطيقه الملكات الإنسانية الطبيعية.

ونحن لا نبالغ حين نقول: أنّ هذه الصورة التي وضعها هرقل الروم لشخصية نبي تستند إلى قوة الخلق وفصاحة اللسان ووضوح الفكر وبراعة الجدال وطهارة القلب دون سواها من عناصر القوة التي قد تأتي بها معجزة تتدخل لإنقاذ موقف أو للردّ على ادعاء أو لإدهاش مُشاهد وإسكاته، نقول: نحن لا نبالغ إذا وجدنا في هذه الصورة شيئاً شبيهاً بمعادلة رياضية دقيقة لا تخطىء الحساب ولا تضل عن التوازن في طرفيها. وهذا يعني أنّ صورة النبوة كما جاء بها هرقل ليست لنبوات السابقين على محمد صلى الله عليه وسلم بل صورة قابلة للانطباق على محمد صلى الله عليه وسلم وحسب.

---

1 . جاء في الحديث الخامس من المجلد الأول من صحيح البخاري عن عبد الله بن عباس أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجارا بالشام في المدة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ماد " هادن " فيها أبا سفيان وكفار قريش. فأتوه وهم بايلياء " بيت المقدس " فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه، فقال: أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبوسفيان: فقلت أنا أقربهم نسبا. فقال أدنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم أني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليّ كذبا لكذبت عنه.

" ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت هو فينا ذونسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا قال فهل كان من آباته من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر ؟ قلت: لا. ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه ؟ قلت نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه. قال: بماذا يأمركم ؟ قلت: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباءكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة.

فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذون سب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها. وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول قط قبله؟ فذكرت أن لا. فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتسى بقول قيل قبله. وسألتك: هل كان من آبائه من ملك. فذكرت أن لا. قلت: رجل يطلب ملك أبيه. وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا. فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. وسألتك: اشراف الناس أتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل. وسألتك: أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. وسألتك: أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا. وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب. وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أن لا. وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك: بما يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا. وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف. فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين. وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم. فلو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه... إلى آخر الحديث.

إنّ محمد بن عبد الله هو وحده الذي خاض معركة الدعوة إلى الله بوسائل بشرية، وإمكانات بشرية. وقد جاءه التأييد السماوي على الصورة التي يجيء بها هذا التأييد للأمة الإسلامية كلّها. أي أنّ هذا التأييد داخل بأبعاده في حدود السنن والقوانين التي فرضتها العناية الإلهية للأجيال الإسلامية بخاصة والبشرية بعامة.

تتأكد هذه الحقيقة حين نقوم بقراءة ثانية للحوار الذي جرى بين هرقل الرومي وأبي سفيان الزعيم القرشي... إنّه كما هو ظاهر لكلّ ذي عينين، لم يشر من قريب أوبعيد إلى ظاهرة الإعجاز المادي على نهج الأنبياء والرسل السابقين.

قضية الإسراء والمعراج:

أما فيما يتعلّق بالمعراج فهو خبر جاء صريحا في بعض الروايات الحديثية ونحن نقصر دراستنا هنا على النص القرآني الكريم.

ولذلك فإنّنا نقف عند الإسراء وحسب الذي ورد فيه قوله تبارك وتعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)[1].

هذا كلّه ما نعلمه بوضوح ظاهر وإشارة مباشرة حول حادث الإسراء في كتاب الله عز وجل. فحادث الإسراء إذا حقيقة لا نشك فيها أبداً. لا لأنه معجزة غير عادية بل لأنّ القرآن قد أخبر عن حدوثه.

تقييم المعجزة عامة:

وقبل أن نتحدّث عن طبيعة الإسراء والدور الذي قام به هذا الحادث في ميدان الدعوة إلى الله كظاهرة إعجازية ذات أغراض تربوية... يجب أن نقرر حقيقة أساسية هي أننا لا نقول ولا يمكن أن نقول بأنّ المعجزة كظاهرة خلقية غير موجودة. الواقع أنّ كلّ شيء يواجهنا في الدنيا هو معجزة تتكرّر في كلّ ثانية.

1 – استمرار الحياة معجزة.

2 – بقاء التكوين العالمي أي استمرار حركة الكون ابتداء من الذريرة حتى المجرات هو معجزة خالدة.

3 – الملكات التي نمارس بها حياتنا اليومية ونبني بها حضارتنا هي ظاهرة إعجازية...خروج الحياة من الأرض الموات وعودة الحياة الخضراء إلى تراب الأرض هما ظاهرتان إعجازيتان.

والقرآن الكريم حافل بالإشارة إلى هذه الظاهرات الإعجازية التي تواجهنا حيث تلفتنا ونظرنا... ولا يقلّل من قيمة الإعجاز الخلقي أنه يتكرّر في كلّ ثانية بل في كلّ جزء من الثانية من كلّ دقيقة من كلّ ساعة من ساعات الليل والنهار.

---

1 . الآية 1 من سورة الإسراء

خروج الحي من الميت وخروج الميت من الحي من مثل النبات الذي يخرج من الأرض الميتة بعد أن تسقى بالماء... أليست هذه الظاهرة معجزة مستأنفة في كلّ مرة تتحقق فيها؟ والتحولات التي يمر بها الحيوان المنوي بعد إخصابه للبويضة في رحم المرأة، أليست هي نفسها معجزة مستأنفة في كلّ مرة تتحقق فيها؟

ولوشئنا أن نورد ما عرض له الوحي السماوي من هذه الوقائع لوجب أن تصدع النفوس عند أصحاب البصائر الواعية لعظمة الخلق الإلهي المعجز[1]. لكننا هنا نقتصر على تقرير واقع الإعجاز الدائم الذي يستأنف بأمر من الله عز وجل في كلّ يوم.

هذا النوع من الإعجاز ليس ما نقصد إليه حين نفكر أن تكون المعجزة المادية وسيلة من وسائل الدعوة الإسلامية وسلاحاً تلجأ إليه لإثبات وحدانية الله عز وجل أو لقهر أعداء الله.

إنّ المعجزة التي تتكرّر في كلّ دقيقة تتحول إلى قانون تغفل عنه النفوس وتألفه ألفها للعادة. أما المعجزة التي نتحدث عنها فهي التي تدخل في نطاق السياسة النبوية حين يتعامل بها النبي المرسل مع الناس لإثبات حقيقة معيّنة أو للردّ على موقف معين أو لإحداث أثر خاص... كتحويل العصا إلى أفعى وإحياء الميت وشفاء الأعمى وإنزال مائدة من السماء إلخ.

***

معجزة الإسراء

فأين نضع معجزة الإسراء التي ورد ما يؤكدها في كتاب الله؟

أول ما يلفت النظر فيها أنها رواية رواها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يشاركه في معاينتها أحد غيره. مع العلم أن المعجزات التي جاءت بمثابة سلاح للدعوة السماوية عند السابقين من الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم يشارك في معاينتها كلّ الناس الحاضرين لأن المقصود بها هو تأديبهم أوتهذيبهم أوإدهاشهم وتخويفهم.

أما معجزة الإسراء فقد كانت روايتها للناس في الحقيقة فتنة لهم وامتحاناً لإيمانهم وتقييما لمدى وعيهم بمفهوم الوحدانية وإدراكهم لعظمة الإرادة الإلهية. والدليل على ذلك ما يروى على لسان أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين سئل عن رأيه في خبر الإسراء من أنه قال: إنني أصدّقه فيما يرويه من خبر السماء أفلا أصدّقه فيما يرويه من خبر الأرض؟

---

1 . **نورد في هذا المعنى على سبيل التمثيل لا الحصر الايات التالية:**
أ – أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21)) سورة الغاشية .
ب- إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164) سورة البقرة .
ج – وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (22) سورة الروم.

هكذا يكون هذا الصحابي الجليل قد نجح في الامتحان وتغلّب على وسوسات الفتنة فأثبت إيمانه وكشف هو وأمثاله عن عمق إدراكهم للقدرة الإلهية المعجزة وعن ثقتهم المطلقة بما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم من الأخبار.

والمقياس في مثل هذا الموقف هو هذه اللطيفة النورانية التي تعارفنا على تسميتها بإسم الهداية أو الوعي أو أي شيء من قبيل ذلك.

لهذا كلّه لا نجد أي تعارض صريح بين قولنا: أن رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم لم يستعن بالمعجزات المادية لإثبات دعوته وتوكيد رسالته شأن الأنبياء والرسل السابقين بل استعان بمعجزة واحدة خالدة هي القرآن الكريم، وبين تصديقنا لمعجزات الأنبياء والرسل السابقين.

وعندما نقول "قرآن" فنحن نقصد الأسلوب الإعلامي الذي جاء مطابقاً لفطرة البشر مستهدفاً ملكات الإنسان العقلية والروحية والنفسية، معتمداً على الوعي الفطري عند الإنسان. وهو وعي مشترك عند كلّ الناس في كلّ الأجيال.

والوحي السماوي حريص على إبراز هذه الظاهرة الفطرية في طبيعة لغة الدعوة إلى الله والأساليب التي استعانت بها (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)[1].

من أجل ذلك رأينا أنّ المعجزة الكبرى والوحيدة التي جاءت صالحة لعصر النبوة ولكلّ عصر بعدها هي معجزة القرآن... ذلك الكتاب القيّم الذي يتوجّه إلى فطرة الإنسان ويعمل على إعادة التوازن إلى ملكاته الإدراكية الواعية وبالتالي إلى زلزلة الانحرافات التي تصنعها الخرافات والأساطير أو تدفع إليها الغفلة والعمى في البصائر: (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)[2]، (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ)[3].

خلاصة:

فإذا ثبت لنا مما اخترناه من الشواهد وسلطنا عليه ضوء العقل الذي منحتنا إياه العناية الإلهية ملكة نتدبر بها ما جاء في الوحي السماوي، نقول: إذا ثبت لنا أنّ الإعجاز الوحيد الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو القرآن الكريم. وإذا علمنا أن القرآن هو كتاب من عند الله جاء ليعلم الناس ويبلغهم رسالة السماء على نحو يتميز بكلّ فنون الإعلام وطرائقه وشروطه التي

1 . الآية 30 من سورة الروم.
2 . من الآية 46 من سورة الحج.
3 . الآية 37 من سورة ق.

عرفها الإنسان حتى يومنا هذا فإنّ من الطبيعي جداً أن نسلط الضوء على هذه الطرائق والفنون التي تميز بها كلام الله في تعامله مع العقول والقلوب والنفوس البشرية.

ولا شك أنّ النموذج القرآني هو إعلام متميز لأنه جاء رحمة من رب العالمين ولأنه أثبت فعاليته المطلقة في التعامل مع البشر. ولعلّ أبرز ما يلفت النظر في هذا الكتاب السماوي ويعطي دراسة الجانب الإعلامي فيه قوة غير عادية ويساعد على فهم أسرار النفس البشرية هو إتفاق الباحثين من العلماء المدققين والمنصفين على أنه الكتاب الذي حافظ على صحة نصوصه فلم يدخل عليه أي تغيير أو تبديل رغم تعاقب آلاف المفسرين والرواة في عدد من القرون، ورغم الكوارث السياسية والعسكرية والاقتصادية والظروف البيئية التي واجهها المسلمون خلال هذه الفترة الطويلة من التاريخ، ورغم تنافس الفرق على تأويل ما جاء فيه مع العلم أنّ من بينها ما هو مدسوس على الإسلام ومن بينها ما هو متأثر بالمذاهب الغربية الوافدة... نقول: أنّ هذا كلّه مصدّق لما جاء في قوله عز وجل: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ).

هكذا نستطيع أن نتحرّى الخصائص والصفات الإعلامية التي نتعلم منها كيف نتحاور لا مع أنفسنا وحسب بل مع الناس جميعاً وكذلك مع ظاهرات الخلق كلّه... مع كلّ ما في السماوات والأرض من مجرات وفلك دوار... مع الطبيعة الجامدة في الأرض... مع الحياة النامية من النبات... والحياة المتحركة في الحيوان والحياة المدركة الواعية في الإنسان.

ولا شك أنّ هذا الفكر الذي نستوعب به، في حدود ما نملك من القدرة على الفهم، أساليب التحاور مع غيرنا، يرتكز إلى مبادئ أساسية عامة كما يتّصف بصفات متعددة. ولذلك فسنحاول في الباب التالي من هذه الدراسة أن نسلط الضوء على المبدأ أو المبادئ العامة من ناحية وعلى الصفة أو الصفات المتعددة من ناحية أخرى.

الباب الثاني

الفصل الأول

الإعلام القرآني والحرية

الثابت أنّ الحرية مطلب أساسي من مطالب البشر في كلّ عصر. ولو شئنا ان نقيم الحضارات البشرية التي تعاقبت عبر العصور لكانت صورة الحرية وحقيقتها في كلّ حضارة من الحضارات هي المقياس الذي تقيم به هذه الحضارات.

أوليس أنّ المعارك التي خاضتها الشعوب في كلّ جيل من أجيالها منذ فجر التاريخ حتى اليوم كانت ولا تزال من أجل الحصول على الحرية؟

أوليس أنّ كلّ جهد بذله الإنسان ويبذله في التعامل مع نفسه ومع الآخرين ومع ما ظهر من أشياء الخلق حوله وما خفي منها هو من أجل أن يضمن لنفسه الحرية التي يحلم بها ويطمح إلى ممارستها؟

***

والحرية كلمة واسعة الأبعاد غنية المضمون تستمد مادتها من الفطرة التي فطر الإنسان عليها...

فالحرية قد تكون حرية من الخوف... وقد تكون حرية من الجهل وقد تكون حرية من الحاجة... وقد تكون حرية من الجمود... وقد تكون حرية من الزمان والمكان إلخ...

1)الإنسان يكافح ليتحرّر من الخوف الذي يسببه له سلطان قوي ظالم... ولا شك أنّ ثورات أفراد كثيرين وشعوب عديدة كانت للتحرّر من السلطان الذي يخيف أصحابها ويدمر طمانينتهم ويشكّل تهديداً لأمنهم في حاضرهم ومستقبلهم.

2)والإنسان يكافح ليتحرّر من جهله بما يجري حوله... أي ليتحرّر من الغموض الذي يحيط به ويثقل عليه حين يقلب نظره في فضاء الدنيا من حوله... في نجوم السابحة في الفضاء والكواكب السيارة. في طبيعة الشمس التي ترسل النور والحرارة إليه، في حقيقة القمر الذي يطيف بالكرة الأرضية، في ظاهرات الحياة والموت والصحة والمرض، فيما يحيط به ويثقل عليه من الأسرار الخاصة بالعالم الذي خرج منه والعالم الذي يضطرب في جوانبه والعالم الذي سيصير إليه بعد الموت... هذه الخفايا كلّها تلح عليه ان يقتحم جدرانها ويستكشف ما وراءها. ولعل تاريخ الإنسان كلّه ان يكون ملحمة ذات فصول دائمة لعمليات الإستكشاف التي يقوم بها ليحرر نفسه من ظلمات الجهل التي تتزاحم حوله فتغشي عليه طريقه.

3) والإنسان يجاهد ليتحرّر من الإحساس بالحاجة... الحاجة إلى الطعام والشراب، والحاجة إلى الكساء، والحاجة إلى السكن... ولذلك فقد سجل في تاريخ القرون الماضية تحوّلات هائلة في طريقة الحصول على غذائه وعلى كسائه وعلى مسكنه. ولا شك أنّ الحروب التي خاضها والتضحيات التي قدمها والأسلحة التي اخترعها كانت إلى حد غير قليل للتحرّر من كلّ أنواع الحاجات... ولا يزال حتى يومنا هذا رغم الثراء العريض الذي حققه، ومصادر التغذية والكسوة والسكن التي توصل إليها، إنّه لا يزال حتى يومنا هذا يجاهد من أجل التخلص من شبح الحاجة الثقيل.

4) والإنسان أيضاً يجاهد للتخلص من الجمود... فهو لا يطيق السكون والبقاء مثبتاً في مكان واحد... إنّه يريد أنّ يتحرك... لأنّه لا يشعر بكمال حياته إلا بالحركة... وإذا كانت الهجرات البشرية التي ترسم طريق التاريخ وتحدّد مسيرات الحضارات البشرية كانت ولا تزال حقيقة قائمة فليس ذلك للحصول على مصادر الرزق وحسب بل خضوعاً للرغبة في الحركة والتنقل أيضاً. ولنا في الهجرات التي حدثت على صورة الانفجار البشري الكبير أو على صورة خفية بطيئة، الآية والعلامة. بل إنّ في وسعنا القول بأن عظمة الحضارة مشروطة في بعض وجوهها بالقدر الذي يؤمن فيه أصحابها بحرية التحرك وبالحاجة إليه.

5) والإنسان أخيراً يكافح بكلّ ما يملك من القوة للتحرّر من المكان والزمان... أي أنّه يعمل على استيعاب كلّ مكان ممكن بالتحرّك فوقه كما يعمل على استيعاب كلّ زمان يمكن أن يحتفظ فيه بحياته... أي أنه يحلم بالهيمنة على امتداد المكان كما يطمح إلى الخلود... وقد توسل لتحقيق هذين الغرضين كلّ وسيلة ممكنة... فإذا عجز عن تحقيق غرضيه هذين توسل الوهم لتحقيقهما أوتوسل من الوهم الجزء الذي يكمل به ما حققه فعلاً من هذين الغرضين... فهو يسعى إلى التملّك ليشعر نفسه بقدرته على استيعاب أكبر قدر من المكان ويسعى إلى إطالة حياته قدر المستطاع فإذا تبيّن له أنّ الموت قدر لا سبيل إلى تجنّبه انصرف إلى تحقيق بقائه في فكر ينشره ويبقى بعده أو خلف يخلفه فيمثل استمرار وجوده أو ضجة يحدثها لتبقى له بها ذكرى في نفوس الأجيال التالية أو عمل يمارس الدور الذي كان يقوم به في أثناء حياته إلخ...

***

وإذاً فالحرية مطلب أساسي من مطالب الإنسان... بها يتحقق ازدهاره... وعن طريقها يتفتح عقله وتنمو ملكاته... وبفضلها يصنع إنجازاته كلّها...

والناس يتفاوتون في قدراتهم على تحقيق هذه الحرية... لكنّها تبقى، رغم تباين حظوظهم منها، القاسم المشترك الذي يشد بعضهم إلى بعض، كما تبقى الأرضية المشتركة التي يتحرك فوقها الجميع ليحيوا هذه الحياة الدنيا.

يترتّب على هذه الحقيقة البشرية الثابتة أنّه لا حضارة للبشر إلا بممارسة الحرية... ولا مستقبل للبشر إلا انطلاقاً منها... وبالقدر الذي يتمتّع فيه الناس بحرياتهم تتكامل حركة الحياة.

***

لكنّ هذا لا يعني أنّ الناس كلّهم يحسنون التصرف بحرياتهم. فمنهم من يسوء فهمه لها فيظنّ أنّ الحرية حق له من دون الناس فإذا به يصطدم بغيره وبدلاً من أن تصبح حرية الفرد بركة عليه ومصدر خير له تتحوّل إلى مصدر للشرّ كما تصبح صانعة للمآسي. ولسنا هنا بصدد الحديث عن الحرية المطلوبة أو بصدد تعيين حدودها وأبعادها. إنّ مهمتنا هي تقرير أنّ الحرية حقيقة إنسانية ومطلب إنساني خالد.

***

ولما كان الإعلام متمثّلاً في عمليات الاتصال بالجماهير... ولما كان أداة للتعامل مع العقول والقلوب والنفوس والملكات المتعدّدة التي يعمل بها ويتحرك... ولما كان الإعلام هو الوسيلة الوحيدة لاستمرار التراث البشري وانتقال ثروات الحضارة من جيل إلى جيل فإنّ من الطبيعي أن يكون الإعلام الناجح هو الإعلام الذي يستند إلى حرية التفكير ويتسلّح بقول الحقائق ويستعين بالمصارحة في التعامل مع الأخرين. ذلك لأنّ أداة التحضر هي يقظة الملكات المختلفة على أهداف الحضارة أي على الحريات التي تحدثنا عنها قبل قليل.

وإذاً فالإعلام الحقيقي هو الموصول بالحقائق الفطرية التي فطر الإنسان عليها وهي في جملتها متمثلة في حرية الاختيار والتصرف والتفكير ضمن قوانين ومسؤوليات متعارف عليها.

***

ولما كان الإعلام القرآني عملية تحاور مع البشر في حدود الحفاظ على حريتهم في الاختيار، وثم تحميلهم المسؤولية المترتبة على هذا الاختيار، فقد طرح القرآن قضية الحرية باعتبارها الأساس الذي لا غنى عنه لصنع المصير في الدنيا وفي الآخرة.

لقد رفض خطة فرض العقيدة بالإكراه والقوة... وشدّد على حقّ الإنسان في الاختيار... وحمّله مسؤولية الدفاع عن حريته بحيث يحاسبه بعد ذلك فيسأله عن عقله كيف تصرف به، وعن ماله أين وضعه، وعن أعماله كيف فعل بها... وعن أخلاقه كيف تعامل بها.

إنّ حرص القرآن على توفير الحرية بإعتباره كتاباً إعلامياً يدعو إلى الله ويدل الناس إلى طريق الحق ويعلمهم كيف يصنعون حياتهم ويحاورهم في الأساليب التي يلجأون إليها وهم يصنعون هذه الحياة. إنّ هذا الحرص القرآني هو الذي يفسر الحاجة على توفير الحريات للناس.

يقول عز من قائل: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[1].

ثمّ يجاوز القرآن كلّ حد في التعبير عن هذا الحرص في توفير حرية في الإختيار واتخاذ العقيدة التي تروق له حين يلحّ على النبي المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم أن يمتنع عن إكراه الناس على الدخول في دين الله حتى عن طريق الضغط المعنوي فيقول له: (وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ)[2] ويقول أيضاً: (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۗ)[3].

***

على أن القرآن لا يقف عند الحرص على توفير حرية الاختيار والتفكير والسلوك عند الإنسان بل يجاوز هذا الحد ليعلن للإنسان نفسه أنّ الحرية البشرية هي أمانة يفترض فيه أن يقوم بها على الوجه الأكمل... فإذا كنت حريصاً على حريتك أيها الإنسان، وهذا حق لك، فاعلم أنّ الحرية فطرت عليها... وأنّ لها شروطها الكثيرة. منها أن تستضيء بالفطرة التي فطرت عليها... وأن تعمل في حدود الحفاظ على حقوق الآخرين في ممارسة حريتهم. وقد أطلق على هذه الحرية اسم (الأمانة) لأنّه اعتبرها مسؤولية قد اؤتمن الإنسان عليها. ولذلك يترتب على ممارستها حساب ينتهي به إلى جنات النعيم أو إلى جهنم وبئس المصير. كما يقرّر في الوقت نفسه بأنّ أمانة الحرية حمل ثقيل قد أشفقت منها السماوات والجبال والأرض. فعليك أيها الإنسان أن تفكر طويلاً في ممارستها وأن تستعين بكامل إرادتك الخيرة ووعيك بحدودك كفرد في المجتمع للنهوض بها. يقول عز من

1. الآية 256 من سورة البقرة.
2 . من الآية 54 من سورة النور.
3 . من الآية 48 من سورة الشورى.

قال: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ ۖ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا)[1].

والتعليم القرآني الذي يجعل من الحرية في الاختيار قاعدة أو مبدأ ثابتاً في الدعوة إلى الله قد انطلق من مبدأ آخر أيضاً لا ينفصم عن المبدأ الأول. هذا المبدأ هو تقرير الامتياز الإنساني. فالإنسان في تقدير الله عز وجل قد امتاز من سائر الكائنات إلى درجة أنّه استحق سجود الملائكة له. وقد سبق أن قررنا هذه الحقيقة في الباب الأول حين تحدثنا عن آدم عليه السلام باعتباره النموذج الذي يمثل أقصى ما يمكن توقّعه من الكمال البشري. ولذلك فإنّنا لا نعود إلى هذا الموضوع بل نقتصر على إيراد آية قرآنية واحدة على سبيل التذكير وحسب. قال تبارك وتعالى في محكم تنزيله: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)[2].

وهذا يعني بالطبع أنّ الإمتياز البشري من ناحية والحرية من ناحية أخرى هما اللذان التزم بهما الإعلام القرآني. والامتياز هنا شيء داخل في مفهوم الحرية... إذ لا حرية دون امتياز... ولا حرية دون التزام مسؤول... ولا حرية دون حق صريح في الاختيار.

1 . الآية 72 من سورة الأحزاب.
2 . الآية 70 من سورة الإسراء.

الفصل الثاني

الإعلام القرآني وقول الحقيقة

تحدّثنا في الباب الأول من هذا الكتاب عن الإعلام والدعاية كما أشرنا إلى دور التعليم وغيره من الأنشطة التي تتصل بالإعلام على نحو من الانحاء. لكنّنا ميّزنا في الوقت نفسه ظاهرة الإعلام وبيّنا الفرق بينها وبين سواها من الأنشطة المشابهة لها. وكان مما ميزناها به أنها تستند إلى قول الحقيقة وعرض الموضوعات بصدق.

ولا عجب في أن يكون الإعلام موصولاً بالعرض الموضوعي وقول الحقيقة. ذلك لأنّ العملية الإعلامية تتعامل مع العقول والقلوب والنفوس. ولما كانت تشترط في مفهوم القرآن الكريم حرية أصحاب العقول والقلوب والنفوس وتحترم امتيازهم الإنساني فإنّ من المفروض أنها تحترم هذه النفوس والقلوب والعقول. فإن لم تفعل فقد سقط حقّها في التعامل معها وفشلت في الفوز بثقتها.

***

والجدير بالذكر أنّ الكثيرين من الأفراد والعديد من الهيئات العامة رسمية كانت أو أهلية قد أساؤوا فهم الرسالة الإعلامية فلم يتردّدوا في قول غير الحق... وفي تزوير الأخبار وتلفيق الوقائع وتزييف الحقائق.

فعلوا هذا ظنّاً منهم أنّ في وسعهم خداع الآخرين وتوجيههم الوجهة التي يبتغونها.. لكنّ الحوليات التاريخية الثابتة لم تلبث حتى كشفت عن عوارهم وأفقدتهم ثقة الناس بهم. كما أثبتت هذه الحوليات أنّ ما كان المزيفون يتوهّمونه من القدرة على تضليل الناس لم يلبث أن أثبت فشل الاكاذيب في اكتساب القلوب وإقناع العقول والهيمنة على النفوس.

***

والحقيقة أنّ تاريخ البشر قد رسم خطاً بيانياً يحدّد الفارق الكبير بين الإعلام المزعوم الذي يستند إلى خطة التضليل والتزييف من ناحية وبين الإعلام الذي يستند إلى قول الحقيقة غير مبال بغضب بعضهم أو رضاه من ناحية أخرى.

فكم من أفكار فقدت رصيدها عند الناس... وكم من عقائد انكشف عوارها عند الملايين ولكن هذا لا يعني أنّ الإعلام المضلّل قد توقف نهائياً عن ممارسة نشاطه... فهو لا يزال حريصاً على التضليل والتزييف ولا يزال الإعلام المستند إلى قول الحقيقة يخوض معركته الدائمة ضد تزييفه وتضليله.

والجدير بالذكر انّ الإعلام المزيف والمضلّل يتّخذ أشكالاً متعدّدة ومواقف متباينة وينادي بشعارات متعارضة. ذلك لأنّه نابع من مصالح شخصية أو أوهام أو جهل بالحقائق أو ضلالات موروثة أو مكابرة وعناد أو وسوسات من الشيطان. فهناك الإعلام المزعوم الذي تصنعه أطماع الدول المعتدية على الشعوب المسالمة... أو الذي تصنعه الرغبة في الكسب السريع. والثابت أنّ الإعلام الأجنبي الذي يغزونا منذ بدأ الاتصال بيننا وبين الحضارة الوافدة قد أرفق منتجاته التكنولوجية بأفكار ونظم ومزاعم يريد بها إطفاء نور الله في الأرض وإشاعة الحيرة في نفوسنا والتغرير بنا. وقد وضعت هيئاته الإعلامية المختصة برامج طويلة النفس تستهدف إلغاء عقولنا وعزلنا عن روح أمّتنا وقطع صلاتنا بتراثنا الديني وعقيدتنا على أمل أن يشدّنا إلى ركاب مسيرة ليست منا ولسنا منها. والواقع أنّ هذا البرنامج هو من الاتساع والتعقيد بحيث يحتاج إلى دراسة مفصلة مستقلة ذلك لأنّه يستوعب كلّ الانشطة الفكرية والأدبية والفنية والخلقية عندنا كما ينتشر في كلّ الميادين التعليمية ولا سيما في المستويات الجامعية ومعاهد الدراسات العليا.

وهناك إجماع عند الحكماء من رجال أمتنا على أنّ أخطر معركة نخوضها في هذا العصر، ويجدر بنا أن نعبّىء لها كلّ ما نملكه من الوعي والحماسة، هي معركة التحرّر من تضليل الإعلام الوافد الذي يستظل بظلّ التقدم التكنولوجي العصري.

***

أمّا الإعلام الذي يستند إلى الحقيقة فهو ذو وجه صريح ثابت لا يتغير رغم تعاقب الأجيال والقرون. إنّه يطلق كلمة الحق ويردّد الشعارات النابعة من الحق وإن اختلفت الاساليب التي يلجأ إليها باختلاف الظروف الحضارية التي يجد نفسه فيها.

وليس أدلّ على ذلك من الدعوة إلى الله كما جاءت على ألسنة الانبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم. فعقيدة الوحدانية هي جوهر الدعوة، ومادة الإعلام، والحق الذي يجري كلّ حوار حوله منذ جاء نوح عليه السلام يبشر وينذر مروراً بمن جاء بعده من الانبياء والرسل.

كما أنّ الوصايا والتوجيهات التي جاء بها رسل السماء لم تتغيّر ولم تتبدّل. فنادى ابراهيم الخليل بالذي نادى به من بعده موسى وعيسى وبالذي ردّده كلّ من ورد ذكرهم فيالقرآن من الانبياء والرسل أو أشير إليهم دون تسميتهم.

والحجّة التي يصدع بها الجميع للبرهنة على طبيعة الدعوة وخطة الإعلام الهادف إلى هداية البشر هي أنّ الحق واحد لا يتغير وأنّ الفكر النابع عنه واحد لا يتغير وأنّ الأخلاق التي يلتزم بها أصحاب هذا الفكر وذلك الحق واحدة لا تتغيّر.

كلّ هذا المعنى نجده في القرآن الكريم وهو يطرح القضايا الأساسية في دين الله. أما فيما يتعلق بثبات الدعوة واستمرارها ووحدتها عبر عشرات القرون فنجد ما يصدّقها ويؤكّدها في قوله عز وجل: (شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ)[1].

ثمّ يؤكد الوحي السماوي أنّ الوحي الذي جاء به محمد عليه السلام هو الوحي الذي جاء به عيسى وموسى من قبله إذ قال: (نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ)[2].

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم)[3].

وعندما تحدّث الوحي السماوي عن الإنجيل الذي نزل قبل القرآن تردّد المعنى نفسه إذ أكّد الوحي الالهي أنّ هذا الكتاب السماوي جاء مصدّقاً للتوراة من قبله. قال تبارك وتعالى: (وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ)[4]. هكذا تتعاقب حلقات سلسلة واحدة. كلّ حلقة فيها توكيد لما سبقها وتصديق لما جاء فيها ذلك لأنّ دعوة الحق واحدة لا تتغير.

لا تسوية ولا مساومات:

والإعلام الهادف إلى نشر عقيدة الوحدانية والملتزم بالأوامر والنواهي الموصولة بها لا يمكن أن ينادى بنصف الحقيقة ولا يوافق على إجراء أي تسوية بقصد الحصول على تأييد مشروط. أي أنّه لا يساوم في الحق ولا يبالي لومة لائم. ولعل فيما روته كتب السيرة حول محاولة قام بها بعض زعماء قريش لتسوية ما حسبوه نزاعاً شخصياً بينهم وبين محمد صلى الله عليه وسلم ما يؤكد وضوح الدعوة إلى الله وصلابتها والوقوف عند الحق الذي تدعو إليه. لننظر فيما رواه ابن هشام في سيرته. ذكر أنّ وفداً من قريش مشى إلى أبي طالب وقالوا له: "إنّ ابن أخيك قد سبّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلّل آباءنا، فإمّا أن تكفّه عنا، وإما أن تخلّي بيننا وبينه، فإنّك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفيكه. فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً، وردّهم رداً جميلاً، فانصرفوا به.

---

1 . الآية 13 من سورة الشورى .

2 . الآية 3 من سورة آل عمران .

3 . الآية 47 من سورة النساء .

4 . الآية 46 من سورة المائدة.

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه، يظهر دين الله، ويدعو إليه، ثمّ شرى[1] الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا [2] وأكثرت قريش ذكر رسول الله بينها فتذامروا[3] فيه، وحضّ بعضهم بعضاً عليه، ثم أنّهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى، فقالوا له: يا أبا طالب، إنّ لك سنّاً وشرفاً ومنزلة فينا، وإنّا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنّا، وإنّا والله لا نصبر على هذا من شتم آباءنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفّه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين. ثم انصرفوا عنه، فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم ولا خذلانه.

فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: يا ابن أخي إنّ قومك قد جاؤني فقالوا لي كذا وكذا، فأبقِ عليّ وعلى نفسك، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق. قال: فظنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قد بدا لعمّه فيه بداء[4] وأنّه خاذله ومسلّمه، وأنّه قد ضعف عن نصرته والقيام معه. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته. قال: ثمّ استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبكى ثم قام. فلمّا ولّى ناداه أبو طالب، فقال: أقبل يا بن أخي، قال: فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً [5].

هذه الرواية ليست الوحيدة التي وردت في كتب السيرة تكشف عن رفض صاحب الدعوة إلى الإسلام الموافقة على أي تسوية أو مساومة تتصل بعقيدة الوحدانية وعن تعلّقه صلى الله عليه وسلم بالرسالة التي حملها إلى الناس كافة، وأعلن في كلّ مناسبة أنّها الرسالة التي جاء بها من قبله كلّ نبي ورسول، وأنّه لم يأت فيها بشيء جديد غير ما تقتضيه ظروف وأحوال لا علاقة لها بصلب العقيدة وتعاليمها الأساسية.

وعلى ذلك فإنّ الإعلام القرآني لا يبالي فيما يدعو إليه وينادى به، وفي طريقة تعامله مع الناس، مصلحة آنية، ولا كسباً سياسياً مرحلياً، ولا يهتم بتحقيق أغراض طارئة. إنّه الإعلام الذي يصدر عن الحق ولا يقول إلا الحق ولا يهدف إلا إلى إظهار دين الحق في الأرض.

---

1 . شري: كثر واشتد.
2 . تضاغنوا: تعادوا.
3 . تذامروا: حضّ بعضهم بعضا.
4 . بداء: الاسم من بدأ. يريد ظهر له رأي، فسمّي الرأي بداء لأنّه شيء يبدو بعد ما خفي.
5 . انظر ص 265 – 266 القسم الأول من كتاب (سيرة ابن هشام).

الفصل الثالث

الإعلام القرآني والخلفية الثقافية المشتركة

لعل الحديث عن ظاهرة الحوار وعن اتساع أبعادها أن يكون عند بعضهم أجدر بالاهتمام وأولى بالدراسة ولذلك فهو يرى أنّ طرح ظاهرة الحوار في ميدان الإعلام القرآني قبل أن يدرس أي جانب آخر من جوانب الفكر الإعلامي عنده.

لكننا اخترنا غير هذا الأسلوب، ورأينا أنّ مناقشة بعض المبادئ العامة ذات الصلة بظاهرة الإعلام، ولا سيما الإعلام القرآني، مقدّمة على ما سواها من قضايا الإعلام ومشكلاته أو ظاهراته الإنسانية والفنية.

***

من أجل ذلك بدأنا بطرح (مبدأ الحرية الإعلامية والإعلام القرآني) ثم عقّبنا على ذلك بطرح (مبدأ الالتزام بقول الحق والإعلام القرآني) أيضاً. ولا عجب في أن نبدأ المناقشة والبحث بالإعلان عن أهمية كلّ من الالتزام بالحرية وقول الحقيقة.

ولعلنا متفقون جميعاً على أنّه (لا إعلام دون حرية) و (أنّه لا إعلام دون التزام بقول الحقيقة) إذ كيف يسوّغ لنا أن ندعى بوجود إعلام سليم صحي في حياتنا الدنيوية، وكيف نستطيع أن نمارس حقوقنا في الاتصال بالآخرين والتعامل معهم إذا لم يكن في وسعنا التعبير بحرية عن آرائنا وحكاية الوقائع ومناقشة الأوضاع بطريقة موضوعية جادة؟

وكيف يسوغ لنا أن نتحدّث عن إعلام سليم صحي ما دمنا لا نلتزم بقول الحقيقة ولا نستعين بلغة صريحة واضحة المعالم خالية من الغموض والإبهام أو من الالتواء الذهني.

إنّ قيمة الإعلام كظاهرة إنسانية ذات دور حضاري فاعل هي في القدر من الحرية التي يتمتع بها، وفي القدر من الالتزام بالحقيقة التي يرعاها.

لكنّ المنهج الإعلامي الذي جاء به القرآن الكريم لا يتميّز بالاستناد إلى مبدأ الحرية المسؤول في القول والتفكير والعمل... وبالالتزام بقول الحقيقة وحسب، بل يجاوز هذين المبدأين ويؤكد أنّ الحرية والالتزام بقول الحقيقة غير كافيين لتحقيق اتصال حميم فعال بين المرسل والمستقبل، إنّه يطالب بتوفير خلفية ثقافية مشتركة بين الطرفين اللذين يتصل أحدهما بالآخر.

إذاً كيف يعقل مثلاً أن يجري اتصال سليم بين إنسانين أحدهما يفكر تفكيراً خرافياً أسطورياً، وثانيهما يفكر تفكيراً علمياً واقعياً؟ الاتصال بين هذين الإنسانين وتوفر التفاهم بينهما وتنظيم حوار بناء لهما أمام كلّ قضية عارضة أو مشكلة مطروحة، غير ممكنين.

***

إنّ اختلاف الأساليب الاتصالية التي جاء بها الانبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم كما ظهر لنا ذلك في القصص القرآني، يعود إلى اختلاف الثقافات الأساسية عند الشعوب التي أرسل إليها رسل السماء.

فهناك مجتمع ضعف حظّه من الوعي وغلب عليه التمسك بما ورثه عن الآباء والأجداد فأصرّ على تجاهل الحق الذي دعا إليه، كما كان الشان في قوم نوح عليه السلام. وهم قوم الذين قضى النبي معهم خمسين وتسعمائة عام يدعوهم فيها إلى عبادة الله عز وجل، وينذرهم من عذاب يوم عظيم، ويحاول اجتذابهم بكلّ حجة مقنعة فلا يجديه ذلك فتيلاً، ثم لا يحصد منهم غير المزيد من المكابرة والسخرية به والإنكار عليه. فإذا بدأ يصنع الفلك بأمر من الله عز وجل وخوّف قومه من عذاب يوم وشيك زادت المكابرة وأصبحت السخرية أكثر حدّة وبلغ الإنكار أقصى حدوده... فكانت اللغة الوحيدة التي توقفهم عند حدودهم وترد عدوانهم هي لغة القوة التي داهمتهم في يوم من الأيام على صورة طوفان عظيم تنبع مياهه من باطن الأرض كما تجتمع من مطر السماء.

***

وهناك مجتمع آخر كالمجتمع الذي ظهر فيه موسى عليه السلام. أمكن التحاور معه بأنواع من الحوار والاتصال به بأسلوب غير الأسلوب الذي جاء به من سبقه من الأنبياء والرسل. لقد كان السحر وما يتمثل فيه من فنون الفكر وألوان الثقافة هو القاعدة التي أمكن الاتصال بالناس من فوقها، والوسيلة التي لجأ إليها رسول الله موسى عليه السلام.

فلولا أنّ المعجزات التي أتى بها الرسول آنذاك كانت في ظاهرها على صورة الإنجازات السحرية التي برع فيها رجال عصره والتي كان يعجب بها عامة الناس لما حقق بعض المكاسب بالنشاط الإعلامي الذي دعا فيه بدعوة السماء.

وما ينطبق على موسى ونوح من قبله هو الذي ينطبق على غيرهما من الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

والجدير بالذكر أنّ هذه القاعدة تنطبق أيضاً على رجال الفكر والفلاسفة والمصلحين الذين لعبوا أدواراً توجيهية في تاريخ شعوبهم. لقد كان كلّ منهم يمثل بجوهر تفكيره، وطبيعة الدعوة التي نادى بها، روح أمته. ومن هنا يصح ما يقال من أنّ الفكر الفاعل الذي يحدث تغيراً في مسيرة المجتمع هو الفكر النابع من المفهومات الأساسية عند الشعوب. وقد تكون هذه المفهومات في منطقة الوعي من أفراد الشعب، كما قد تكون في منطقة اللاوعي أو شبهه... ثم لا يلبث أصحابها أن يجدوا فيما يقوله المفكر المصلح ما يتفق مع اتجاهاتهم، فلا يلبث الكثيرون منهم أن ينضمّوا إليه وأن يجدوا في تعاليمه ما يسلّط الضوء على الاتجاهات الغامضة عندهم.

والجدير بالذكر أيضاً أنّ الدعوة الإسلامية قد جاءت بأسلوب يتفق مع طرائق الإبداع عند عرب الجاهلية. فبدلاً من أن تكون معجزات السحر أو الطبابة أو تحويل النار المحرقة إلى برد وسلام كما كان الشأن عند موسى وعيسى وإبراهيم الخليل عليهم السلام فقد جاءت دعوة الإسلام بالمعجزة البيانية التي هي القرآن الكريم.

***

وإذاً فإنّ اختلاف الوسائل والأساليب في الدعوة إلى الله عائد إلى اختلاف الوسائل والأساليب الثقافية الشائعة في كلّ شعب من كلّ عصر من العصور.

وقد حرص القرآن الكريم على إبراز هذه الظاهرة بطريقته الخاصة. إنّه لم يعلن عنها ولم يقررها على طريقتنا نحن في تصنيف الموضوعات وترتيبها وتبويبها بل رمز إليها رمزاً واضحاً في بعض قصصه التي كشفت عن أهمية الخلفية الثقافية عند الفرقاء المتحاورين الذين يحاول بعضهم الاتصال بنجاح ببعضهم الآخر.

الفصل الرابع

الإعلام القرآني والحوار المفتوح

الواقع أنّ القرآن حافل بالمحاورات والمناقشات التي جرت بين أطراف متعدّدة لكننا إذ نتحدّث عن ضرورة توفير الخلفية الثقافية المشتركة بين طرفين متحاورين نقتصر على اختيار واقعتين تحدّث القرآن عنهما بأسلوبه القصصي المبدع وأثبت بالنتائج التي انتهت إليها هاتان الواقعتان أهمية هذه الخلفية الثقافية المشتركة ودورها الكبير في تحقيق المفاعلة بينهما. وفيما يلي نورد هاتين القصتين بنصهما القرآني ثم نعقب عليهما لتحقيق ما نقصد إلى إظهاره.

***

يقول تبارك وتعالى حول ما جرى بين موسى كليم الله وبين فرعون ورجاله من السحرة الذين استعان بهم لمعارضة الدعوة إلى الله وتدعيم مكانته في قلوب الناس بعد ان شهد من سحر موسى ما شهده: (وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (58) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (61) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (62) قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (63) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (64) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (65) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (67) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (68) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (69) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73))[1].

1 . الآيات 56 – 73 من سورة طه.

هذه هي الواقعة الأولى التي قصها علينا كتاب الله وانتهت بسجود السحرة بعد أن بهرتهم معجزة العصا التي لقفت ما صنعوا من الكيد وأظهروه من أنواع التخييل. فلننظر في الواقعة الثانية ثم نعقد المقارنة بين الواقعتين.

قال تبارك وتعالى في محكم تنزيله: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (60) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (61) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (62) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (63) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (64) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (65) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (66) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (73) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (74) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (75) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (76) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (78) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (82))[1].

***

حتى هنا نكون قد استوعبنا كلّ التفصيلات الخاصة بالواقعتين اللتين هما موضوع المقارنة. أمّا الواقعة الأولى فقد كشفت تفصيلاتها عن الحقائق التالية:

1 . الآيات 60 – 82 من سورة الكهف

1- أنّ فرعون قد رفض دعوة موسى التي يدعوه بها إلى عبادة الله عز وجل وإلى التحرّر من دعاوي الألوهية الباطلة.

2- وعندما تبيّن له أنّ في الآيات التي جاء بها موسى سحراً شبيهاً بسحر السحرة في دولته قرر أن يواجه هذه الآيات بسحر من مثلها فجمع خيرة رجاله في هذا الميدان ورغبهم ووعدهم بتحقيق كلّ ما يطلبونه إن هزموا "سحر موسى".

3- كرّر موسى دعوته للسحرة وحذرهم وأنذرهم وبشرهم فتناجى السحرة ولم يجدوا فيما تبادلوه من الرأي غير أنّ موسى ساحر جديد يريد أن ينتزع منهم الامتيازات التي يتمتعون بها في دولة فرعون وقرروا أن يواجهوه.

4- وبدأت المبارة بين الطرفين وكان السحرة أوّل من ألقى بالسحر بطلب من موسى عليه السلام.

5- ذهل موسى بما رأى من ألوان السحر وشاهده من كيد السحرة.

6- أوحى الله إليه أن يلقي ما في يمينه فتلقف ما صنعوا وأكد له أن كلّ مايراه ليس أكثر من تخييل وأوهام وكيد.

7- ألقى موسى عصاه فإذا هي تخرج حية تسعى وتلقف كلّ ما صنعه السحر من الكيد.

8- ذهل السحرة مما رأوه لأنهم أدركوا بفضل معرفتهم بأسرار السحر واقتناعهم بأنه مجرد تخييل وكيد. لقد وجدوا في فعل العصا لا سحراً من السحر، وإن كان في ظاهره سحراً، بل خلقاً حقيقياً لم تعد معه العصا موضوعاً للإيهام والتخييل. بل هي أفعى حقيقية التهمت حبالهم وعصيهم. وبلغ الذهول حداً جعلهم يسجدون مروعين مندهشين أمام هذه القوة الخارقة... وأدركوا في أعماق نفوسهم أنّ وراء هذه الظاهرة الخلقية قوة تتجاوز قوة الإنسان وهم الذين يعرفون تماماً حدود قدرتهم ويعلمون أنّ سحرهم ليس أكثر من وسيلة للحصول على المنافع والفوز برضى فرعون.

9- أما فرعون فقد وجد في سجود السحرة وإعلانهم الإيمان برب موسى وهارون تهديداً مباشراً لملكه وتحطيماً لكلّ أطماحه فتوعّد وأنذر بإنزال أشدّ العقوبات برجاله الذين استسلموا لمعجزة موسى وصنعه العظيم الذي تمّ بأمر من الله عز وجل.

***

وهنا نتساءل ما الذي دفع السحرة إلى الاستسلام والإفادة من الحوار العلمي الذي جرى بين سحرهم ومعجزة موسى عليه السلام؟ ويأتي الجواب بسيطاً واضحاً... لقد اكتشف هؤلاء السحرة بفضل الخلفية الثقافية المشتركة بينهم وبين موسى، وبفضل الحقائق المسلمة التي يعرفونها ويستندون إليها في التمييز بين الخير والشر والحق والباطل، نعم لقد اكتشفوا أنّ ما أتى به موسى ليس سحراً من السحر بل هو خلق من خلق إله حقيقي قادر فعّال لما يريد. وكان النجاح الذي حقّقته معجزة موسى

عليه السلام حصيلة طبيعية لاشتراك الطرفين المتحاورين في خلفيتهما الثقافية. حدث هذا رغم افتراق الطرفين في العقيدة والانتماء.

***

وبينما نشهد قصة السحرة ظاهرة التلاقي بين فريقين تعارضت عقائدهما، واتفقت القاعدة الثقافية عندهما وتشابهت طرائقهما في الحوار... إذا بنا نجد في قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح ظاهرة أخرى في ميدان الحوار الإعلامي... فالعبد الصالح وموسى عليه السلام نفسه مؤمنان بالله وحده يلتقيان على عبادة الله والطاعة له والعمل في سبيله ولكنهما مع ذلك عاجزان عن التعايش كما ظهر في تفصيلات الواقعة التي أوردناها قبل قليل.

لقد استحال على موسى عليه السلام، رغم رغبته المخلصة والجادة في مرافقة العبد الصالح، أن يصبر على ما كان يشهده من أعمال رفيقه... لقد كبر عليه ان يشهد عملية خرق السفينة وإحداث العيب الكبير فيها... كما لم يستطع أن يدرك المنطق الغريب الذي دفع العبد الصالح إلى قتل غلام بريء وزاد عجبه حين أقدم العبد الصالح على إقامة الجدار الذي يريد أن ينقض رغم أن أهل القرية رفضوا أن يضيفوهما. فكان الفراق حصيلة طبيعية وضرورية بعد هذه التجربة التي مر به كلّ من الرجلين. والسبب الذي حال دون اجتماعهما المستمر هو عجز موسى عليه السلام من إدراك الدوافع التي تدفع العبد الصالح إلى العمل والمقاييس التي يستند إليها في تصرفاته.

هذا مع العلم أن بينهما قاسماً مشتركاً هو عقيدة الوحدانية.

***

أما الغاية التي قصدت القصتان القرآنيتان إلى بلوغها فيما يبدولنا فهي تقرير حقيقة إعلامية أساسية خلاصتها: أنّ الاتصال الفاعل والمثمر بالآخرين أفراداً وجماعات مشروط باشتراك الأطراف المتحاورة في الموازين والمقاييس الأساسية التي يميزون بها بين الحق والباطل والزائف والصحيح.

فإذا كانت الدعوة الإسلامية قد اعتمدت المعجزة البيانية والحوار العقلي الصريح وسيلة لمواجهة الشعب العربي في تلك الفترة من التاريخ فلأنّ الوعي البياني الذي كان يتميز به العربي كان نامياً جداً بحيث لا سبيل إلى التغلغل في أعماق نفسه وإلى إجراء حوار ناجح معه إلا بالبيان المعجز والحوار العقلي.

وتأتي قصة الوليد بن المغيرة التي رويناها في فصل سابق والتي تحدث فيها عن البيان القرآني حديث المأخوذ به والمندهش لحلاوته الفائقة بمثابة آية أخرى على أهمية الخلفية الثقافية المشتركة التي تضم صاحب الدعوة الإسلامية إلى جمهوره من ناس عصره.

***

في ضوء هذه الملاحظة التي خرجنا بها من تأملنا لتفصيلات القصتين السابقتين نستطيع أن نلقي بعض الضوء على الصعوبات التي يواجهها الإعلام القرآني وعلى بطئه في النهوض لقضايا التوعية في العالم الإسلامي بعامة والعربي بخاصة في هذا العصر.

إنّ مما يلفت النظر أنّ التيارات الثقافية الوافدة والخطط الإعلامية التي يعمل الغرباء على تنفيذها داخل المجتمعات العربية الإسلامية قد نجحت إلى حد بعيد في زلزلة القواعد الأساسية للفكر الإسلامي من ناحية وفي عزل المجتمع العربي الإسلامي عن القيم النابعة من كتاب الله من ناحية أخرى.

لقد استطاع الغرب بما حققه من الإنجازات التكنولوجية التي ترد تباعاً إلى بلادنا أن يرفق هذه الإنجازات بسيل لا ينقطع من أنشطته الإعلامية التي تستظلّ بظلّ هذه التكنولوجيا والتي تخيل للمواطن المسلم بأنّ قيمة الفكر الوافد والقيم القادمة من الخارج والنظم التي تفرض نفسها عليه نابعة من الانتصارات التي حقّقتها التكنولوجيا العصرية.

يضاف إلى ما سبق أنّ اللغات الأجنبية التي كتبت بها قوانين هذه الانجازات التكنولوجية وحقائقها قد حقّقت بدورها انتصارات في عقول المسلمين وفازت باهتمامهم فأحدثت نوعاً آخر من العزلة بين المسلمين وبين لغتهم.

***

إذا ذكر فرويد أو كارل ماكس أو هيغل أو برغسون أو ماركيوز ومئات آخرون من المفكّرين الإعلام عند الغربيين وقفت في خيال الأجيال عندنا إلى جانب هؤلاء الرجال، تلك الصور العملاقة للصناعات الحديثة... لا للصاروخ الذي يدفع سفينة الفضاء إلى العالم الخارجي، والطائرة الأسرع من الصوت، والتقنيات الإلكترونية المعقدة وغيرها من الإنجازات الخاصة بالتكنولوجيا أو التنظيم والإدارة. وغيرها من الإنجازات كلّها تقف إلى جانب الصور الماثلة لأولئك المفكرين الذين ذكرنا بعضهم ممن يقتحمون علينا عقولنا، وأبواب قلوبنا ونفوسنا، فإذا بنا نستسلم لأساسيات الفكر والنظم الاجتماعية وقضايا المعرفة

ومناهجها عند هؤلاء المفكرين. وبالتالي يفقد جيلنا القدرة على تحليل ما جاء به هؤلاء الوافدين إلينا وعلى تقييم المادة الفكرية التي يحملونها إلينا وبالتالي يفقدون الجرأة على مناقشتهم.

***

هذا الجيل الخارج من مصانع الفكر الغربي يصبح غريباً عن منطق الإسلام ومناهجه. وبالتالي يفقد الرغبة في الاستماع إلى الإعلام النابع من كتاب الله وبالتالي المتّصل بشؤون الثقافة الإسلامية. ولا عجب في ذلك فإنّ حركة الفكر وما يتصل بها من الانشطة الثقافية تخضع خضوعاً يكاد يكون تاماً لمسلمات وبديهيات أساسية تقوم وراء إحياء الثقافة المتداولة، والمبادئ الفكرية والعقدية. ولما كان جيلنا المعاصر أو قطاع كبير منه قد تكونت له خلفية ثقافية وافدة غريبة عن الخلفيات الأساسية للثقافة الإسلامية فمن الطبيعي أن تحدث عزلة ظاهرة بين الإعلام القرآني وبين العقل العربي المسلم الذي يواجه مشكلات العصر.

ومن المنتظر أن تستمر هذه العزلة ما دام القاسم المشترك بين طرفي الحوار غير متوفر. وفيما يلي نقدم بياناً ببعض عوامل الاختلاف التي تحول دون تحقق هذا الحوار بين طرفيه الأساسيين:

1- شيوع مسلّمة أساسية في العقل المعاصر حول الانفصال بين الفكر العلمي والفكر الديني... وقد قويت هذه المسلمة وزاد أنصارها بين الفئات العاملة في مؤسسات قيادية إسلامية بحيث أنها أصبحت من وراء الدعوة إلى بناء مجتمع علماني يجعل ما لله لله وما للوطن للوطن كما يقولون.
2- يترتب على شيوع هذه المسلمة وبالتالي على الدعوة إلى العلمانية تعرية الإعلام القرآني والثقافة الإسلامية من طابعها الشمولي الذي يستوعب شؤون القلب والعقل والدنيا والآخرة. كما يترتب على هذا الشيوع أن يصبح الإعلام القرآني والثقافة الإسلامية مجرد رؤية روحية بحتة لا علاقة لها بشؤون الناس وهمومهم الدنيوية اليومية.
3- الإقتناع بأنّ الاعتصام بحبل الإسلام والاستعانة بالتعاليم القرآنية وبالتالي تكوين فكر نابع من القرآن والسنة هو دعوة رجعية لا تتفق مع شروط التنمية العصرية والرؤية الهادفة إلى تكوين حضارة المستقبل.
4- التنكر لكلّ رأي ينادي بوجود منهج أساسي شامل لمعرفة نابعة من القرآن الكريم... وهذا يعني قطع الخيط الأخير الذي يمكن أن يشهد الفكر الإسلامي الخالص إلى قضايا العصر. فلا تعود مقاييس المفكرين المسلمين وموازينهم

مقاييس وموازين نابعة من روح القرآن، وتعاليم العقيدة الإسلامية، بل تصبح موصولة بالبيئة الثقافية والمسلمات الفكرية الوافدة من الخارج.

5- هكذا يصبح التراث الإسلامي وفي مقدمته التراث القرآني العظيم شيئاً على هامش الحياة الدنيا فلا تعود أجيالنا الطالعة تجد فيه غير مادة للتبرك وغير مصدر للرياضة الروحية البحتة كما هو الشأن عند أصحاب الملل الأخرى في الغرب أو الشرق. وهذا يعني أنّ استمرار الوضع على الصورة التي ذكرناها ينتهي بنا إلى تعرية القرآن من مبررات وجوده.

***

والجدير بالذكر أنّ فقدان الخلفية الثقافية المشتركة بين الإعلام القرآني وبين فريق كبير من أفراد الأجيال الطالعة يؤدي إلى إيجاد وضع ثقافي مؤسف يتمثل فيه العجز عن مواجهة القضايا الفكرية والاجتماعية والسياسية المطروحة في ميادين الحياة العامة أو الخاصة. ولا عجب في أن يشيع العجز في هذا القطاع من نشاطنا الحضاري فإنّ شرط الشجاعة الفكرية والروحية في الأمّة هو قدرة أفرادها على تحقيق الإبداع الأصيل... ولما كانت الأصالة مشروطة بوجود شخصية ثقافية للأمة موصولة بالتراث، ولما كانت ثقافة أجيالنا الطالعة غير موصولة بهذا التراث، فإنّ من الطبيعي أن يصاب أفرادها بالعقم الفكري.

إنّ فعالية الإعلام القرآني هي كفاعلية أي إعلام آخر في أي أمّة من الأمم، ظاهرة موصولة بثلاثة أبعاد أساسية:

1 – ليس هناك أمّة دون ثقافة.

2 – ليس هناك ثقافة دون ماض.

3 – ليس هناك تحرّر ثقافي أصيل دون تحرّر سياسي سابق له.

والجدير بالذكر، أنّ العالم العربي الاسلامي قد حقق تحرّره السياسي في حدود الأعراف السياسية الدولية... لكنّه لا يزال يعاني الكثير من متاعب التبعية السياسية للقوى السياسية العالمية ولا سيما القوتان العظميان في هذا العصر، فلا عجب أن يكون تحرّره الثقافي على قدر تحرّره السياسي الفعلي... وبالتالي أن تكون الأصالة الثقافية المرتكزة إلى خلفية إسلامية واضحة ثابتة، مشروطة بهذا التحرّر الثقافي.

***

قد يظن بعضهم أننا من دعاة العزل الثقافي الصارم بين حضارة الرجل الغربي وحضارة العربي المسلم. الواقع أننا لا ننادي بهذا العزل. ولو رغبنا فيه لما تحقق أبداً، فإنّ حضارة الاسلام بطبيعتها مفتوحة الأبواب أمام كلّ التيارات الثقافية. لكنّ هذا الانفتاح الحضاري لا يبلغ أغراضه ولا تتحقّق الفائدة منه ما لم يكن مرتكزاً إلى شخصية ثقافية أصيلة موصولة بالماضي الذي يمثل الاستمرارية في روح الأمة كما هي موصولة بحرية الحركة والتصرّف أي بالحرية السياسية.

وبفضل هذه الشروط يصبح الانفتاح الحضاري مصدراً لنموّ ثقافي سليم، قادر على مواجهة التيارات الثقافية الوافدة، مستند إلى خلفية واضحة ثابتة الاركان بفضل تجاوب القيادات الثقافية في الأمّة مع الإعلام القرآني الذي يمثل حضور الأمّة في الماضي والحاضر والمستقبل وبالتالي يمثل روح الأمّة.

***

فإذا تحققت الخلفية الثقافية المشتركة بين الإعلام القرآني وبين الأجيال العربية الاسلامية التي يتوجّه إليها هذا الإعلام بتعاليمه فقد أصبح الفصل ممكناً بين العقيدة وصور التفكير والقيم النابعة منها وبين القيم والصور الفكرية والعقائد التي ترافق التكنولوجيا القادمة إلينا وتستظل بظلها. إنّ هذا الفصل الحاسم هو الخطوة الأساسية الأولى لمسيرة عصرنا الإسلامي نحو المستقبل.

والعجز عن تحقيق هذا الفصل لا ينبع من صعوبة العملية في ذاتها بل هو نابع من طبيعة التعليم عندنا ومن طرائقنا التربوية.

ولعلّ ما يمكن ان نطلق عليه اسم "الأمية الفكرية" هو من وراء كلّ الأخطاء التي نقع فيها... فنحن نبحث عن الكمّ لا عن الكيف... ونتصرف كما لو أنّ الحضارة في مفهومنا هي ركام من السلع نستوردها بما نملك من المال، ثم نستهلكها على طريقة الذين يصنعونها. فإذا فعلنا ذلك فقدنا القدرة على العطاء، وبالتالي على تجويد ما نفعله، أي فقدنا القدرة على صنع حضارتنا صنعاً تتحقق به شخصيتنا.

إنّ السبيل الوحيد إلى الإفادة من الإعلام القرآني هو تحقيق شخصيتنا الأصيلة بجملة من الأساليب نذكر أهمها فيما يلي:

1 – في ميدان اللغة: إنّ وجود لغة للأمة قادرة على استيعاب كلّ ما تحتاج إليه وعلى التعبير عن كلّ ما يضطرب في عقول أفرادها من ألوان الفكر والأدب والفن، وعلى الاستقلال التام في التعبير عن العلوم الحقيقية والتعامل بها مع الإنجازات التكنولوجية التي هي الجانب التطبيقي لهذه العلوم، نقول: إنّ وجود مثل هذه اللغة هو الأسلوب الأول الصالح لتحقيق الشخصية الأصيلة للأمة. وقد أدرك أصحاب الإعلام الأجنبي أنّ الفصل بين لغة الأمة وبين كلّ الأنشطة الفكرية والأدبية والفنية والعلمية هو منطلق الغزو الناجح والوسيلة الفاعلة لتجميد حركية الأمة والحيلولة دون نموها الحضاري. وقد توصل هؤلاء بفضل السياسات التعليمية التربوية التي فرضوها منذ أيام الاستعمار البائد وبالاستعانة بتكثيف إعلامهم الذي يوهم بعجز

اللغة العربية عن استيعاب العلوم والتعبير عن قضايا العصر ومشكلاته، إلى تحقيق ظاهرة الفصل بين قياداتنا الثقافية ولغتنا القومية. وهذا لا يعني أنهم حققوا انتصاراً نهائياً في هذه الحرب غير المعلنة ولكنهم دون ريب قد حققوا انتصارات مرحلية أحدثوا بها البلبلة التي افترق فيها أبناء الأمة العربية شيَعاً، ففقد التنسيق اللغوي بين القاعدة التعليمية وبين قمتها ولا سيما في ميدان العلوم النظرية والعلوم التطبيقية.

2 – في ميدان الثقافة: إنّ وجود ثقافة أصيلة مبدعة مشروط كما قلنا قبل قليل بماض تنطلق منه وتتحدّد أبعادها في ضوئه... ولما كانت ثقافتنا العربية المهيمنة في أكثر دوائرنا ومعاهدنا التعليمية ومجالسنا العلمية وميادياننا الفكرية والأدبية والفنية هي تلك التي جاءتنا مع التكنولوجيا المعاصرة والتيارات الحضارية المرافقة لها من الخارج فإنّ من الطبيعي أن تفقد ثقافتنا صفة الأصالة، وبالتالي القدرة على تحريك الملكات الإبداعية في الأمة. والواقع أنّنا نحن العرب خاصة والمسلمين عامة نواجه منذ عدد من العقود حملات ثقافية مكثفة يقصد بها الفصل بين ثقافتنا المعاصرة وبين ماضينا الثقافي، فتبدو بعملية الفصل هذه كما تبدو أكوام النباتات التي تحملها مياه نهر دافق لا تثبت في مكان لأنها تفقد مواطن جذورها في أرض ثابتة صلبة.

3 – الإتقان والجودة في الإنتاج: والواقع أنّ صفة الإتقان من صفات النمو الحضاري السليم... إنّ المحترف الذي يتقن إنتاجه هو وحده الذي يشعر بالصلة الصميمة التي تشدّه إلى إنتاجه. فهو يحبه لأنه صنع يديه وهو يحرص على سلامته وبقائه أطول مدة ممكنة لأنه من بنات أفكاره... وهو يجد في كلّ جزء من أجزائه صورة لقطرات من عرق جبينه... ومرآة تنعكس عليها جهود بذلت في نهارات وليال طويلة. ولعلّ قوله صلى الله عليه وسلم: "إنّ الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه" هو التعبير السليم عن هذه الحقيقة الإنسانية.

فالإتقان وتجويد الإنتاج من خصائص الإنسان المبدع لا من خصائص الإنسان المقلد.

والعجز عن الإتقان لا يظهر في الإنتاج المادي وحسب بل يظهر أيضاً في انواع الإنتاج كلّها... في الفكر والأدب والفن كما في العلوم النظرية والتطبيقية وأيضاً في ميدان الانشطة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. فالإتقان صفة شاملة تنتشر في كلّ قطاعات الحياة القومية.

وقد ترتّب على الظنّ الواهم بعجز اللغة، وعلى الثقافة المنقطعة عن ماضي الأمة فقدان الإتقان، وبالتالي حلول الارتجال واللامبالاة في كلّ نتاج مادي أو أدبي.

هذه الظاهرة هي التي تفسر أمية الفكر عندنا كما تفسر ضعف كلّ عطاء ثقافي بحيث يبدو معها التهافت في كلّ شيء. حتى أصبحت أكثر مؤلفاتنا مجرد اقتباسات مترجمة... وأصبحت الترجمات الصريحة متّصفة بالتسرّع والارتجال واللامبالاة بدقة الأداء.

4 – منهج أصيل في المعرفة: إنّ كلّ عطاء ثقافي في أي ميدان من ميادين الإنتاج على مستوى حضاري رفيع مشروط بفلسفة واضحة في المعرفة وبالتالي بتحقيق منهج تنظم به عمليات التفكير وطرائق التعامل مع الكون والطبيعة وأنواع الكائنات المتعدّدة.

والجدير بالذكر أنّ لكلّ مسيرة حضارية نابعة من ثقافة أصيلة منهجها الأصيل في المعرفة... ولما كانت ثقافتنا القومية السائدة اليوم في دوائر العلم والفكر هي ثقافة طارئة من الخارج فقد وجب أن يكون منهج المعرفة فيها هو منهج الثقافة الطارئة بالذات. وبذلك تتّصف ثقافتنا بالضياع والبلبلة لأنها لا تنطلق من منهج في المعرفة نابع من رؤية ثقافية أصيلة.

ولما كانت ثقافتنا الأصيلة هي الثقافة النابعة من الإعلام القرآني بكامل أبعاده فإنّ المفروض أن تكون لنا فلسفة في المعرفة ومناهج معرفية نابعة من هذه الثقافة وهذا أمر لم يتحقق ولن يتحقق ما لم نتحرّر من هيمنة الثقافات الوافدة ومناهج المعرفة التي ترافقها.

***

الفصل الخامس

الواقعية في الإعلام القرآني

قد يتوهم بعض الناس أنّنا نرفض المنهج العلمي الذي جاءت به حضارة التكنولوجيا الوافدة وأنّنا بصدد الدعوة إلى منهج يقوض أصول البحث العلمي... فهذا غير صحيح...

أولا: لأنّنا مؤمنون بأنّ منهج البحث العلمي لم يوضع لأول مرة من قبل رواد الفكر الغربيين من مثل فرنسيس بيكون الانكليزي ورينيه ديكارت الفرنسي وغيرهما من أساطين الفكر المعرفي في تاريخ الغرب الحديث. لقد ظهرت المعالم الأساسية لهذا المنهج في الثقافة العلمية التي ظهرت في عصور إسلامية سابقة. وقد كنا نتمنى أن نعرض لهذا الموضوع في هذه العجالة لكنّنا آثرنا أن نفرد له بحثاً مستفيضاً في القسم الثاني من دراساتنا القرآنية. ففي هذا القسم عرض وافٍ لمشكلات المعرفة وبصورة خاصة لوجوه المعرفة التي جاء بها كتاب الله عز وجل.

ثانياً: إنّ مفهومنا للمعرفة لا يقف عند مناهج البحث العلمي الذي انطلق في الغرب من رؤية مادية محضة لمفهوم المعرفة. إنما يتجاوز هذه الرؤية ويستوعب مفهومات متعدّدة وضع القرآن لها حدودها وعيّن أبعادها كما سنبين ذلك في القسم الثاني الذي أشرنا إليه في البند السابق.

***

هذه الأساليب الأربعة التي أوردناها: "الأسلوب اللغوي، الأسلوب الثقافي، أسلوب العمل المتقن، الأسلوب المتصل بمفهوم المعرفة" هي التي تؤمن للمسلم خلفية ثقافية مشتركة تتيح للإعلام القرآني فرصة وافية لممارسة حوار ناجح معه فيصبح حواراً إيجابياً يتمّ به التفاهم العميق بين المرسل والمستقبل. وبذلك يوضع قطار التحرك الثقافي الاسلامي فوق طريق بيّنة الجوانب محدّدة الأبعاد، وذات أغراض واضحة بحيث يصبح القرآن هو الينبوع الثابت والأساسي لثقافة الاجيال الطالعة وأخلاقها وقيمها الخالدة.

***

إنّ تقريرنا لهذه الحقيقة ينطلق من الايمان العميق بأنّ القرآن الكريم يطرح مفهوماً متكاملاً لكلّ قضايا الحضارة، ويحدّد لدارسه والمؤمنين به القواعد الاساسية والصحيحة لمسيرة حضارة الإنسان المسلم. وبتعبير آخر نقول: أنّ القرآن الكريم جاء ليطرح مفهوماً للدين الوحيد الذي تتحقق به وحدة النشاط الإنساني، وليضع خاتمة لظاهرات الازدواج في التفكير والانتماء والحقيقة

الأخلاقية. ولا سبيل الى القضاء على هذه الظاهرات بكلّ ما فيها من الاختلال والضياع والتناقض إلا بتوفير خلفية ثقافية شاملة تستوعب أطراف الحوار كلّها.

وقد حرص القرآن الكريم على إبراز ظاهرة التكامل والتمام في دعوته فقال الله عز من قائل: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)[1]. وطبيعي أنّ التكامل والتمام لا يتحققان إلا في الشمول الذي يستوعب هموم الإنسان كلّها في دنياه وفي معاده. وفي تعاليم القرآن والحقائق التي جاء بها ما يغنينا عن التعلق بتراثات الآخرين، والتسوّل عند أبوابهم وإلغاء عقولنا أمام عقولهم.

***

ولا يخلو من الفائدة أن نستعين بما جاء عند الإعلاميين المعاصرين من النصّ على أهمية المحافظة على روح الأمة وإحياء ثقافتها الأصيلة حين يتحدّثون عن برامج الإعلام للتنمية القومية فقد ورد قول أحدهم في هذا المعنى: "ومهما كانت الصعوبات التي تواجه برامج الإعلام من أجل التنمية القومية فلا ينبغي أن تغيب عن أذهاننا مشكلة حيوية جادة، وهي المحافظة على روح الأمة وثقافتها. وإذا كان من اليسير أن تستفيد المجتمعات النامية من خبرات الدول المتقدّمة في مجالات التصنيع والعمران والتقدم، فإنّ المعادلة الصعبة، حقيقة، تكمن في كيفية الحفاظ على الثقافة الأصيلة، والتراث القومي، حتى لا تقتلعها تيارات التغيير. وفي رأينا أنّ اليابان– وهي دولة شرقية بلغت ذروة التقدم العلمي والتكنولوجي — قد استطاعت أن تحافظ على ثقافتها وأن تصون حضارتها وشخصيتها إلى حد بعيد، رغم المحاولات الأجنبية للضغط عليها، وطمس معالم حضارتها".[2]

ويتابع المؤلف كلامه فيقول: "وإنّنا على يقين من أنّ بلادنا التي وقفت ثابتة في مواجهة ألوان الاستعمار المتعدّدة، واستطاعت أن تستوعب ما يناسبها من ثقافات الغزاة دون أن تضحي بثقافتها الأصيلة، وحضارتها الراسخة على مرّ العصور، سوف تنجح في تحقيق التنمية القومية، مع المحافظة على روح شعبها، واستمرار جذوة حضارتها، وأصالة تراثها.

وقد ذكر لنا المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي أنّ الكثرين من المشايخ والأعيان قد تعلّموا من الفرنسيين مبادىء الميكانيكا والكيمياء، وأعجبوا بأبحاثهم في الفلك والطب والعلوم، ولكن عندما حاول بونابرت أن يخلع على الشيخ الشرقاوي الطيلسان ذا الألوان الثلاثة وشعار الثورة الفرنسية "رمى به إلى الأرض واستعفى، وتغيّر مزاجه، وامتقع لونه، واحتدّ طبعه". فلا بأس من

1 . جزء من الآية 3 من سورة المائدة
2 . انظر ص 440 من كتاب " الإعلام والاتصال بالجماهير " للدكتور إبراهيم إمام.

كلّ علم ننهل منه، ولا ضير من كلّ فن نأخذ عنه، ولكننا نرفض أي غزو لشخصيتنا المصرية الأصيلة، وليس في ذلك نكوص أو تخلّف، وإنما فيه عزة وكرامة ووعي بالانطلاق والتقدّم والقوة"[1].

***

إنّ ما ورد في هاتين الفقرتين يعلن عن الفارق الكبير بين اقتباس العلوم المادية والتقنيات المتطوّرة وبين الانتماء إلى الشخصية القومية الغريبة والاستظلال برموزها المعنوية وقيمها التاريخية. ولولا أنّ المؤلف قد قصر مفهوم الأصالة على الشخصية المصرية لكان فيما قاله وفاء بالمراد. يضاف إلى ما سبق أنّ الغيرة على التراث التي أثارها الطيلسان الفرنسي بألوانه الثلاثة هي رمز لكلّ غيرة يمكن أن يثيرها في نفوسنا الاستظلال بكلّ الرموز والمعاني والقيم وطرائق التفكير عند الأمم الأجنبية، والطبيعة، والخطأ الذي يتعلم منه كيف يتجنّب الوقوع فيه من بعد. وهذا هو في تقديرنا معنى قوله عز وجل: (أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)[2] وقوله أيضاً: أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ)[3]. وأخيراً قوله عز من قائل: (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ)[4].

حتى هنا نتوقف عن إيراد الشواهد التي تثبت العلاقة الوثيقة بين الإعلام القرآني وبين الوقائع التي تجري بين الناس وتدرج تحت أبصارهم. ولوشئنا أن نستوعب كلّ ما جاء في كتاب الله حول هذه العلاقة لاحتجنا إلى صفحات كثيرة جداً لا يتّسع لها هذا الكتاب. لكننا اخترنا بعض الوقائع لتكون بمثابة نماذج تعلن عن أهمية الواقعية ودورها في العملية الإعلامية وقد بلغت هذه العملية الذروة في كتاب الله عز وجل[5].

1 . المصدر نفسه ص 440 – 441.
2 . الآية 2 من سورة العنكبوت.
3 . الآية 142 من سورة آل عمران
4 . الآية 186 من سورة آل عمران
5 . يكفي على سبيل المثال أن نسمي بعض الوقائع الهامة التي رافقها أو لحق بها وحي سماوي يسدد الخطوات أو يفسر ما حدث أو يقدم حلاً لمشكلة عارضة. ومن أهم هذه الوقائع يوم الحديبية، ويوم الفتح، ويوم حنين ألخ. وقد نزل في كلّ من هذه الأيام ما عمق الحقائق الدينية في النفوس وشد بها القلوب إلى الله عز وجل.

الفصل السادس

الإعلام القرآني والتصوّر الإسلامي

قلنا في غير هذا المكان من الصفحات السابقة أنّ للإعلام القرآني علاقة بالحرية التي تمنح الإنسان حقه في أن يفكر ويعمل ويتكلّم كما يشاء في حدود إحساسه بالمسؤولية ووعيه بقوانين الفطرة التي فطر عليها وبأبعادها الحقيقية.

كما قلنا أنّ للإعلام القرآني علاقة بالحق فهو ملتزم به لا يبالي النتائج القريبة التي قد تترتب على قول الحقيقة وتقرير الحق. ذلك لأنّ الإعلام، أيّ إعلام، يفقد مبرر وجوده حين يتحيز لجانب دون آخر، أو يختار عامداً رأياً دون آخر متأثراً بالمصلحة الشخصية أو بالمغريات المادية وبعض المغريات الأدبية.

وقررنا فيما قررنا أنّ الإعلام القرآني ملتزم بخطة الحوار في التعامل مع المخلوقات كلّها. وقد تبيّن أنّ الله عز وجل في محكم تنزيله قد أخبر عن محاورات أجراها مع السماوات والأرض ومع الملائكة ومع الناس. وعلمنا أنّ هذه المحاورات قد أجريت على مستويات وبأساليب متعددة.

بل أنّ في وسعنا القول بأنّ النمط الحواري في كتاب الله يكاد يستقل بالوحي السماوي كلّه، حتى المعجزات المادية التي ترتبت عليها عقوبات رادعة أو دفعت إليها خطة ترويع وإدهاش وحسب هي صورة من صور الحوار بين الله ومخلوقاته.

ثم تبين لنا أخيراً أنّ هناك علاقة وطيدة جداً بين الإعلام القرآني وبين الوقائع الجارية. وأدركنا من خلال هذه العلاقة كم هو قوي وعميق كلّ حوار تجري به مناقشة الوقائع الحية بين الله وبين الأطراف الأخرى. وقد اخترنا بعض الوقائع وتبيّنا أبعادها النفسية والاجتماعية والأخلاقية بعد أن نوقشت من قبل الوحي السماوي وصدرت عنه الأوامر والنواهي التي حسمت مواضع الخلاف وأوضحت مواطن الغموض والريب فيها.

يبقى الآن أن نتساءل: ما هي قيمة الإعلام الذي يلتزم بالحرية والواقعية ويصدر عن الحق ويستعين بأسلوب الحوار الحي إذا لم يكن موصولاً برؤية أساسية عامة تكون بمثابة الخط الاستراتيجي للعملية الإعلامية.

والجواب أنّ الإعلام يفتقد مبرر وجوده فلا يعود غير نوع من اللفظ الذي قد يسلّي، وقد يملأ وقت الفراغ حين لا يصدر عن رؤية أساسية تستوعب الحقيقة الخالدة الباقية في نظر أصحابها.

وهذا لا يعني بالطبع أنّ كلّ رؤية أساسية ينبثق منها الإعلام ويصدر عنها ملتزم بالخطوط الاستراتيجية الأساسية فيها هي رؤية حقيقية. كلّ ما في الأمر أنها البوصلة التي يهتدي بها أصحابها في ظلمات البر والبحر والتي يحدّدون في ضوئها العلاقات بينهم وينظمون عن طريقها كلّ شؤون حياتهم. فإذا لم تكن لهم هذه البوصلة أحسّوا بالضياع الذي يحول منذ البداية دون مسيرتهم نحو مستقبل واضح الملامح مهما تكن قيمة هذه الملامح.

صحيح أنّ البوصلة قد تكون صالحة وقد لا تكون كذلك لكنّها في الواقع تبرز كنقطة انطلاق وتقوم بدور الشاهد في الطريق والدافع للحركة. وتتحرك في ضوئها مسيرة أصحابها فإذا كانت فاسدة لم يلبثوا بعد قليل أو كثير حتى يكتشفوا انحراف الطريق الذي أشارت البوصلة عليهم به.

والجدير بالذكر أنّ مؤرخي الحضارات البشرية قد حاولوا وسعهم أن يعيّنوا خصائص كلّ رؤية من الرؤى التي انطلقت في ضوئها كلّ حضارة من الحضارات. ولعل الخصائص الحضارية التي وردت فيما كتبه علماء الحضارات من مثل أوزفلد شبنجلر وتوينبي وغيرهما أن تكون الجوهر الأساسي لعلم الحضارات أو فلسفات التاريخ إذا صحّ هذا التعبير.

ولما كانت الأمة العربية، التي خرجت بالعقيدة وتعاليمها الأساسية، قد وقفت إلى بناء حضارة ذات أبعاد عالمية وبالتالي إلى استيعاب عشرات من الشعوب وغرس الخصائص الأساسية لعقيدتها في عقول الملايين من الناس وقلوبهم، فإنّ من الطبيعي أن تكون للحضارة العربية الإسلامية مقوّماتها الخاصة التي تتعين بها تصوراتها الذاتية وبالتالي أبعاد الشخصية الإسلامية الثابتة.

***

هذا وقد تعارف المفكرون على استخلاص روح الأمة من خلال الخصائص التي تتميز بها رؤيتها الأساسية. ومن هنا يمكن أن نقول: أنّ الإعلام القرآني الملتزم بعدد من الشروط والصفات المذكورة من قبل لا يمكن أن يحقق الغرض منه ما لم يصدر عن تصورات ثابتة واضحة المعالم تميّزه من كلّ إعلام غير قرآني.

***

والواقع أنّ للإعلام القرآني من هذه الناحية أصالته الشخصية التي يتميز بها من كلّ إعلام آخر وهذه الأصالة هي وحدها التي مكنته من الاحتفاظ بفاعليته وأتاحت له الاستمرار في ممارسة الهيمنة على قطاع كبير من الأمم والشعوب وإن تباينت حدود هذه الهيمنة بتباين المؤثرات التي شاركت في تشكيل الشخصية الخاصة لكلّ أمة ولكلّ شعب على حدة. وبالرغم من هذه

التباينات نستطيع القول بأنّ الإعلام القرآني قد وفق بفضل الوضوح والحسم والأصالة في التصورات التي صدر عنها إلى الإحتفاظ بإطار واسع تحدّدت به أبعاد العالم الإسلامي وتميزت من أبعاد العوالم الحضارية الأخرى.

***

ومهما تكن قيمة الخصائص التي عيّنها علماء الحضارات لكلّ حضارة على حدة، وبالتالي مهما يكن عدد الحضارات التي اعترف بها هؤلاء العلماء فإنّ الإعلام القرآني قد خرج بتصنيف مغاير للتصنيفات التي وضعها علماء الحضارات فكان بهذا التصنيف أيضاً ذا شخصية متميزة.

***

والجدير بالذكر أنه ليس في الإعلام القرآني نصف حقيقة أو ربعها. بل هناك حد فاصل بين الحق والباطل، بين الصحيح والزائف. إنه ينبذ الغموض المتافيزيقي الذي يواجه الدارس لكلّ تراث حضاري عند غير المسلمين. فاللون عنده إما أن يكون أبيض أوأسود... والطريق إما أن تكون في الاتجاه السليم أو في الاتجاه المنحرف... والعقيدة أما أن تكون صحيحة أو فاسدة. ولا توسط بين الموقفين. وقبل أن نبسط القول في هذه الظاهرة الفريدة الأصيلة التي استقل بها الإعلام القرآني، يجدر بنا أن نقدم هذا الموضوع بلمحات تتصل بغير هذه الظاهرة المتميزة.

***

الوثنيات القديمة والمعاصرة اختلفت فيها التصوّرات ولا تزال على نحويجعل صورتها غامضة مضطربة ضائعة الحدود. فهي تتجلى تارةً في عبادة كوكب من الكواكب أو تتجلى في عبادة حيوان، وقد تبرز في عبادة فرد من الناس... ولكنها في الوقت نفسه تنادي بوجود قوة غامضة متعالية قائمة وراء هذا الفرد المعبود أو ذلك الحيوان أو تلك الكواكب. وليس هذا وحسب فإن الصفات التي تتميز بها هذه القوة المتعالية الغامضة تنسحب على المعبودات الظاهرة... ثم لا تقف عند هذه المعبودات بل تتجاوزها لتضفي على فئات من الناس امتيازات وصفات فيها بعض خصائص المعبودات المذكورة. والمقصود بهذه الفئات طبقات الكهان بخاصة ومن يطلق عليهم اسم رجال الدين بعامة.

الخصائص والتصورات الأساسية ذات الطابع الإلهي أوالميتافيزيقي تتوزع على مجموعة كبيرة من المخلوقات وبذلك يغيب الحد الفاصل بين الخالق والمخلوق أو بين الربّ والعبد.

***

أما في العصر الفرعوني مثلاً فإنّ الفراعنة كانوا يعتبرون أنفسهم ذوي أنساب إلهية وأنهم موضع لعبادة الناس العاديين لهم. هذا رغم تباين القوة الغامضة المتعالية في غلظتها ورقتها وهي التي ترمز ألوهيتهم إليها.

وأما في العصر اليوناني فإنّ الأسرة الإلهية كانت أكثر تعقيداً وغموضاً فالآلهة في تصور اليونانيين القدماء كانوا كثيرين جداً فيهم الإناث والذكور ولهم رئيسهم الأعلى. وهم لا ينفصلون عن البشر العاديين. فقد تنعقد صلات مادية وجنسية وأدبية بين الفريقين. ويترتب على هذه الصلات ظهور أنصاف آلهة وأبطال وظهور طبقات من الكهان تختلف مستوياتهم وفضائلهم.

فإذا إنتقلنا إلى عام الحضارة الغربية الحديثة واجهنا الغموض والاضطراب نفسه. فالله هو الخالق في نظر الكنيسة المسيحية لكنّ ألوهية الله عز وجل تتجسّم في ثلاثة أقانيم على نحو متدرج تبدأ من الأب فالإبن فروح القدس، وبذلك أيضاً تنبهم على نحو أقلّ غموضاً الحدود الفاصلة بين الله وبين مخلوقاته. والشأن هو نفسه بعد الثورة الفكرية التي غيرت طبيعة العلاقة بين مفهوم الألوهية في الكنيسة وبين مفهومها في مرحلة ظهور العلمانية من بعد.

فالعلمانيون الغربيون يعترفون بوجود الله ولكن لا يعترفون بأي وظيفة له أو صلاحية في صنع حياتهم اليومية والتشريع لها. إنهم يعترفون بوجوده كظاهرة خلقية روحية رادعة أو موجهة بصورة عامة في ساعة معينة من يوم واحد من أيام الأسبوع. ويتجاوز بعضهم هذا الموقع ليعلن عبادته للعقل أو لينفي الوجود الإلهي جملة وتفصيلاً ويحاول في الوقت نفسه البحث عن مصادر لتكوين قيم للمجتمع الإنساني نابعة من وقائع إنسانية بحتة... وقد انتهت هذه الظاهرة الفكرية إلى نوع من الضياع وإلى عقيدة من الفرقاء في تكوين تصوّرات مباينة لتصوراته.

***

ومما يلفت النظر أن التصورات التي تميزت بها هذه الحضارات نبعت في أساسها أولاً من عالم الأسطورة ثم اختلطت صورة هذا العالم وقيمه بفكرة الله الخالق البارئ الأزلي الأبدي فكان التشويش والغموض والتدخل بين عدد من المفهومات تبدأ بالله الخالق عز وجل وتنتهي إلى شتات من المخلوقات المادية أو النباتية أو الحيوانية وفي أحسن الظروف إلى المخلوقات الإنسانية أو أي ملكة من ملكاتها الخاصة.

أما فيما يتعلّق بالتصور الذي صدر عنه الإعلام القرآني فإنّ القول الفصل فيه هو ما جاء في سورة الاخلاص. يقول الله عز وجل فيها: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4)).. فالله واحد لا شريك له وهو وحده الذي يقصد بالعبادة، وهو وحده الذي يستقل بالربانية – وهو لم يولد من أب قبله ولا يلد ولداً بعده ثم لا يكافئه أيّ كائن من الكائنات لأنه ليس كمثله شيء أبداً.

***

والألوهية في الإسلام واضحة حاسمة متميزة بصفتي الأزلية والأبدية لا شريك لها في الخلق وليس من يشفع عندها إلا بإذنها لا تسأل عما تفعل والمخلوقات كلّها تسأل عما تفعل.

وهذا يعني أنّ عقيدة الوحدانية التي يصدر عنها الإعلام القرآني لا تعترف بالشكوك والريب والتردّد والغموض التي تتصف بها النظرات الميتافيزيقية عند غير المسلمين ابتداء من الوثنيات القديمة والمعاصرة وانتهاء بعقائد أهل الكتاب الذين حرّفوا كلام الله عن مواضعه وتأثروا بالتصورات التي حملتها اليهم عقائد قديمة وتراثات تاريخية نابعة من أساطير الأولين وخيالاتهم.

وإذا ففي العقيدة الموحدة كما جاء بها القرآن الكريم فصل تام مطلق بين الله ومخلوقاته. والمخلوقات هذه متساوية من حيث أنها خاضعة للهيمنة الإلهية المطلقة وإن اختلفت الخصائص والصفات والمستويات التي تتمثل في هذه المخلوقات.

فهناك الملائكة وهم عباد مخلصون (لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)[1].

وهناك إبليس الذي رفض السجود لآدم بدعوى أنه مخلوق من نار وأنّ آدم مخلوق من طين والنار خير من الطين في نظره (إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ)[2].

وهناك الشياطين جند إبليس وهم موجودون في عالم الإنس والجن (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ)[3].

وهناك بنو آدم الذين اختلفوا فكان منهم المؤمن والكافر والمنافق وقد فازوا بنوع من التكريم فضلوا به على كثير ممن خلق الله عز وجل: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا)[4].

1 . من الآية 6 من سورة التحريم
2 . من الآية 74 من سورة ص
3 . من الآية 112 من سورة الأنعام
4 . الآية 70 من سورة الاسراء

وهناك أخيرا بقية المخلوقات وهي السماوات والأرض ومن فيهن وهؤلاء خاضعون لأمر الله: (ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)[1].

في ضوء هذا العرض الذي حدّدنا به طبيعة التصوّر الإسلامي النابع من عقيدة الوحدانية نستطيع أن نقرّر وجود رؤيتين حضاريتين أساسيتين: الرؤية الأولى هي الرؤية المتمثلة في عقيدة الوحدانية، والرؤية الثانية هي الرؤية المتمثلة فيما سوى هذه العقيدة.

وهذا يعني أنّ الإعلام القرآني حين يتوجّه إلى الأجيال البشرية إنما يصدر عن تصور واضح المعالم بين الحدود لا يقبل تسوية مع سواه ولا يوافق على أي مساومة أبداً. لقد رفض أن يدخل في أي مساومة مع مشركي قريش... وتجنّب أي تسوية على حساب العقيدة مع أهل الكتاب. ولما كان أهل الكتاب أقرب إليه في مفهوم التصور فقد وجّه إليهم نداءه الواضح الصريح لجمع الشمل والعودة بهم إلى الخط الأصيل قال لهم: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)[2].

***

الآن وقد ظهرت الحدود الفاصلة بين ربانية الخالق عز وجل وعبودية المخلوقين على اختلاف مستوياتهم يجدر بنا أن نتساءل عن الخصائص التي يختص بها التصور الإسلامي والتي تعيّن طابعه الأصيل المتميز.

1 – الربانية: وهي "أولى خصائص التصور الإسلامي، ومصدر هذه الخصائص كذلك. فهي تصور اعتقادي موحى به من الله سبحانه ومحصور في هذا المصدر لا يستمد من غيره... وذلك تمييزاً له من التصورات الفلسفية التي ينشئها الفكر البشري حول الحقيقة الإلهية، أو الحقيقة الكونية، أو الحقيقة الإنسانية، والارتباطات القائمة بين هذه الحقائق وتمييزاً له كذلك من المعتقدات الوثنية، التي تنشئها المشاعر والأخيلة والأوهام والتصوّرات البشرية"[3].

وخلاصة القول في الربانية أنها المصدر الوحيد الذي يعين طريق الهداية لا شريك له أبداً (قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)[4].

1 . الآية 11 من سورة فصلت
2 . الآية 64 من سورة آل عمران
3 . انظر ص 49 من كتاب (خصائص التصور الإسلامي ومقوماته) للسيد قطب – الطبعة الثانية 1965 – طبع عيسى البابي الحلبي وشركاه.
4 . الآية 161 من سورة الأنعام

2 – الثبات: والمقصود بالثبات في التصور الإسلامي أنه لا يتغير ولا يتطور. فالتغير هو في ظواهر الحياة اليومية والأوضاع العملية. وهذا يعني أنّ الثبات حقيقة ترمز إليها الفطرة التي فطر الإنسان عليها. وليس الدين إلا تعبيراً عن هذه الفطرة الثابتة. يقول الله عز وجل في محكم تنزيله: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)[1].

3 – الشمول: وهذا يعني أن ربانية الله عز وجل تستوعب كلّ شيء لا تغيب عنها كبيرة ولا صغيرة. مصداق ذلك في قوله عز وجل: (وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ)[2] وفي قوله تبارك وتعالى: (لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ)[3].

4 – التوازن: إذا كان الله عز وجل هو الواحد الأحد الذي لا شريك له في ذاته ولا في خلقه، وإذا كان قد فطر الإنسان على فطرة معينة ثابتة، وإذا كان قد استوعب كلّ كبيرة وصغيرة وأحصاها وعدّها عداً، فإنّ من الطبيعي جداً أن يكون ما خلقه متوازناً في جزئياته أو مخلوقاً على صورة يتم بها التنسيق المتكامل بحيث تتحقق وحدة الخلق فلا يكون شيء على حساب شيء. مصداق ذلك في قوله عز وجل: (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)[4].

5 – الإيجابية: والمقصود بالإيجابية في التصوّر الرباني أنّ الله مطلع على خلقه مهيمن على سلوكهم مُحصٍ لأعمالهم يتعامل معهم في ضوء ما يحققونه من الخير. وتبدو الإيجابية أبرز ما تكون في حدود الإنسان الذي منحه الله القدرة على الاختيار بعد أن عيّن له طريق الخير وطريق الشر.

وطبيعي أن تتباين هذه الخاصية مع الخاصيات التي ابتدعها العقل البشري في فلسفات وأديان أخرى. من مثل السلبية التي تصورها أرسطو للإله الخالق حين جعل منه ملكاً لا يحكم مدركاً لذاته دون سواه. ومن مثل المحدودية التي تصورتها الزرادشتية المجوسية القديمة حين جعلت الإله إلهين: إلهاً للخير وإلهاً للشر. فوضعت حدّاً لكلّ منهما بحيث يتخذ أحدهما موقفاً سلبياً من موقف الآخر. ومصداق الإيجابية الفاعلة في كتاب الله هو في قوله تبارك وتعالى: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ)[5]. فالله عز وجل في مفهوم الربانية يسمع ويرى ويتعامل مع مخلوقاته ويحاورهم ويثيبهم أو يعاقبهم بعد أن يحصي عليهم أعمالهم.

6 – الواقعية: أي أنّ الله سبحانه وتعالى يتعامل مع الواقع ويحاسب في حدود الإمكانات المتوفرة. فهو لا يطالب عباده بما لا يستطيعون القيام به. مصداق ذلك في قوله عز وجل: (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا

1 . الآية 30 من سورة الروم
2 . الآية 12 من سورة يس
3 . الآية 49 من سورة الكهف
4 . الآية 3 من سورة الملك
5 . الآية 105 من سورة التوبة

اكْتَسَبَتْ)[1]. وفي قوله عز وجل أيضاً: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)[2].

وها هو القرآن الكريم يقول للناس أن الله إذ زين لكم حب الشهوات على اختلافها إنما يقصد الى ابتلائكم واختبار ما تتمتعون به من المقاومة في حدود ما هيأه لكم من القدرات وهو لا يطالبكم بأكثر مما تطيقون. يقول تبارك وتعالى: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)[3].

7 – التوحيد: أما هذه الخاصية فهي خاتمة الخصائص لكنها في الوقت نفسه التعبير الأتم عن الربانية والعنوان الذي يستوعب في معناه كلّ الخصائص الأخرى أو يرمز إليها. إن التوحيد هو الحقيقة الكبرى في العقيدة الإسلامية. وهو بالتالي المقياس الذي يقاس به الإيمان والكفر. فمن أخذ بالتوحيد واعتقده اعتقاداً جازماً فقد أعطى الربانية حقّها التام في الخلق والإيجاد في صنع الحياة والموت. مصداق ذلك في قوله عز وجل: وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ)[4].

وخلاصة القول أنّ الإعلام القرآني إذ لا يقول غير الحق وإذ يشترط الحرية للإنسان وإذ يصوغ الدعوة على صورة الحوار الحي المتصل بالوقائع اليومية، يكون قد طرح أمام العقول والقلوب والنفوس الصورة المثالية للعملية الإعلامية الفاعلية التي تحسن التعامل مع الإنسان وتدلّه على أيسر طريق وأقصرها إلى الإيمان والمعرفة وتمكّنه من الالتزام بأوامر الله ونواهيه وتحقق له المناخ الروحي المناسب والممكن للإتصاف بمكارم الأخلاق.

***

1 . الآية 286 من سورة البقرة
2 . الآية 216 من سورة البقرة
3 . الآية 14 من سورة آل عمران
4 . الآية 25 من سورة الأنبياء

الفصل السابع

الإعلام القرآني والتكرار

الحقيقة الكبرى التي تواجه المسلم حين يتلو كتاب الله، يقلب فيه عينيه ويتدبر آياته، هي حقيقة التوحيد. إن كلّ الأوامر والنواهي وما يترتب عليها من التشريعات ويتصل بها من أنواع السلوك وينبثق عنها من التنظيمات تهدف إلى غرض أساسي واحد، هو تعميق عقيدة الوحدانية في قلب المسلم.

كلّ شيء في كتاب الله يقود إلى هذه الحقيقة الكبرى... فنحن نقلب وجوهنا في السماء ونردّد قول الله عز وجل: (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) لأننا نستبين من خلال هذا التأمل الواعي حقيقة الوحدانية.

ونحن نتدبر كلّ ما يجدّ في حياتنا من الأمور، وما يتعاقب من المواقف والخبرات فلا نقع في النهاية إلا على حقيقة واحدة هي حقيقة الوحدانية.

***

كلّ شيئ في عالمنا الدنيوي يشير بالأصابع العشر إلى هذه الوحدانية التي هي وحدها القادرة على تقديم التفسير المعقول والضروري لمعجزات الكون والفساد... ابتداء من وضع البذور في الأرض الهامدة حتى خروج هذه البذور إلى الفضاء على صورة نباتات حافلة بأنواع الثمرات. وابتداء من الماء المهين الذي يخرج من أصلاب الرجال ليستقر في أرحام النساء نبتة خفية لا تلبث حتى تصبح جنيناً متكامل النمو فإذا انقضت مدة الحمل خرج إلى الدنيا خلقاً كاملاً من الخلق في كلّ خلية منه إعلان عن معجزة متجدّدة.

وكلّ هذا الشأن في النظام الدقيق الذي يتمثل في دورات الكوكب والنجوم والمجرات أو تعاقب الليل والنهار، أو في هذا الزحام الهائل من المخلوقات المتنوعة التي تزداد معالم الإعجاز فيها ظهوراً كلّما امتدّ التأمل والتدبر وتتابعت الكشوف العلمية فيها.

كلّ شيء في السماوات والأرض هو إعلان مكرّر عن الحضور الإلهي وتدعيم لعقيدة الوحدانية، ونداء تمتلئ به القلوب الواعية يعلن حقيقة التوحيد ويفرضها على العقول والقلوب والنفوس.

***

هذا الإعلان المكرّر ليل نهار، وفي كلّ ظاهرة من ظاهرات الخلق في حركته وسكونه، في كونه وفساده، فيما يرمز إليه من فنون المعاني وألوان القيم، هو دون ريب، نوع من الإعلام بحقيقة التوحيد.

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20)) سورة الغاشية .

(فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (5) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (6) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (7)) سورة الطارق

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (32) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (33) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (34)) سورة إبراهيم.

وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (21)) سورة الذاريات.

(وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5)) سورة الجاثية

وهناك مئات أخرى من الآيات التي تتحدّث عن معجزات خلقية مادية تفرض نفسها على الإنسان كلّه عقله وقلبه ونفسه، وتبعث الروع والخشوع في روحه، وتدفعه إلى التسليم بوجود الخالق البارئ العظيم.

فإذا كان التكرار في مظاهر الخلق إعلاماً مادياً يؤكد في كلّ وقت هذا الحضور الإلهي الواحد، فإنّ من الطبيعي جداً أن يكون الإعلام الملفوظ الذي يتوجّه دوره إلى العقل والقلب والوجدان والنفس مستنداً إلى خطة التكرار أيضاً.

***

ولا عجب في أن تكون المعاني والموضوعات الواردة في كتاب الله مكرّرة بصورة فنية متعدّدة وفي سياقات مختلفة، ذلك لأنّ الإعلام القائم على تكرار الإشارة إلى الحقائق هو ضرورة تعليمية تربوية. والضرورة هذه تظهر لنا حين نعلم أنّ الإنسان في فكره وعمله لا يتأثر التأثر المطلوب بالحوار العقلي والحجة المنطقية والدلالة المعبرة في مرة واحدة عابرة، بل يحتاج إلى تحويل ما يوجّه إليه من الفكر من ميدان الشعور إلى ميدان اللاشعور، بحيث يصبح هذا الفكر شيئاً ممتزجاً بأعماق روحه يصرف عقله وروحه ونفسه تصريفاً ذاتياً أي يصبح فكراً موصولاً بالعادة والألفة فلا يعود قادراً على الانفصال عنه إلا ببذل جهود قاصدة متعبة.

ولا سبيل إلى تحقيق هذه الغاية إلا عن طريق التكرار الذي يقوم بدور الإيحاء. والإيحاء كما نعلم وسيلة من وسائل الإعلام الهادف إلى إعداد الإنسان وتربيته وتعليمه الحقائق الضرورية لبناء حاضره ومستقبله.

***

وقد أدرك الإعلاميون في كلّ عصر من العصور أهيمة التكرار في الإعلام من خلال تعاملهم اليومي مع الناس وتعرفهم إلى أسرار النفس البشرية.

والجدير بالذكر أنّ المؤسسات الإعلامية العصرية قد توصّلت إلى إكتشاف ما لم يكتشفه السابقون من الفعاليات الخاصة بعملية التكرار في الإعلام. ولا سيما حين أصبح للإعلام دور بالغ الخطورة في هذا القرن العشرين وخصّصت له الميزانيات الكبيرة وعيّنت له وزارة قائمة بنفسها، وجرى إنفاق الأموال الكثيرة لابتداع خير الأساليب وأفضلها للتأثير على الجماهير. فظهرت تقنيات جديدة في هذا الميدان وأسّست كلّيات للإعلام ونمت مواهب إعلامية لم تكن تجد المناخ الملائم لها من قبل. وكان التكرار في الإعلان عن الأفكار والقضايا ذات الأهمية في نظر المؤسسات الإعلامية ظاهرة تلفت نظر الباحث والمدقق.

وقد رويت عن مسؤولين وقادة كبار أقوال تتّصل بعملية التكرار بقصد غرس أفكار معينة وعقائد محدّدة تكون في خدمة النظام القائم الذي يمثلونه ويدافعون عنه.

***

وإذا كان هناك فارق أساسي بين ظاهرة التكرار في الإعلام القرآني وغيره من السياسات الإعلامية ففي أنّ الإعلام القرآني يعتمد خطة التكرار لخدمة الأفكار النظيفة والقضايا العادلة، وبتعبير آخر في خدمة عقيدة الوحدانية التي هي جوهر

الإعلام في القرآن وحقيقته الكبرى التي تخدمها كلّ الأنشطة وتسلّط الضوء عليها كلّ المحاورات وتهدف إلى تدعيمها كلّ المواقف والمعاني التي تعبر عنها الأوامر والنواهي الإلهية.

إنّ القرآن الكريم إذ يوجّه خطابه إلى النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم أو إلى الناس يحرص على قول الحق وينادي بمناصرة الحق ويقرر في كلّ مناسبة أن لا شيء يستحق جهاداً وكفاحاً غير الحق.

فالقرآن حقّ في إعلامه... لأنه جاء ليعلم الناس أنّ الحق أحقّ أن يُتّبع.

(قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ(49)) سورة سبأ

(إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً(119)) سورة البقرة

(وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ(31)) سورة فاطر

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ(73)) سورة الأنعام

(وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ(20)) سورة غافر

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ(53)) سورة فصّلت

هكذا تكرّرت الدعوة إلى الحق كما تكرّر الإعلان عن أنّ كلّ ما يأتي به الكتاب هو الحق من الله عز وجل وأنّ الذين آمنوا بربهم هم الذين أدركوا بأنّ ما حمل إليهم هو الحق. وقد تكرّر هذا المعني في القرآن القريم مئات المرات على صور متعددة وبعبارات مختلفة ومع قرائن كثيرة تصبّ كلّها في ميدان واحد هو ميدان الإيحاء بضرورة الالتزام بالحق، هذا بالإضافة إلى المحاورت العقلية التي تتوجّه إلى العقل المستنير والقلب الواعي والنفس المتطهرة.

***

والحقّ الذي يلتزم به الإعلام القرآني حين يعتمد أسلوب التكرار في توجيه الإنسان إلى الدلالات الساطعة على ربوبية الله عز وجل ووحدانيته لا يقتصر في هذا الأسلوب على العبارات الإنشائية أو الوصفية وحسب بل يلتزم هذا التكرار أيضاً في القصة.

أي في التعليم عن طريق الإخبار بأحوال السابقين من الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم والسابقين من الأقوام الذين تلقّوا الرسالات واستمعوا لأقوال أنبيائهم ورسلهم.

وسيتبيّن لنا حين نعرض للإعلام القرآني والقصة في كتاب الله أنّ التكرار في إيراد القصة ظاهرة ملازمة لهذا الإعلام السماوي.

والملاحظ أنّ القصة القرآنية مهما تكرّرت واختلفت السياقات التي ترد فيها وطالت أو قصرت التفصيلات الواردة في كلّ منها، تبقى محتفظة بحقيقة أساسية هي أنّ التكرار في إيرادها هو لخدمة الحق الذي جاءت به لا لخدمة جهة بشرية معينة أو لتحقيق مصلحة مباشرة فيما إذا كانت هذه المصلحة أو تلك الجهة البشرية غير متفقين مع الحق الذي هو الموضوع الوحيد للإعلام القرآني.

وخلاصة القول في ظاهرة التكرار الملازمة للإعلام القرآني هي أنها ضرورة تربوية تعليمية تقتضيها الطبيعة البشرية التي لا تتأثر التأثر المطلوب ولا تنفعل الانفعال الذي يتحوّل إلى وجدان عميق في النفس ما لم يتكرّر تنبيهها وتحذيرها والتحاور معها والتدليل على صحة الرسالة بين يديها. وبتعبير آخر نستطيع القول، ونحن مطمئنون إلى ما نقوله، بأنّ التكرار في العملية الإعلامية هو شيء في صميم الفعالية المطلوبة لكلّ رسالة إعلامية. يضاف إلى ذلك أنّ التكرار في الإعلام القرآني غير مملّ كما لا يدعو إلى النفور عند القارىء والسامع، لأنه يردّ على صور متباينة وفي سياقات مختلفة وبتفصيلات تتفاوت طولاً وقصراً مما يستقل به الإعجاز البياني في كتاب الله. وهو أيضاً مما أسهب الباحثون في الاعجاز القرآني في الحديث عنه وتبيان أسراره ووجوه القوة والجمال في جوانبه.

***

هذا وقد تنبّه العلماء الباحثون في كتاب الله إلى ظاهرة التكرار فيه فتحدّثوا عنه في إسهاب وأطنبوا في عرض أسبابه وتبيان أسراره. وممن أشاروا إلى هذه الظاهرة حين الحديث عن دعوة التوحيد في كتاب الله ابن القيم الجوزية قال: "إنّ كلّ آية في القرآن متضمنة للتوحيد، شاهدة به، داعية إليه. فإنّ القرآن إمّا خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله، فهو التوحيد العلمي الخبري. وإمّا دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له، وخلع ما يعبد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي. وإمّا إلزام بطاعته في أمره ونهيه، فهو حقوق التوحيد ومكمّلاته، وإمّا خبر عن كرامة الله لأهل توحيده وطاعته، وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة،

فهو جزاء توحيده، وإمّا خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال، وما يحلّ بهم في العقبى من العذاب، فهو خبر عمّن خرج عن حكم التوحيد. فالقرآن كلّه خبر في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم"[1]

***

كما أنّ ظاهرة التكرار هذه قد تحدّث عنها الدكتور التهامي نقرة في سياق بحثه عن القصة في القرآن يقول:

"من السهل جداً الإيحاء بفكرة وقتية في عقول الجماعات، لكن من الصعب جداً تمكين معتقد دائم في قلوبها، أو هدم اعتقاد تمكّن منها".

ثم يستشهد على ذلك بقوله عزّ مِن قائل: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ)[2] ولم يكن للرسول من دليل في هذه الطريق الشائكة المتشعّبة سوى الوحي القرآني الذي كان يهدف في المرحلة المكية الشاقة إلى أن يشرب القلوب عقيدة التوحيد، ويمحو منها العقيدة الوثنية، بما قصّ من أنباء وضرب من أمثال، وأقام من أدلة. (وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا)[3] لأنّ غرضه ليس بيان الحق فقط، بل تعميق مجراه في القلوب.

ولم يكن هذا الحق سوى عقيدة تصل الناس بربهم من غير واسطة، فيؤمنون بأنّه هو وحده صاحب الحول والطول، منه المبدأ وإليه المصير، فتتحرّر قلوبهم، وتصلح نفوسهم، وتستقيم حياتهم على نهج قويم.

والاعتقاد هو الحالة النفسية التي تعقب الحكم وتقلبه بالتكرار إلى عادة. وهو يغذي بالعمل والحياة. والإيمان الذي لا يصحبه عمل قد يكون صادقاً، ولكن لا يلبث أن يصاب بالفتور والموت" [4].

***

في ضوء هذين الشاهدين والشواهد السابقة يمكن أن نقرّر بأنّ تكرار المعنى في سياقات مختلفة هو ظاهرة متميزة في الإعلام القرآني. هو في القصة كما هو في الأخبار عن صفات الله وأفعاله، وكما هو في دعوة البشر إلى عبادته، والالتزام بطاعته، كما

1 . أنظر كتاب مدارج السالكين جزء 3 ص 289 – 290.
2 . الآية 14 من سورة الحجرات
3 . الآية 89 من سورة الاسراء
4 . انظر ص 114 – 115 من كتاب سيكولوجية القصة في القرآن للدكتور التهامي نقرة – رسالة دكتوراه – جامعة الجزائر – 1971 الشركة التونسية للتوزيع.

هو أيضاً في الإخبار عن أهل الشرك وما ينزل بهم من النكال في الدنيا والآخرة. والموضوع الذي تدور حوله كلّ هذه النصوص واحد لا يتغير ولا يتبدّل: إنّه موضوع التوحيد لله عز وجل.

***

وقد لا يخلو من الفائدة أن نورد رأي علماء النفس في ظاهرة التكرار ودورها في تعميق الأفكار في النفس وتدعيم الولاء لعقيدة معينة. والواقع أنّ علماء النفس مجمعون على أهمية التكرار في التربية والتعليم وفي تشكيل الرأي العام. بل أنّ الخبراء النفسيين لم يجدوا وسيلة لغسل الأدمغة خيراً من الإيحاء المتكرّر بفكرة واحدة ثابتة. هذا مع العلم أنّ غسل الأدمغة قد أصبح اليوم وسيلة لتليين المعارضة وإضعاف المقاومة خدمة لأغراض سياسية، كما أصبح سلاحاً من الأسلحة التي تستخدمها الجيوش في ميدان المعركة.

يروي الدكتور التهامي نقرة قائلاً: "يقول علماء النفس: أنّه متى كثر تكرار أمر تولّد تيار فكري وعاطفي يتلوه ذلك المؤثر العظيم في الأفراد والجماعات وهو العدوى. إذ لا يكفي لتحول الانفعال إلى عاطفة أن يحدث مرة واحدة، ولكن لا بدّ لحصول ذلك أن يتكرّر حدوثه. فالتكرار هو السبيل الوحيد لربط الانفعال به، وتركزه حوله، إلى جانب ما يثيره من انفعالات أخرى تدخل في تركيب العاطفة. وإنّ عاطفة قوية لكافية لتحديد نشاط الفرد واتجاهه في الحياة. ولا شك أنّ تكرار القول لا يقل تأثيراً في إثارة الانفعال وتكوين العواطف من تكرار الفعل، بل أن التكرار في القول مما يدفع إلى الفعل"[1]

***

يضاف إلى ما سبق أنّ التجار والصناعيين ورجال الأعمال على اختلاف الميادين التي ينشطون فيها قد أدركوا أهمية التكرار في الترويج لبضاعتهم أو التمكين لمشروعاتهم واكتساب الرأي العام إلى جانبهم فلجأوا إلى الإعلان الذي تقع عيون المشاهدين عليه منشوراً في الصحف أو مبثوثاً عبر الأجهزة الإذاعية والتلفزيونية. كما حرصوا على إعداد الإعلان بأشكال وصور متعددة لأنّ التكرار مع التنويع في عرض الموضوع الواحد يحدث الأثر المطلوب. وقد ترتب على ظهور أهمية الإعلان الذي يتكرّر ظهوره في سياقات وصور متعددة نشوء مؤسسات إعلانية لعبت ولا تزال تلعب دوراً خطيراً في تقرير مصير السلع التي يراد الترويج لها بين المستهلكين. كما ترتّب على ذلك أيضاً ظهور مؤسسات ضخمة للعلاقات العامة تتولى الاتصال بالجماهير

1 . نظر المصدر السابق ص 116.

للترويج لفكرة معينة أولتدعيم قوة، وصنع معين، أوللتمكين لرجل سياسي في الأوساط الشعبية وذلك بالإستعانة بعملية التكرار في العرض.

وبلغ من تعقد هذا الميدان الإعلامي ونموه أن بعض القائمين عليه قد توسلوا وسائل غير أخلاقية لتزوير الوقائع بعد أن تبين لهم بالتجربة بأنّ الجوانب غير المنطقية من النشاط الإنساني هي التي تؤثر أعظم التأثير في صنع التاريخ البشري وأنّ تغيير الأفكار بالحوار المنطقي وحده دون الاستعانة بالإيحاء المتكرّر لا يحدث وإذا حدث فهو تغيير ضئيل لا يكفي لتحقيق التحولات في المواقف والأفكار والميول.

ومن هنا يتبين كم هو خطير ومهم استخدام هذا الأسلوب في الإعلام... وكم هو مضر إذا لم يتميز بالاستقامة والنظافة ولم يكن في خدمة الحقيقة.

***

والجدير بالذكر أنّ كثيرين من القادة الذين يحرصون على شد الجماهير المؤيدة إليهم قد استغلوا عملية الإيحاء المتكرّر بفكرة معيّنة وهيأوا لإعلامهم أجواء حافلة بالإثارة تساعدهم على تدعيم الولاء الذي يرغبون في تدعيمه والذي يكفل لهم الحفاظ على مصالحهم وتغذية نفوذهم السياسي.

فالعروض العسكرية ووضع الزينات المثيرة واقامة الأعلام وإلباس الجنود الثياب الزاهية وإبراز الميادين التي تجري فيها هذه العروض وعزف الأناشيد الوطنية الحماسية وحشد الموسيقين الذين يعزفون ألحاناً عنيفة قوية كلّ هذا يقصد به خلق المناخ الذي يستهوي نفوس الجماهير المشاهدة ويضعف دور العقل في محاكمة المعاني والأفكار التي تردّ في خطب القادة أثناء هذه الاحتفالات... كما تصطنع الشعارات المهيجة وتتكرّر المناداة بها قبل الخطب وفي أثنائها وبعد الانتهاء منها. وهي كلّها وسائل تعتمد على خطة التكرار الذي يقوم بعملية الايحاء.

والملاحظ أنّ هذا الأسلوب في طرح الأفكار وتوجيه الجماهير سلاح ذو حدين فإمّا أن يكون في خدمة الحق وأهله وإما أن يكون في خدمة الشر وأهله. والأخلاق العامة عند القادة والطبقات الواعية من الشعب هي وحدها التي تقرّر جهة الاستخدام وتعيّن الأغراض المطلوبة.

ونحن هنا أحرص ما نكون على القول بأنّ ظاهرة التكرار في القصة والوعظ وتوجيه الأوامر والنواهي ووصف الجنة والنار والحملة على أهل الشرك والكفر والتنديد بالنفاق وأهله وتبشير المؤمنين بالنصر في الدنيا وحسن المآل في الآخرة قد تميزت

بالتنوع في العرض والخبر والاستعانة بالصور الحية من أجل الحق وفي سبيل الحق والتزاماً بالعقيدة الصافية التي هي جوهر الدعوة في القرآن الكريم.

الفصل الثامن

الإعلام القرآني والقصة

إذا جاز لنا أن نقول، وهو قول حق، بأن القرآن الكريم قد علم الإنسان بالإعلان المباشر عن عقيدة التوحيد، وبالحوار المنطقي المنظم الذي يثبت ربوبية الخالق عز وجل ويؤكد عبودية المخلوقات كلّها، وبأسلوب الترغيب والترهيب الذي يمسّ المشاعر ويتّصل بأعماق الوجدان الإنساني، ترغيب في الفوز برضوان الله عز وجل وترهيب من العذاب يوم القيامة، وبتوجيه الأوامر والنواهي التي تنتظم بالطاعة لها شؤون الدنيا في الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والأخلاقية، كما تنظم بها شؤون الآخرة وتتحدد بها مصائر البشر بعد الموت، إذا جاز لنا أن نقول هذا كلّه، فإنّ من واجبنا أيضاً أن نعلن بأنّ القرآن قد علم الإنسان بالقصة وجعل منها فناً قائماً بنفسه في الأداء الأدبي وفي الإعلان عن الحقائق الثابتة التي تعاقَب الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم منادين بها داعين إليها في دأبٍ وتكرار وصبر لا ينفذ معينه.

***

لكنّ القصة في القرآن ليست هي القصة الفنية التي تعارف عليها القصاصون وكتاب الروايات في مختلف العصور وفي كلّ الحضارات البشرية. وقبل أن نتحدّث عن الفوارق القائمة بين القصة كما وضعها الخيال البشري وبين القصة كما جاءت في كتاب الله. يجدر بنا أن نقرر بأنّ القصة بصورة عامة هي أسلوب من أساليب التأريخ لمسيرة البشر عبر القرون.

إنها سلاح إعلامي خطير يختلط فيه التعليم والخبر ويتمّ به توجيه القارئ والسامع لتحقيق الأغراض المطلوبة. ولعلّ السبب في خطورة الدور الذي تقوم به القصة في حياة الإنسان يعود إلى الحقائق التالية:

1- أنّ الإنسان بطبيعته يميل إلى التقليد... ولما كانت أحداث القصة متمثلة في شخوص تفكّر وتتصرّف وتصنع الأحداث وتعبر عن عواطفها وتظهر انفعالاتها المختلفة أمام الوقائع التي تعرض لها فإنها تبدو للقارئ أو السامع وكأنها نماذج بشرية تملك جاذبية غير عادية حتى أنها لتندمج في تصميم نفسية السامع والقارئ فلا يعودان يفرقان بينها وبين حياتهما الشخصية ثم يحاولان أن يقلدا هذه النماذج على نحوتم به التعاطف الكامل معها.

وتظهر أهمية التقليد وفعالية شخوص القصة في تغذيته في الأوساط الشعبية التي يستهويها الاستماع إلى أخبار الأبطال وتفصيلات الأحداث التي تمر بهم. فالجمهور تحت تأثير إحساسه بالتماثل النفسي مع أبطال القصة قد رفض وقوف القصاص

عند فصل من الفصول يصور هذا البطل في موقف حرج، في الأسر أو السجن أو جريحاً في معركة، فهو أي الجمهور يلحّ على القصاص أن يحرّر البطل من الأسر أو يخرجه من السجن أو يشفيه من جراحه بمتابعة قراءة الفصل التالي. كلّ ذلك لأنّ إحساسه بالتماثل المتولد عند تقليده للبطل في سلوكه وتصرفاته يجعله يشعر وكأنّ أسر البطل أو سجنه أو أصابته بالجراح هو في الحقيقة أسر له وسجن لشخصه أو إصابة لجسده بهذه الجراح. وقد بلغ من اهتمام علماء الاجتماع والنفس بظاهرة التقليد أنّ بعضهم وهو العالم الاجتماعي تارد قد قرر بأنّ الإنسان في جوهره حيوان مقلد.

2- أنّ الإنسان بطبيعته شديد التأثر والانفعال بالصور الفنية المرافقة لرواية الأحداث في القصة... تثبت هذه الظاهرة النفسية بالمواقف العاطفية المختلفة أمام تفصيلات القصة تبعاً لمهارة كاتب القصة في اختيار الصور المثيرة والألفاظ المعبرة ذلك لأنّ للصور دورها في تغذية الخيال وللألفاظ المعبرة تأثيرها الفعال بفضل الجرس الذي يتميّز به كلّ منها. ومن هنا تتباين كفاءات الكتاب وتختلف قدراتهم في ابتداع الصور واختيار الألفاظ. ففي وسع بعضهم أن يقدّم حادثاً مأساوياً يستخرج به الدموع من العيون ويبعث الحزن في القلوب بينما يعجز بعض آخر عن تحقيق هذا الأمر رغم روايته للحادث نفسه. والاختلاف في العرض الجيد المثير يعود إلى اختلاف المواهب وتباينها عند أصحابها.

3- أنّ الإنسان بطبيعته يميل إلى تقديس الآباء والأجداد فلا يجد فيهم باستثناء القلة، غير نماذج بشرية تتّصف بالشجاعة والحكمة والنبل وكلّ الصفات الكريمة. ولعلّ هذا هو السر في تعلق الناس بتاريخ الآباء والأجداد وفي رغبتهم الملحة في تصوير القدماء بصور تستهوي خيالهم وتدفعهم إلى الفخر بهم. وقد بلغ من اهتمام الناس بالأجداد وحرصهم على تنزيههم وتنقية أخبارهم من الشوائب أنّ بعضهم قد عبد هؤلاء الأجداد وجعل لتقديسه لهم طقوساً دينيه يمارسها في حياته اليومية. وقد ظهرت عبادة الأجداد عند القبائل البدائية ذات الطقوس الطوطمية. كما تميز الشعب الصيني في فترة طويلة من تاريخه بعبادة الأجداد وتقديسهم. وليست المحافظة على التقاليد والتمسك بالعادات غير مظهر الولاء للأجيال القديمة. ولما كانت القصص المروية خاصة بتحركات القدماء من البشر فإنّ من الطبيعي أن تلعب هذه القصص دوراً تربوياً بالغ الأهمية.

***

من أجل ذلك وانطلاقاً من الوقائع والملاحظات التي تكشف عن ميل الإنسان الطبيعي إلى سماع القصة وعن تأثره بأعمال شخوصها وأفكارهم، ولما كانت حكاية التاريخ بصورة خاصة ذات دور تربوي متميز في تشكيل النفس البشرية، ولما كان التاريخ الديني ذا دور تربوي أخص في التأثير على نفوس الناس، ولما كانت الثقافات المنتشرة في عصر الرسول صلى الله

عليه وسلم ذات صلة وثيقة بالروح الدينية وأخلاق التعبد للإله المجهول عند الشعوب المعاصرة له. ولما كانت غريزة التدين ظاهرة بشرية مستمرة حتى اليوم، لعبت وتلعب دوراً فعالاً في تحريك العواطف وتعبئة الأفكار وتوجيه إرادات البشر، ولما كان الغرض من الإعلام القرآني هو الضرب على أوتار الحساسة في النفوس والدخول إلى خفايا القلوب والعقول لشدّ أصحابها إلى القيم الإسلامية وتوعيتهم بالحقائق السماوية الخالدة، ولا سيما حقيقة التوحيد، فقد جاءت القصة القرآنية تعبيراً صادقاً عن خطة الدعوة إلى الله واستجابة لبعض شروط الإعلام الناجح الذي يريد إيصال الحقائق إلى أصحاب العلاقة من رجال والنساء، بل إلى كلّ المخلوقات التي تتمتع بالملكات القادرة على الوعي والتجاوب مع هذا النوع من الإعلام الديني.

لذلك نشهد في القصة من الإعلام القرآني أحداثاً ووقائع تتّصل بكلّ العوالم العاقلة... فهناك عالم الملائكة الذي رويت قصص تتصل به، وهناك عالم الشياطين من الجن والأنس الذي يشير بعض القصص إليه، وهناك عالم الإنس الذي يبدو الموضوع الرئيسي للقصة، وبذلك تناولت القصص القرآنية في كثرتها الغالبة الأحداث والوقائع التي صدرت عن الإنسان على امتداد القرون وتتابع الأجيال. بل أنّ هناك إشارة إلى واقعة تحكي حكاية حوار جرى بين إله ومخلوقاته المادية وبصورة خاصة السموات والأرض.

***

أما فيما يتعلق بالقصة التي شاركت الملائكة في نسج وقائعها فهي تلك التي تحكي واقعة الإعلان عن استخلاف آدم عليه السلام في الأرض وما نجم عنها من حوار بين الله وملائكته، وبين الله وإبليس، ثم بين الله وآدم نفسه. وقد رويت هذه القصة أكثر من مرة في أكثر من سياق واحد وفي عدد من السور القرآنية. وأبرز هذه القصص وأكثرها تفصيلاً ظهرت في سورة البقرة الآية (34).

أما فيما يتعلق بعالم الشياطين من الجن والأنس الذين شاركوا في صنع بعض الوقائع فإنّ القرآن الكريم قد حدثنا عن موقف إبليس الذي رفض السجود لآدم عليه السلام وأشار إلى هذه الواقعة في أكثر من مكان واحد منه... نجد ذلك في سورة البقرة التي أشرنا إليها قبل قليل ثم في السور التالية: (الحجر، الإسراء، والكهف، وطه، وسبأ، وص).

كما تناولت القصة وقائع تتصل بعالم الجن بخاصة. ذكرت في كلّ من سورة الأحقاف وسورة الجن وسورة النمل، وسورة سبأ.

وأما فيما يتعلق بعالم الإنس فإنّ القصص التي تحكي حكاية سلوكهم وتصرفاتهم وتعود بالقارئ إلى الوقائع الصادرة عنهم فهي كثيرة جداً. نجدها في الوقائع التي صدرت عن الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم باتجاه أقوامهم أو صدرت عن أشخاص عاديين من مثل أهل الكهف والعبد الصالح الذي جاءه موسى عليه السلام يتعلم منه وغيرهم.

وأخيراً يشير الإعلام القرآني القصصي إلى واقعة سريعة يتحدث فيها عن النداء الذي وجهه الله عز وجل إلى السماوات والأرض فاستجابتا للنداء وقالتا أتينا طائعين.

***

وإذاً فإنّ أبرز ما يتميز به الإعلام القصصي في القرآن أنه حكايات شاملة تستوعب المخلوقات كلّها وإن كانت تهتم بأخبار البشر بصورة خاصة. فالبشر هم مادتها الإعلامية وهم الهدف الذي توجّه الرسالة الإعلامية إليه. يضاف إلى ذلك أنّ القصص الدينية التاريخية كانت تمثل ولا تزال المساحة الكبرى في ميدان التوجيه الديني والدعوة إلى الله. وليست القصص التي تحكي وقائع متصلة بغير عالم الأنس إلا عوامل مساندة للقصص البشرية ومصادر لتوطيد ظاهرة الشمول والاستيعاب في مفهوم الذات الإلهية.

***

والجدير بالذكر أنّ مصدر القصص القرآني هو الوحي السماوي إذ لا يعقل أن يروي القرآن قصصاً على ألسنة رواة من البشر في الوقت الذي يؤمن فيه كلّ المسلمين بأنّ ما جاء فيه هو وحي كلّه.

وليست مهمتنا هنا أن نثبت إيماننا بأنّ الوحي هو مصدر الإعلام القصصي القرآني فهذا شأن غير شأننا. المهم هو تسجيل حقيقة أن القصص القرآني وحي مباشر من السماء بينما كانت كلّ القصص التي تعارف عليها التاريخ البشري، أكانت قصصاً دينية أوغير دينية، هي من صنع الإنسان حتى تلك الواردة في التوراة والإنجيل كما يدل على ذلك سياق القصص نفسها والطريقة التي رويت بها وقائعها.

***

والجدير بالذكر أنّ الأدب القصصي في القرآن الكريم لا ينطبق عليه مبدأ (الفن للفن). بل هو أدب ملتزم يقصد إلى غرض تربوي تعليمي ويتوسل الوسائل الفنية التي تجعل منه نصوصا سائغة في الأفهام مقبولة في العقول، مثيرة للعواطف المختلفة، وهي كلّها في خدمة شيء واحد هو تقرير حقيقة الوحدانية.

والقرآن يشير إلى هذا الالتزام في القصة فيقول للنبي صلى الله عليه وسلم (فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)[1] (1).

وإذا فالقرآن يقصد إلىإعلام الناس ودفعهم إلى التفكير والتأمل السليم عن طريق الخبر الذي يقص به أخبار الأمم السابقة ويتقصى به المواقف وأنواع السلوك التي صدرت عنها في مراحل مختلفة من التاريخ.

***

ظاهرة أخرى تلفت النظر في الإعلام القرآني القصصي هي أن القصة فيه ليست مجرد رواية لوقائع مادية على طريقة المؤرخ المحقق الذي يكتفي بقراءة الوثائق وتطبيق ما يعرفه من المبادئ العلمية والإستعانة بخياله لملء الفجوات التي تعجز المبادئ العلمية أو الوثائق عن ملئها، وليست رواية منعكسة عن خيالات أسطورية وأوهام شعبية كما هو الشأن في القصص اليونانية الرومانية القديمة التي احتفظ بها حتى اليوم والتي تحكي حكايات متصلة بقبائل من الآلهة وجماعات من أنصاف الآلهة والناس العاديين دون أن يكون وراءها أي التزام خلقي أو فكري معين، من مثل الياذ هو ميروس وأوديسة فرجيل، وليست من طراز القصص التي تتحدث عن بعض أيام الأمم وتصور بطولات بعض الأفراد فيختلط فيها الخيال بالواقع ويبرز فيها التحيّز لإشباع رغبة قومية أو أنانية أو أمجاد شخصية معينة من مثل قصة عنترة بن شداد، وليست من قبيل الملاحم التي تمّ بها استعراض الوقائع التاريخية الفاصلة والتي تختلط فيها الأسطورة بالواقائع الحقيقية من مثل الشاهنامة عند الفرس، إنما هي قصة جادة تهدف إلى تحقيق غرض إعلامي نابع من العقيدة الدينية الأساسية التي هي عقيدة التوحيد متصل بالآداب والالتزامات التي تقتضيها هذه العقيدة، ولذلك فإنّ القصة القرآنية تتميز دائما بنوع واضح من التحسين والتقبيح... تحسين العمل الصالح، وتقبيح العمل الفاسد ودعوة القارئ والسامع إلى الاتعاظ والاعتبار دعوة مباشرة ليست رمزاً ولا إشارات بعيدة. فهي تقول الحق وتروي الوقائع دون مبالغة ولكنها تعتمد الأسلوب الفني والإثارة النفسية لتمنح الوقائع المروية قوة إيحائية وقدرة معنوية على إيقاظ القيم الخيرة النبيلة في النفوس. ويشترك في تأليف المناخ الفني الذي يعطي القصة حيويتها ويمنحها قوتها التأثيرية وأسلوب الغوص على المشاعر العميقة وطريقة التأثير على الوجدان مستعيناً باختيار الصور الفنية الملائمة والإيقاع الموسيقي المناسب للألفاظ المختارة.

1 . من الآية 176 من سورة الأعراف

***

وفي الوقت الذي تعرض فيه القصة بأقلام البشر عرضاً يتميز بالتزام قواعد فنية معينة من مثل التزام الوحدة في المكان والزمان والاهتمام بالعقدة التي تنفرج في النهاية لاستهواء القارئ، فإنّ القصة القرآنية لا تهتم بمتابعة الأحداث كبيرها وصغيرها، المهم منها وغير المهم، كما أنها لا تهتم بتحديد الزمان أو المكان إلا في حالات نادرة جداً، كما أنها لا تبالي باستهواء القارئ عن طريق تعقيد الأحداث تعقيداً يتنافى مع الواقع، بل تلتزم باختيار الفصل من القصة الذي يصلح لتقرير فكرة معينة أوتوجيه يتصل بموقف أخلاقي. إنّ الإعلام القرآني القصصي يرفض رفضاً تاماً شغل القارئ بالأشياء والاهتمامات الثانوية. بل يطرح خطة جديدة في الإعلام القصصي تتميز معها اللقطة القصصية بالصدق والواقعية والوضوح... لأنّ أعظم ما في الأدب هو صدقه وواقعيته ووضوحه، كما أنّ هذه الخطة تتجنب التفصيلات التي يمكن أن يتخيلها القارئ فيستغني بخياله عن الأسلوب المطنب المسترسل فيما لا يزيد القارئ علماً.

والجدير بالذكر أنّ القصة في القرآن الكريم هي أشبه ما تكون باللقطات السينمائية المعبرة التي تقفز بالمشاهد من زمن إلى زمن ومن شخص إلى آخر ومن حادث إلى حادث بإحداث فواصل سريعة، أو تغير طريقة التصوير، أو الاستعانة بلمحة عابرة، وأخيراً بتغيير أسلوب العرض كما يفعل المخرج حين ينقل المشاهد بواسطة تعديل في الموسيقى التصويرية.

ولعلّ قصة أهل الكهف أن تكون نموذجاً حياً من النماذج القصصية المتميزة بالحركة والحيوية والتصوير المبدع. قال عز وجل يصف مشهداً من مشاهد القصة التي شغلت من سورة الكهف ما بين الآية 13 والآية 22: (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا(18))

هذا المشهد الذي يقدّمه القرآن يبدو لنا مؤلفاً من أربع لقطات سريعة حاسمة متلاحقة يمسك بعضها بعضاً ويكمل بعضها بعضاً. والمقصود بهذا المشهد هو تسليط الضوء على مجموعة من الرجال يبدون أيقاظاً وهم رقود – ويتقلّبون ذات اليمين وذات الشمال تبعاً لحركة الشمس وتقلّب نورها– وكلبهم جالس عند مدخل الكهف — فإذا أثبت المشاهد نظره فيما بين يديه من هذه الصورة خامره إحساس مرعب جارف ولاذ بالفرار.

***

إنها البلاغة المعجزة التي لا يسعك معها أن تنقص كلمة واحدة كما لا تجد حاجة إلى زيادة كلمة واحدة. ذلك لأنّ المعنى فيها على قدر اللفظ، واللفظ في حدود المعنى الذي يطلب التعبير عنه. والملاحظ بالإضافة إلى ما سبق أن للقصة هنا مهمة محددة تبدو من خلال المشهد القصير الموصوف في الفقرة السابقة، إنها مهمة الوفاء بالغرض المطلوب مع تجنب الإطناب والإمتناع عن إيراد الصور أو المعاني الجانبية التي لا تلعب دوراً أساسياً في تحقيق الغرض المطلوب.

والسبب في إهمال المعاني والجزئيات الجانبية أنّ النص القرآني يعتمد الطريقة الإيحائية التي تستند إلى خيال القارئ والسامع وتجد فيه الملكة التي تمد الصورة الأساسية فيبدو المشهد الموصوف وكأنه قذيفة تحمل في ذاتها قدرتها على الإنطلاق. ووقودها هو خيال الإنسان الذي يجاوز في تنمية الصورة الموضوعة كلّ الأقلام قدرة على الإبداع.

***

على أنّ هذا المشهد الذي اخترناه من قصة أهل الكهف لا يستقل بالظاهرة البلاغية التي أشرنا إليها. إنّ كلّ آية من الأيات التي روت تفصيلات القصة هي بمثابة بناء معماري يشغل جانباً دقيقاً محدّد الأبعاد من الصرح الذي يقصد إلى رفع قواعده واستكمال أجزائه كلّها.

ولكي ندرك أهمية هذا الجانب من الإعلام القرآني الذي يستعين بالقصة نورد فيما يلي القصة القرآنية كاملة. قال تبارك وتعالى ابتداءً من الآية 13 من سورة الكهف: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (13) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (14) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (15) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا (16) وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (17) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (18) وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (19) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (20) وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ

قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (21) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (22)).

هذا هو تمام القصة التي نسجل تعقيباً عليها الملاحظات التالية:

1- إنّ الوقائع فيها تروى على طريقة اللقطات السينمائية كما ذكرنا قبل قليل بحيث يدرك المشاهد العلاقة بين كلّ لقطة وأخرى بما يملكه من الخيال فلا يحتاج إلى الإفاضة في تصوير المشاهد الجزئية.

2- إنّ القصة لم ترد للتسلية بل لتقرير حقائق معينة في مقدّمتها ومن أهمها إثبات أن وعد الله حق. فإذا كان النوم الذي يتم في كلّ ليلة، هو نوع من الوفاة، غير كاف لاثبات قدرة الله على إحياء الميت، فإنّ هذا النوم الذي امتد ثلاثة قرون ونيفاً ثم تلته عودة أصحابه إلى الحياة هو برهان دامغ على قدرة الله عز وجل.

3- إنّ في القصة خطة لتعليم فن الحوار وطريقة الدعوة إلى الله. فلقد أمر الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم أن يمتنع عن الدخول في مناقشات تتعلق بعدد أصحاب أهل الكهف – لأنّ هذه المناقشة لا تقدّم ولا تؤخر في تقرير الحقيقة المقصودة من إيراد القصة أو وقوع المعجزة.

4- أنّ الموت كالنوم يلغي الوعي بالزمن. ولذلك فإنّ من مات منذ الف عام يكون وعيه بالزمن بالقدر الذي يكون فيه وعي من سيموت بعد ألف عام... أي أنّ الزمن يلغى في عالم الموت. وقد أطلق القرآن على النوم اسم الوفاة في قوله عز وجل: (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ). يثبت هذه الحقيقة أنّ أصحاب الكهف لم يدركوا حين يقظتهم كم لبثوا في نومهم فظنوا، وهم الذين امتد نومهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً، أنهم قد لبثوا يوماً أوبعض يوم.

5- إعلان أنّ الرعاية الإلهية مضمونة موفورة لمن صدقوا ما عاهدوا الله عليه من الإيمان به والصدق في عبادتهم له عز وجل.

6- إنّ هجرة المؤمن بعقيدته حين يغلب على أمره واللجوء إلى رحمة الله عز وجل عملان مشروعان.

***

من هنا كانت تفصيلات القصة على قدر الأغراض المطلوبة منها... والطريقة في تقديم المشاهد وعرض الوقائع تتميز بالوضوح والإيجاز غير المخل. من أجل ذلك قررنا في غير هذا المكان أنّ القصة القرآنية بما تقصد إليه من إيصال حقائق معينة لا تلتزم بالعناصر المألوفة في القصة من شخوص وحوار وشروط مكانية وزمانية وعقدة تضع القارئ في حيرة أمام النهاية المقررة للوقائع.

أما ما يتعلق بظاهرة التكرار في إيراد القصة الإعلامية في القرآن فالحقيقة أنّ ما يعتبر تكراراً في القصة قد يكون كذلك من وجهة النظر المادية لكنه في الحقيقة ليس تكراراً من وجهة النظر التربوية والنفسية. ذلك لأنّ ما يروى من القصة في كلّ مرة يختلف عن سواه في غيرها وذلك في ضوء السياق وتبعا للحاجة إلى إبراز معنى معيّن في العملية الإعلامية.

***

ولما كان إثبات هذه الظاهرة متعذراً بالنسبة لكلّ القصص الواردة في كتاب الله فإنا نقتصر على إيراد النصوص الخاصة بقصة آدم عليه السلام والإشارة إلى السياقات التي وردت فيها هذه القصة بتفصيلاتها كلّها أو بالإشارة السريعة إلى فقرة أو أكثر من فقراتها وحسب. ويقول الله عز وجل في سورة البقرة: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (30) وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (31) قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (32) قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (33) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إبليس أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (34) وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (35) فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (36) فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (37) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (38) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (39))..

هذه هي القصة الكاملة لأبي البشر آدم عليه السلام في خطوطها العامة. وقد ذكرنا في فصل سابق (آدم عليه السلام... النموذج البشري للإعلام القرآني) أنّ المراد بهذه القصة وضع صورة واقعية لأبعاد الشخصية الإنسانية في جوانب القوة والضعف منها بحيث تبدو شخصية آدم عليه السلام للأجيال من بعده النموذج البشري الذي يجدر بها أن تسير على

خطاه. كما ظهر لنا في سلوكه العملي ما يفتح الطريق واسعة أمام الراغبين في التوبة إلى الله رغم الشقاء الذي كتب على ابن آدم والفتنة التي كتب عليه أن يتعرض لها. ولذلك فنحن لا نحتاج لإعادة ما ذكرناه في ذلك الفصل.

***

والجدير بالذكر أنّ تكرار الحديث عن آدم بعد ذلك قد ورد في سياقات مختلفة تماماً. والمقصود بذلك هو تسليط الضوء على جانب تعليمي معين.

صحيح أنّ آدم عليه السلام بإعتباره النموذج البشري الأول والظاهرة الباقية بقاء البشرية بكلّ ما فيها من جوانب الضعف والقوة لكنه في الوقت نفسه يعتبر في مقدمة الرجال والأسر التي قضت الإرادة الإلهية باصطفائها لتكون المثل الأعلى الممكن والواقعي أمام الاجيال المتتابعة.

وفي ضوء هذا المعنى نزل قوله تبارك وتعالى: (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ).

ثم ينتقل القرآن الكريم إلى إيراد قصة أخرى تتعلق بظهور السيدة مريم رضى الله عنها وعلاقتها بزكريا عليه السلام وولادة يحيى عليه السلام. ومن ثم تبدأ قصة ظهور عيسى عليه السلام والظروف التي رافقت ولادته من غير أب بأمر قضاه الله عز وجل، حتى إذا استكملت قصة هذا النبي الكريم في خطوطها العامة لفت الوحي السماوي أنظار الناس إلى أنّ الظاهرة العيسوية هي نفسها الظاهرة الآدمية بالذات. فوردت الإشارة إلى آدم عليه السلام مرة ثالثة لتبيان الجانب الخلقي المعجز الصادر عن الخالق جل وعلا. مما يجب أن يزيل الشكوك ويقضي على الريب التي أحاطت بمولد السيد المسيح عليه السلام. قال عزّ من قائل: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ)[1].

وإذاً فالسياق الذي وردت فيه الإشارة الثالثة إلى آدم في هذا المكان من كتاب الله مختلف عن السياقين السابقين. وهذا يعني انتفاء التكرار الذي يتمّ دون تحقيق فائدة جديدة لم تكن محقّقة في السياقين السابقين. فهو تكرار في الشكل ولكنه ليس تكراراً في المضمون لأنّ المناسبة مختلفة ولأن المعنى الذي أريد إبرازه هنا لم يبرز في المناسبتين السابقتين.

فإذا انتقلنا إلى سورة الأعراف وحاولنا أن نتبيّن السياق الرابع الذي تكرّر فيه ذكر آدم عليه السلام واجهتنا ظاهرة جديدة.

---

1 . من الآية 59 من سورة آل عمران

هذه الظاهرة التي تلفت النظر يرد فيها الحديث عن آدم عليه السلام لتقرير حقيقة جديدة هي أنّ النموذج الآدمي في ظروف خلقه وفي المسؤوليات المترتبة على خروجه إلى الدنيا ينسحب على الناس كلّهم. لقد أخبرنا الوحي السماوي أنّ الله قد خلقنا وصورنا ثم وضعنا في الموضع الذي اختاره لأبينا آدم عليه السلام فنحن إذاً مثله في تعرّضنا لما تعرض له من الفتنة وفي فوزنا بما فاز به من التكريم. ولذلك حقّ علينا ما يحق عليه ووجب لنا ما يجب له. ولذلك أعاد الوحي السماوي من قصة آدم عليه السلام الفقرة التي تطرح القاسم المشترك بينه وبين الأجيال البشرية من بعده. إنها الفقرة التي تتحدث عن سجود الملائكة لأبي البشر وإباء إبليس للسجود. مع إضافة تفصيل لم يرد في قصة سورة البقرة. هذا التفصيل نجده في قوله تبارك وتعالى: (قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ{12}قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ{13}قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{14}قَالَ إِنَّكَ مِنَ المنظَرِينَ{15}قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ{16}ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ{17}قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ{18}){1}

وبعد أن يرد في قصة الأعراف ذكر دعوة الله لآدم وزوجه أن يسكنا في الجنة على ألا يقربا الشجرة المحرمة فلا يقعان في الظلم، يتابع الوحي ما جرى بعد ذلك في تفصيل لم يرد من قبل أيضاً. قال تبارك وتعالى: (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوتَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ{20} وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ{21} فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّمُّبِينٌ{22} قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ{23} قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُووَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ{24} قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ{25}){2}.

ثم يسترسل الوحي في تحذير بني آدم الذين جاؤوا على صورة أبيهم ورافقتهم الظروف التي رافقته من أن يفتنهم الشيطان فلا يصيبهم ما أصاب آباهم آدم عليه السلام من ظهور سوءاتهما. ويؤكد لهم أنّ الشيطان حاضر بينهم مقيم قريباً منهم يراهم ولا يرونه هو أو قبيله.

1 . الآيات 12 – 18 من سورة الأعرف
2 . الآيات 20 – 25 من سورة الأعراف

والواقع أننا لا نجد كبير جهد لاكتشاف الفارق الكبير بين المضمون في هذه القصة والمضمون في القصة الأولى نفسها. ففي قصة الأعراف إعلان عن الحقائق التالية:

1- التماثل التام في ظروف الخلق والتصوير بين آدم أبي البشر وبين الأجيال التالية كلّها.

2- فوز الأجيال كلّها بما فاز به آدم من التكريم حين أمرت الملائكة بالسجود له.

3- تعرّض الأجيال كلّها لفتنة الشيطان على مثال الفتنة التي تعرض لها آدم.

4- بسط القول في تفصيلات هذه الفتنة وتسليط الضوء عليها بطريقة لم يلجأ إليها الوحي السماوي فيما سبق من السياقات كلّها.

5- إعلان أنّ الحياة الدنيا ليست دارا محوطة بالفساد والفتنة فقط بل هي أيضاً موطن للخير والصلاح. فالتوبة فيها ممكنة بل هي مطلوبة.

والغفران الإلهي قائم والإنسان هو الذي يصنع مصيره باختيار إحدى طريقين... طريق الإيمان أو طريق الكفر والضلالة.

وفي هذا السياق أيضاً تطرح القصة في الحوار الوراد بين الله عز وجل وبين إبليس حقيقة هامة هي أنّ الكبرياء وما يترتب عليها من الغرور والعصيان هي التي جعلت من إبليس موضعاً للعنة ورمزاً للفساد والشر.

هكذا نجد أنّ السياق في قصة آدم عليه السلام الواردة في سورة الأعراف يشير إلى ملحظ هام جداً جرى تسليط الضوء عليه مع العلم أنّ الخطوط العامة للقصة هي نفسها التي ظهرت في خطوط القصة الواردة في سورة البقرة.

***

فإذا انتقلنا إلى سورة أخرى من سور الكتاب الكريم ووجدنا إعادة جديدة لقصة آدم عليه السلام تبين لنا أنّ سياقاً آخر قد رافق هذه الإعادة وبالتالي جعل من الإشارة إلى القصة ضرورة إعلامية متجدّدة. قال عز من قائل: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إبليس قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً{61} قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلاً{62} قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُوراً{63} وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً{64} إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً{65})[1].

هنا نعود كرة أخرى إلى واقعة آدم وسجود الملائكة له وإباء إبليس أن يسجد وتكراره لدعوى أنّ آدم قد خلق من طين الأرض وأنه هو قد خلق من النار. لكنّ إبليس في هذه المرة لا يقتصر على تفضيل عنصر النار على عنصر الطين بل يتجاوزه إلى القول بأنّ الذي كرمه الله عليه غرض سهل للفتنة والاستهواء وبالتالي لا يستحق هذا التكريم، ويبدو وكأنه يشترط على الله عز وجل أن يبقيه حياً إلى يوم القيامة ليثبت قدرته على التصرّف بالآدميين وإيقاعهم في حبائله باستثناء القلّة منهم. ويكون الردّ الإلهي عليه تهديداً صارخاً له ولكلّ من يتبعه من البشر وكأنّ في هذا الجواب موافقة ضمنية على ما يقوله إبليس. لكنّ الله عز وجل يتبع هذا التهديد بما معناه أنّ في وسعك أن تستفزز منهم من تستطيع استفزازه وأن تجلب عليهم بخيلك ورجلك وأن تحيط بهم من كلّ أقطارهم لكنك ستبقى أعجز من أن تمارس سلطانك على عبادي المخلصين.

***

السياق الجديد هنا هو تقرير أنّ وجود إبليس جزء من البنية الدنيوية التي يمتحن الله فيها مخلوقاته من البشر ومن الجن. والله هنا لا يتوجه مباشرة إلى بني آدم يحذرهم وينذرهم كما فعل ذلك في تفصيل واضح خلال سورة الأعراف بل يقرّر بصورة غير مباشرة ما سبق في علمه بأنّ كثيرين من الناس سيتردّون في هاوية الضلالة لكنّ العباد المخلصين وهم حقيقة هامة من حقائق الدنيا سيبقون أمنع مكانة وأقوى قوة من أن يكون للشيطان عليهم أي نوع من أنواع الهيمنة والسلطان. وهذا يعني أن قوة إبليس لا تفعل فعلها إلا بضعف أصحاب الضلالات بينما تتضاءل هذه القوة وتخنس أمام نور الايمان وصلابة اليقين. ويمضي الوحي بعد ذلك في وعظه للناس وحكاية ما يصدر عن بعضهم من إعراض عن ذكر الله ونسيان لعذاب الله لهم في الدنيا ثم يذكر الناس جميعاً بما أصابوا من تكريم الله لهم إذ يحملهم في البر والبحر ويرزقهم من الطيبات ويفضلهم على كثير من خلقه ليدعم إرادة الخير في نفوسهم ويدفعهم إلى التمسّك بحبل الله عز وجل والاعتصام به.

1 . الآيات 61 – 65 من سورة الاسراء

***

وها نحن أولاء ننتقل إلى سياق جديد حيث يعرض القرآن لواقعة سجود الملائكة لآدم وإباء إبليس الذي هو فاسق من عالم الجن ثم يتساءل منكرا على خلقه من الناس أن يتخذوا من إبليس وذريته أولياء لهم من دون الله مع العلم أنهم أعداء لهذا الخلق كلّه.

قال تبارك وتعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا)[1]

في هذه الآية الكريمة يقتصر الوحي السماوي على تذكير الناس بسجود الملائكة لآدم والموقف الرافض لإبليس. وقد وردت هذه الآية في سياق الحديث عن مشهد من مشاهد القيامة. المشهد الذي تسير فيه الجبال ويحشر فيه الناس ويعرضون خلاله على ربهم صفا وهم الذين لم يكونوا في الدنيا يصدقون بمجيء هذا اليوم الرهيب ثم يوضع أمام كلّ منهم كتابه الذي لا يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها، قد حضرت أمامهم أعمالهم فأشفقوا مما في هذا الكتاب. هنا تمس الحاجة الإعلامية إلى تذكير هؤلاء المجرمين بما أصابوه من الكرامة حين خلق أباهم آدم وحين كرمهم بأن منحهم من التكريم ما منحه إياه فكان سجود الملائكة لأبي البشر بمثابة تكريم للبشر كلّهم. ومع ذلك فقد اختاروا طاعة أعدائهم إبليس وذريته وامتنعوا عن طاعة الله عز وجل الذي أكرمهم وأنعم عليهم بما لا يحصى من النعم. فكيف أقدموا على مثل هذه الجريمة وهم الذين لم يشهدهم الباريء عز وجل خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم ليكون لاختيارهم ما يبرره.

والملاحظ هنا أنّ اللفظة السريعة التي وردت في سياق هذا المعنى من قصة آدم عليه السلام وموقف الملائكة وإبليس منه جاءت لإظهار إغراق المجرمين في الضلالة وإعلامهم بقبح ما أقدموا عليه وهم الذين فازوا بالتكريم المعروف وأصابهم من عدوهم إبليس ما أصابهم من الضرر والفكر العظيم.

***

فإذا انتقلنا إلى سورة تالية قرأنا قوله عز وجل في سورة طه: (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا(115)). في هذه الآية إعلان عن معنى جديد وتقرير لحقيقة لم ترد صراحة في النصوص السابقة لقصة آدم عليه السلام. فعصيان آدم

1 . الآية 50 من سورة الكهف

كما هو في الواقع لم يكن عن سوء نية ولا هو تحدٍّ لأوامر الله عز وجل بل هو إعلان عن الضعف في عزيمته. قال تعالى في سورة النساء: (وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا (28))

فإذا كان الله قد تاب على آدم بعد عصيانه الذي جره النسيان عليه فلأنّ ما صدر عنه شيء يتصل بطبيعة تكوينه وبما فطره الله عليه من الضعف. ولذلك فإنّ توبته أيضاً شيء يتصل بطبيعة تكوينه. هو ضعيف في فطرته وهو قادر على العودة إلى الله في فطرته أيضاً. فلا جرم أن يخطىء في بعض ما يصدر عنه وليس ما يحول دون توبته بعد أن تعود نفسه المطمئنة إليه. من أجل ذلك جاءت دعوة الله إليه والى الأجيال كلّها من بعده للعودة إلى ربهم وحرّرتهم من الاحساس باليأس حين يسرفون على أنفسهم بارتكاب الأخطاء. إذ لا ضير عليهم من ذنوبهم التي يرتكبونها إن أتبعوها بتوبة صادقة. (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)[1] فالله عز وجل هنا يستدرج عباده الذين صلح إيمانهم بالعودة إليه ويشجعهم على مقاومة الضعف الذي يعرفه فيهم وهو خالقه ويغذي فيهم روح الأمل ويقضي نهائيا على روح التشاؤم في نفوسهم. ولكي يقدّم للبشر صورة لظاهرة الضعف في وقائع مجسّمة عاشها أبو البشر نفسه وصدر عنه الخطأ في أثنائها فقد أعاد قصة التكريم والتجربة التي فتن بها آدم وزوجه وحقّت بها عليهما العقوبة دون قسوة موئسة مع توفير مصادر الطعام واللباس والريّ والسكن في الدنيا التي قضت إرادة الله أن تكون مقاماً لهما وللأجيال النازلة منهما من بعد، ومع الكشف عن السببين الرئيسين اللذين أوردا آدم وزوجه موارد الخطأ هما الرغبة في الخلود والملك الذي لا يبلى، اللذان غررهما الشيطان بهما، فكانت إعادة القصة لإبراز الضعف وتقرير أنه ظاهرة طبيعية عند الإنسان ولتشجيع هذا الإنسان على التوبة واستعداد الله الدائم لتقبلها منه برحمة منه وفضل.

في هذا المناخ النفسي ترددت قصة التكريم الذي فاز به آدم والفتنة التي تعرض لها والتوبة التي عاد بها إلى ربه، كلّ ذلك في ضوء الاعلان عن أن ما صدر عن آدم هو تعبير عن ضعفه الطبيعي وافتقاده للعزم الذي يجنبه الوقوع في المعصية. واستكمالاً للشواهد التي نستعين بها في هذا المعنى نورد ما جاء من القصة في هذه المرة بعد قوله تعالى مباشرة: " وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا".

1 . الآية 53 من سورة الزمر

(وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إبليس أَبَى{116} فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّلَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى{117} إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى{118} وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى{119} فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى{120} فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى{121} ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى{122} قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوفَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى{123} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى{124})[1].

أفلا يتبين لنا بعد تدبير السياقات التي وردت فيها قصة آدم عليه السلام في عدد من السور القرآنية بأنّ ما يظنه بعض الناس تكراراً هو في الحقيقة جزء من الإعلام التربوي الذي قصد به الله عز وجل أن ينبه في كلّ مرة إلى معنى جديد من المعاني التي تشتمل عليها القصة، تفصيلاً لما أجمل في نصها الأول الذي ورد في سورة البقرة؟

***

الواقع أنّ متابعة البحث في القصة القرآنية باعتبارها جانباً أساسياً من الجوانب الإعلامية لكتاب الله، يدفعنا إلى الإطالة بحيث لا يعود الحجم المخصص لهذا الكتاب كافياً لاستيعاب كلّ ما يمكن أن يقال في هذا الموضوع.

لذلك نؤثر الاختصار ونحن نناقش ظاهرة القصة القرآنية فنعود فيما يلي إلى تبسيط الخصائص والصفات الأساسية التي سبق ذكرها والتي تتميز بها القصة في كتاب الله عز وجل:

1 – أنّ القصة في القرآن هي تأريخ صادق لحوادث حدثت فعلاً ووقائع تعاقبت حقا في القرون الماضية. ولذلك لا نجد للأسطورة والرمز مكاناً في التأريخ القصصي القرآني.

2 – ليست القصة القرآنية لتسلية القارىء أو السامع كما أن الغرض منها ليس تزجية الوقت بل هي جزء من العملية الإعلامية التربوية الجادة التي يقصد بها التعليم والوعظ وتقويم ما أعوج من سلوك الناس وانحرف من أخلاقهم. ومن هنا انتفى أن تكون القصة القرآنية انعكاساً للأوضاع النفسية عند مؤلفها كما هو شأن القصص التي يؤلفها البشر.

1 . الآيات 116 – 124 من سورة طه

كما انتفى بالتالي أن تكون من صنع الخيال أو وسيلة للتنفيس عن صاحبها أو للتعبير عن تجربة جزئية له، خلافاً لما زعمه بعضهم من أنّ في القرآن قصصاً أسطورية أورمزية وضعت لأغراض تعليمية[1].

3 – والقصة في القرآن لا تحابي أحداً كما لا تتحيز ضدّ أحد في عرضها للوقائع التاريخية... فقد نجد فيها عتاباً موجّهاً إلى نبي من الأنبياء عليهم السلام كما هو الشأن مع داود في واقعة النعاج التسعة والتسعين فلا تشفع له نبوته... كما نجد عتاباً موجّهاً إلى النبي المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق ببعض اختياراته من مثل عفوه عن أسرى بدر أو من مثل إهماله لأحد ضعفاء المؤمنين سعياً إلى اكتساب بعض أقوياء المشركين... وفي الوقت نفسه نجد فيها حملة شديدة صريحة على أعداء الله الذين يصرحون بعداوتهم أو يكتمونها في أنفسهم. ذلك أنّ القصة في القرآن تقف إلى جانب الصدق في الخبر إذ لا تجد في نبوة النبي أورسالة الرسول غير أداة كريمة لخدمة الدعوة وحسب.

4 – امتناع القرآن عن الالتزام بالقواعد المتعارف عليها في تدوين التاريخ فهو لا يعين مكان وقوع الحوادث التي يرويها ولا الزمان الذي حدثت فيه كما لا يحدّد ترتيبها فيما يسبقها ويلحق بها من الوقائع. لأنّ المهم في حكمة الله عز وجل هو الغرض التربوي التعليمي من الإعلام القصصي وحسب.

5 – حرص القصص القرآني على إثبات أنّ السنن والقوانين التي قضت بها إرادة الله عز وجل هي التي تنتظم بها وقائع الدنيا المادية ومصائر البشر بغض النظر عن الإيمان والكفر. ويدخل في هذه السنن ضرورة الانتصار للمؤمنين الين يلتزمون بشروط الإيمان وأخلاقه.

6 – وحدة الرسالات في القصص القرآنية كلّها. ففي كلّ منها دون استثناء إعلان عن عقيدة الوحدانية وتوكيد لها في كلّ واقعة مروية.

7 – اختلاف النصوص القصصية القرآنية في اختيار مقاطع معينة من القصة التاريخية تبعاً للحاجة التي تحتمها المقاصد التربوية كما شهدنا مثالاً على ذلك في قصة آدم عليه السلام التي رويت كاملة أو اختير جانب منها في ضوء هذه المقاصد.

8 – التزام القصص القرآني بخطة التعريف الشامل بالحقائق الأساسية المطلوبة في حدود الحاجة إليها. فهي تسلّط الضوء على مصادر الكون ووقائعه الأساسية كما توجّه الأنظار إلى بعض أسرار النفس البشرية كما لا تهمل الكثير من المخلوقات

1 . انظر كتاب الدكتور محمد أحمد خلف الله (الفن القصصي في القرآن).

ذات الصلة بالكون من ناحية وبالنفس البشرية من ناحية أخرى... فهي تتحدّث عن خلق السماوات والأرض كما تحث على دراسة الإعجاز الإلهي في النفس البشرية وتكشف عن هذا الإعجاز المتثمل في النعم الكثيرة المتوفرة، نعمة ضياء الشمس ونور القمر، ونعمة الأمطار، ونعمة الإنبات في الأرض وغير ذلك.

***

والجدير بالذكر أنّ القصة في القرآن قد نوقشت ودرست دراسة تاريخية وتحليلية وتضافرت على إبراز خصائصها عقول كثيرة ولا سيما خلال القرن العشرين ومن أهمها:

1 – **القصص القرآني في منطوقه ومفهومه.** /عبد الكريم الخطيب.

2 – **المسيح في القرآن** /عبد الكريم الخطيب.

3 – **الفن القصصي في القرآن الكريم** / محمد أحمد خلف الله.

4 – **النبأ العظيم** / محمد عبد الله دراز.

5 – **لباب النقول في أسباب النزول** / جلال السيوطي.

6 – **اليهود في القرآن** / عفيف عبد الفتاح.

7 – **الإنسان في القرآن** / عباس محمود العقاد.

8 – **قصص الأنبياء** / اسماعيل ابن كثير.

9 – **القرآن والقصة الحديثة** / محمد كامل حسين المحامي.

10 – **سيكولوجية القصة في القرآن** / التهامي نقرة.

وهناك مراجع كثيرة أخرى لدراسة القصة القرآنية أو ما يتصل بها من قريب أوبعيد يمكن العثور عليها في المكتبات العربية وهي مبذولة لمن يشاء من الباحثين والقراء.

***

المهم أنّ الإعلام بالقصة في القرآن قد شغل جانباً هاماً من جوانب الإعلام القرآني ومثل ظاهرة من ظاهراته الكثيرة التي أثبتت أنه المعجزة الكبرى التي جاء بها الإسلام والتي جعل منها أداته الوحيدة للدعوة إلى الله والتي اعتبرها الوسيلة الصالحة لمرافقة المسيرة البشرية وللتعامل مع العقول والقلوب والنفوس في كلّ مكان وزمان هي المعجزة الإعلامية التي جاءت على صورة الوحي السماوي.

يبقى أن نتساءل بعد الذي علمناه من أهمية القصة القرآنية في الميدان الإعلامي، والخصائص الأخرى التي عرضنا لها في الفصول السابقة، بعد هذا كلّه نتساءل: لماذا اختارت العناية الإلهية ظاهرة الإعجاز الإعلامي كأداة مساندة لرسالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ووسيلة كاشفة للحقائق الدينية التي جاءت تعليما للناس ورحمة للعالمين؟

ويلح هذا السؤال علينا حين نتذكر أنّ الاساليب القديمة التي رافقت دعوات السماء عند الأنبياء والرسل السابقين على عصر محمد، كانت مزيجاً من الإعلام باللسان والإعلام بالمعجزات المادية الرادعة تارة والمثيرة للدهشة تارة أخرى، مع العلم أنّ الوحي السماوي القديم لم يحفظ بأمانة في صحف أو كتب مسطورة، وأنّ المعجزات الرادعة والمثيرة للإعجاب والدهشة والروع قد أصبحت ذكرى من ذكريات التاريخ، وأنّ كلتا الظاهرتين قد شابتهما شوائب كثيرة واختلطت بهما في عقول الأجيال اللاحقة أخبار مبتدعة وأساطير خيالية ضاعت بها معالم الطريق أمام البشر.

ويأتي الجواب على هذا التساؤل الملح في الحقائق التالية.

1 – أنّ الإعلام السماوي السابق على الإعلام القرآني كان مرحلياً ومحلياً... أي أنّه لم يكن موجّهاً إلى كلّ العصور وإلى كلّ الأقوام. فقد كان كلّ نبي مبعوثاً إلى قومه... وكان في الوقت نفسه مبعوثاً لفترة معينة من الزمان بدليل أنّ الأنبياء والرسل قد تعاقبوا في قرون كثيرة من التاريخ البشري.

2 – أنّ الإعلام القرآني دون ما سبقه من الإعلام السماوي قد جاء موجّهاً إلى العالمين. فمحمد عليه السلام بعث رحمة للعالمين. كما جاء موجّهاً لكلّ عصر من العصور اللاحقة لعصره فهو خاتم الأنبياء والمرسلين.

3 – أنّ الدعوة التي جاءت على لسان محمد صلى الله عليه وسلم قد حفظ الوحي الخاص بها في عصر الرسالة بتعهد من الله عز وجل. مصداق ذلك في قوله تبارك وتعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ).

4 – أنّ الدعوة السماوية التي تقتصر في توجّهها إلى البشر على الحوار المحض والمناقشات المستندة إلى ملكات العقل والقلب والنفس هي في حقيقتها إعلام يؤرّخ لبزوغ عصر جديد تبلغ فيه الثقة بالإنسان أعلى درجاتها. فالبشرية في علم الله عز وجل لم تعد في حاجة إلى الأساليب المعجزة الرادعة كما لم تعد مجموعة من مجتمعات معزولة بعضها عن بعض. لقد حقّقت في تقييم الدعوة الإسلامية لها خطوتين أساسيتين:

1 – النضج العقلي والروحي.

2 – العالمية في العمليات الاتصالية.

وهذا يعني أنّ الإعلام القرآني بالطريقة التي التزم بها والأسلوب الذي طرحه للتعامل مع البشر قد أعلن ثقته بالإنسان في عصر الرسالة المحمدية وفي العصور التالية.

ولا شك أنّ الثقة بالإنسان هي التي تفسّر استمرار الدعوة الإسلامية بإعلامها القرآني قوة فاعلة متحركة قادرة على مواجهة كلّ التحديات والاستجابة لها بغض النظر عن النتائج المرحلية التي تنتهي إليها... وبعبارة أخرى، بغض النظر عن الانتصارات التي تحققها أو الهزائم التي تنزل بها. فهي موجودة أبداً كظاهرة حضارية تمثل قطاعاً هاماً من قطاعات التاريخ البشري. ولو أننا قلبنا النظر في يومنا هذا في المصير الذي صارت إليه لوجدنا أنها رغم كلّ النكسات المادية والعسكرية والثقافية التي سجلتها في مواجهاتها الكبرى لحضارة التكنولوجيا والثقافات والنظم الوافدة من الخارج، لا تزال تملك من الوعي ومن إرادة الكفاح ما يجعلها جديرة بالسير قدماً في معركة البقاء.

إنّ الثقة بالإنسان هي وحدها التي تفسر الحقائق الإعلامية ومناهج العمل فيها. فلننظر في تفصيلات هذه الثقة ولنتبين رأي القرآن في احتمالات الصلاح عند إنسان العصر وإنسان كلّ عصر قادم، وبالتالي في صلاحية الإعلام القرآني في مواجهة التحديات المعاصرة والتحديات القادمة.

وقبل أن نتحدث عن "الإعلام القرآني والثقة بالإنسان" نلفت النظر إلى ظاهرة تاريخية هامة تساعدنا على تحقيق وعي أفضل بقدرات الإعلام القرآني. إنها ظاهرة الاستمرار في البقاء وحفاظ القرآن على سلامة نصوصه وعلى فعاليته في تحريك الإنسان المسلم حتى يومنا هذا رغم الكوارث التي نزلت بالمسلمين خلال القرون السابقة.

لقد وعد الله سبحانه وتعالى بحفظ الذكر الحكيم فلم يخلف وعده... كما وعد الله سبحانه وتعالى بالنصرة للمسلمين إذا نصروا دين الله... ولا يزال الله عند وعده لم يخلفه أبداً. ولعلّ أيام المسلمين في عصر محمد صلى الله عليه وسلم أن تكون الآية المصدقة لهذا الوعد الإلهي.

لقد نصر الله المسلمين في بدر نصراً مؤزراً... وكان معهم يوم أحد بالقدر الذي التزموا فيه بأوامر الله ورسوله... وهيأ لهم النصر بعد أن أوشكت الهزيمة أن تنزل بهم في حنين ليعلمهم ما كاد يغرب عن بالهم من النتائج الفاسدة للغرور والعجب... وأعطاهم النصر المبين يوم فتح مكة... ثم فتح لهم أبواب الدنيا حين فتحوا قلوبهم للإيمان. وأخيراً تعاقبت الانتصارات والهزائم في قرون متتالية تبعاً لما كانوا يصيبونه من الخير والهداية أو يتصفون به من الشر والضلالة.

(وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ)[1]، (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ)[2].

1 . من الآية 111 من سورة التوبة
2 . الآية 55 من سورة النور

الفصل التاسع

الإعلام القرآني والثقة بالإنسان

هناك اصطلاحات وضعها الإعلاميون المعاصرون يجدر بنا أن نتعرض لها ونتعرف إلى حدود كلّ منها لنسبتين من ثمّ جانباً آخر لطبيعة الإعلام القرآني وموقفه من الإنسان.

طبيعة العصر:

في وسعنا القول بأنّ العصر الذي نعيشه هو عصر الإعلام. فتطورت السياسة الإعلامية تطوراً متصاعداً فبدأت في نموها وانطلاقتها كما لو أنها صاروخ موجّه إلى الفضاء الخارجي تتزايد سرعته بين ثانية وثانية.

فالإعلام حتى أواخر القرن التاسع عشر لم يكن يشغل من هموم الدولة والمؤسسات شبه الرسمية غير حيز صغير نسبياً حتى إذا جاءت الحرب العالمية الأولى التي تحاجز فيها العلم المتقدّم في جبهتين عريضتين عالميتين شعر المسؤولون القياديون بأهمية الاتصال بجماهيرهم من ناحية وبجماهير الجبهة المعادية من ناحية أخرى.

لقد اكتشفوا حاجتهم الماسة إلى مساندة الرأي العام الذي يمثلونه ولا سيما حين أصبح الجهد الحربي مسؤولية قومية شاملة، وأصبحت أوضاع الجبهة الداخلية ذات تأثير مباشر في المجهود الحربي بل وفي تقرير مصير المعارك.

كما اكتشفوا حاجتهم الماسة أيضاً إلى إضعاف الروح المعنوية بين جماهير الجبهة المعادية وإلى تحقيق نوع من الانفصام بين هذه الجماهير وبين القياديين السياسيين والعسكريين في تلك الجبهة.

وبفضل هذا الاكتشاف عمد كلّ من الفريقين في الجبهتين المتعاديتين إلى تطوير وسائل الاتصال بالجماهير ودراسة الأساليب الفعالة للتأثير في النفوس وتشكيلها في ضوء الأغراض الاستراتيجية التي حددها لنفسه.

أما بالنسبة لجمهوره فقد سخر الخبراء من علماء النفس والاجتماع والنخبة من المفكرين لدراسة الأساليب الكفيلة بالهيمنة على أفراد هذا الجمهور وتعبئة طاقاته لخدمة المجهود الحربي.

وأما بالنسبة لجمهور الجبهة المعادية فقد طلب من الخبراء أنفسهم أن يتولّوا البحث عن الأساليب الفعالة لأضعاف الروح المعنوية وتفتيت الصفوف الداخلية وإشاعة الإضطراب في النفوس كوسيلة لشل المجهود الحربي وبعثرة طاقاته المجندة لمصلحة هذا المجهود.

والجدير بالذكر أنّ ما قام به الفريقان المتقاتلان ليس جهداً إعلامياً بل كان جهداً دعائياً. ذلك أنّ الإعلام كما هو متفق عليه بين رجاله هو تزويد الناس بالأخبار الصحيحة، والمعلومات السليمة، والحقائق الثابتة، التي تساعدهم على تكوين رأي صائب في واقعة من الوقائع أو مشكلة من المشكلات)[1]. أما الدعاية فهي كما عرّفها وولتر ليبمان بقوله: (إنّ الدعاية هي محاولة التأثير في نفوس الجماهير والتحكم في سلوكهم لأغراض تعتبر غير علمية أو ذات قيمة مشكوك فيها في مجتمع ما وفي زمن معين)[2].

وإذاً فالإعلام يتميّز بالصدق والالتزام بالحقيقة والموضوعية بينما الدعاية متميّزة بالتزييف حسب الحاجة والالتزام بما تمليه المصلحة الآنية والذاتية إلخ.

***

ومهما يكن الأمر فإنّ السياسة القومية وحاجات الحرب قد دفعت الفريقين المتقاتلين إلى التعمق في دراسة أسرار النفس البشرية وطرائق التأثير في النظم الاجتماعية القائمة وفي التعرّف إلى الأساليب التي تدفع الجماهير في الجبهة الوطنية الداخلية والجبهة المعادية إلى اتخاذ المواقف الملائمة لمصلحة كلّ من الفريقين.

حتى إذا ظهر العهد النازي قبيل الحرب العالمية الثانية أصبح للإعلام بمعناه الدعائي دور أخطر كثيراً من ذي قبل وبلغ من اهتمام الحكومة الهتلرية بالسياسة الإعلامية أنها استحدثت وزارة للإعلام أشرف عليها السيد غوبلز وكشف عن قدرات ومهارات كثيرة في تسيير مقدرات هذه الوزارة.

فإذا جاءت الحرب العالمية الثانية أصبح الإهتمام بالإعلام الرسمي عند الفريقين المتقاتلين ضرورة أساسية في تسيير مقدرات الحرب. فسجلت الجهود المبذولة في هذا الميدان منذ ذلك الوقت ولا تزال، أنشطة غير عادية فأصبح الإعلام قطاعاً علمياً واسعاً جداً وموطناً لكفاءات فنية وخبرات هامة في الجامعات والمعاهد العليا إلى جانب الوزارة المختصة.

1 . انظر ص 11 من كتاب (الإعلام والاتصال بالجماهير) للدكتور إبراهيم إمام.
2 . منقول من ص 5 المرجع السابق.

***

ولم تقف أهمية الإعلام عند الدول المتقدمة وحسب بل جاوزت حدود هذه الدول لتصبح شيئاً في صميم الاهتمامات الرئيسية لدول العالم الثالث وفرعاً مهماً من فروع الدراسات الجامعية والمعاهد التخصّصية العليا.

وقد زاد من أهمية العمل الإعلامي تطوّر الصحافة اليومية والدورية وانتشار القراءة والكتابة في طبقات متزايدة من أبناء الشعوب المختلفة كما زاد من أهمية تطور الإذاعة المسموعة والمرئية.

على أنّ مهمتنا هنا ليست في إبراز الجوانب التفصيلية لعمليات الاتصال بالجماهير وأساليب التعامل معها والتقنيات الخاصة بهذه وتلك فإنّ لهذا الغرض غير هذا الكتاب... إنّ مهمتنا هي تقديم صورة مختصرة لأنواع الأنشطة التي تستوعب العملية الإعلامية في واقع الأمر. والغرض من ذلك هو التعرف إلى طبيعة الإعلام القرآني ومقارنته بطبائع الإعلام المعاصر.

الأنشطة الإعلامية المعاصرة:

إنّ وصفنا للأنشطة التي سنوردها بعد قليل بصفة (الإعلامية) هو نوع من التجاوز للجانب النظري المبدئي للإعلام وحكاية للإعلام الواقعي. ولذلك فإنا نقرّر ما اتفق عليه العلماء[1] المحدثون من أن الجوانب غير المنطقية للنشاط الإنساني هي التي تؤثر التأثير الأكبر في تاريخ البشرية. ولذلك فإنّ السيل الجارف من الكتب والمجلات الدورية والصحف اليومية والنشرات المختلفة والإذاعات المسموعة والمرئية والخطب والكثير من المحاضرات التي تتخذ شكل العرض الموضوعي قد انطلقت تحت تأثير المصالح الآنية من هذا المنطلق، أي من وعيها بطبيعة الإنسان غير المنطقية، وضعف النشاط الفكري الجاد والمنظم في تحريك الجماهير. فظهرت التهاويل والمبالغات والأخبار المصنوعة والإحصاءات المزيفة والصور العارية والتعليقات المغرضة تحت ستار النشاط الإعلامي. ولذلك عمد الباحثون الجادون إلى تصنيف هذه الأنشطة فميزوا بين الإعلام الموضوعي الذي يعتمد الصدق في الخبر والموضوعية في البحث وقول الحق في الحوار وبين الدعاية والإعلان والتعليم والعلاقات العامة.

الدعاية:

وخلاصة القول أنّ الدعاية كما ذكرنا قبل قليل تتصف بالتوجيه المغرض والتحكم في سلوك الناس والآراء الذاتية. يدخل في ذلك الحرب النفسية التي تشنّها جبهة معادية.

1 . انظر كارل مانينجر وجانيتا لايل مانينجر في كتابهما (الحب ضد الكراهية) وكذلك وولتر ليبمان في كتابه (الرأي العام).

والواقع أنّ الدعاية تستخدم كلّ الأدوات المتوفرة لها والأساليب التي تحسن الحصول عليها بغض النظر عن نظافة هذه الأساليب وشرعية تلك الأدوات. وذلك فإنها لا تلبث حتى تتضح حقيقتها فيهبط تأثيرها حين يكتشف الجمهور ما فيها من زيف أو مبالغة أو أغراض تهديمية.

التعليم:

أما التعليم فقد يكون إعلاماً بالمعنى السليم للكلمة وقد يكون مدخولاً، أي يهدف إلى تحقيق أهداف معيّنة بإغفال بعض جوانب المعرفة وتجاهل بعض الآراء وإسدال ستار كثيف على حقائق تاريخية هامة. وقد شهدنا في تاريخ التعليم عند الغربيين محاولات نشيطة لإغفال الدور الذي قامت به الحضارة العربية الإسلامية وتشويه القيم أو تجاهل الحقائق التي جاء بها الإسلام لأغراض تبشيرية أو إستعمارية. كما شهدنا نشاطا تعليمياً محموماً ضد اللغة العربية بدعوى أنّ هذه اللغة لا تصلح لمواكبة الحضارة العلمية المعاصرة. وبلغ من انتشار هذا التعليم وسلطانه أنّ المشرفين على الدراسات الجامعية والمعاهد العليا في العالم العربي والإسلامي قد جنّبوا عن القيام بمهمة التعريب الشامل للثقافات العلمية الحديثة. كما أنّ بعضهم قد تجاهل العربية لفترة طويلة حتى العلوم الإنسانية. ولنا في الدعوات المستشرية إلى استخدام العاميات الإقليمية في العالم العربي وإحلالها محلّ اللغة العربية الفصحى آية أخرى على دور هذا النوع من التعليم.

الإعلان:

ويأتي الإعلان كظاهرة إعلامية مزعومة ليستخدم عمليات الاتصال بالجماهير والدراسات التي أجريت على النفسيات البشرية في سبيل أغراض تجارية محضة، أي لتسويق السلع والمنتجات واستدرار جيوب المستثمرين بكلّ وسيلة ممكنة بغض النظر عن الصدق فيما يتمّ الإعلان عنه. ومن الطبيعي أن يتوجّه الإعلان إلى الغرائز والملكات الانفعالية عند المشترين فيستند إلى عناصر الإثارة والتخويف والإغراء والشهوات الجنسية والرغبة الطاغية في إطالة العمر والمتع السهلة الرخيصة إلخ.

العلاقات العامة:

أما العلاقات العامة فهي أداة الاتصال بين المؤسسات الرسمية أو المؤسسات التجارية أو التنظيمات الاجتماعية وبين الجماهير التي تضمّها مجتمعات هذه التنظيمات وتلك المؤسسات.

والمعروف أنّ مهمّة العلاقات العامة تتمّ بأساليب متعدّدة منها:

1- النشر والإعلام لإعطاء صورة عن حقيقة الوضع في التنظيم أو المؤسسة.

2- دراسة الرأي العام والتعرّف إلى موقفه واتجاهاته بإجراء الاستفتاء والإحصاء واستخدام المقاييس العلمية.

ويقرّر الدكتور إبراهيم إمام صاحب كتاب (الإعلام والاتصال بالجماهير) أنّ التعريف الموضوع للعلاقات العامة يلفت النظر إلى (ما كان يفعله بعض الأدعياء من الأمريكين الذين انتحلوا لأنفسهم صفة خبراء العلاقات العامة من أمثال جون جولنكد وغيره ممن اتخذوا لأنفسهم شعاراً خبيثاً يقول: أنك لا تستطيع أن تستغفل جميع الناس كلّ الوقت، ولكنك تستطيع أن تستغفل 98% منهم لفترة طولها 98% من الوقت).

وهذا يعني أنّ العلاقات العامة في الواقع العملي هي نشاط مغرض لا يهدف إلى تقرير الحقائق الواقعة بل إلى تحقيق الغرض الذي يتفق مع مصلحة التنظيم أو المؤسسة التي يعمل لها بغض النظر عما إذا كانت هذه المصلحة شرعية أو غير شرعية.

عودة إلى الإعلام القرآني:

وهنا نتساءل أين مكان الإعلام القرآني من هذه الأنشطة التي تدخل ضمن مفهومات الإعلام العام؟

هل هو إعلام دعائي؟ أم إعلام تعليمي مغرض لتحقيق مصلحة سياسية معينة؟ أم هو إعلام إعلاني خدمة لمؤسسة تجارية أو غير تجارية؟ أم هو أخيراً مجرّد نشاط على صورة النشاط الذي تقوم به العلاقات العامة لخدمة فئة معينة بغض النظر عن نظافة الأسلوب المتبع؟

الجواب عن هذه التساؤلات واضح صريح...

إنّ الإعلام القرآني إعلام نابع من عقيدة الوحدانية التي تقرر ربوبية الخالق المطلقة وتساوي البشر في عبوديتهم للخالق جل وعلا. وهذا يعني أنّ الإعلام القرآني لا يهدف إلى تحقيق: (مصلحة آنية) لفئة من الناس على حساب فئات أخرى لأنّ المقياس الوحيد الذي يعمل به الإعلام القرآني هو إنسانية الإنسان المتمثلة في عبوديتها المطلقة للخالق عز وجل.

ولما كان الله هو المثل الاعلى الذي تتوجّه نحوه كلّ العقول والقلوب ويتساوى الجميع أمامه فيما يستحقونه من المثوبة ويستحقونه من العقوبة.

ولم يكن لأي إنسان حق الشفاعة والتمييز بين الناس إلا بإذن الله الذي يتصف بالعدل والرحمة.

ولما كان التكريم نعمة ممنوحة لكلّ الناس دون استناء فلا يتمايز الناس معها بأنسابهم وأحسابهم وألوان جلودهم وأشكال أجسامهم.

ولما كانت الرحمة الإلهية المتمثلة في الدعوة إلى عبادته مهداة إلى البشر جميعاً دون استثناء.

ولما كانت العلاقة المقرّرة بين القبائل والشعوب هي علاقة تعارف لا تنابذ ومعاداة.

ولما كانت الحرية في الإختيار حقا لكلّ الناس بحيث لا يتمايزون في العثور على فرص العمل وبذل الجهود المشروعة[1]..

لهذا كلّه ولغيره من المعاني التي نقع عليها مثبتة في كتاب الله فإنّ من الطبيعي أن يكون الإعلام القرآني إعلاماً موضوعياً يتّصف بالصدق ويصدر عن الحق ولا يقول غير الحق فلا يهتم بالدعاية ولا يستعين بالإعلان ولا يستخدم التعليم لغرض أناني أو لمصلحة طبقة حاكمة أو قومية معينة ولا يجعل من العلاقات العامة وسيلة لتزييف الوقائع، بل يتعامل مع الجميع على خطة سواء بينهم نابعة من الحقيقة الأساسية التي تقرّر وحدانية الألوهية وعبودية العباد وتساوي بين الجميع فيما يستحقونه من المثوبة والعقوبة وتحرّرهم من الآلهة المزيفة والادّعاءات الباطلة وتخضعهم جميعاً لمقياس إلهي واحد. وإذا كان هناك اصطفاء لبعض الناس فهو اصطفاء يفرضه المقياس الإلهي الواحد، مقياس العمل الصالح والاخلاص في النية.

الثقة بالإنسان:

وقد يتساءل بعضنا: لماذا هذا الأسلوب الخاص الذي تميز به القرآن الكريم في إعلامه؟ وبعبارة أخرى: لماذا يتصف الإعلام القرآني بالموضوعية والصفات التي ذكرناها قبل قليل؟

الجواب الوحيد عن هذا التساؤل هو أنّ الله عز وجل يخاطب الإنسان على أساس أنه موضع الثقة وأنه جدير بها وأنّ من حقه أن يصنع مصيره بنفسه متحرّراً من كلّ شيء باستثناء إرادته الحرة.

والثقة بالإنسان تتأكّد فيما قرّرته الآيات التي نشرت في هامش هذه الصفحات: التكريم، الحرية في الاختيار، حمل مسؤولية العقيدة أو الأمانة، المساواة في استحقاق المثوبة والعقاب، انتفاء الشفاعة لمن لا يستحقها، ومقياس العمل الصالح والنية الخالصة، إلخ.

---

[1] . انظر الآيات القرآنية التالية:
أ- (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) الآية 56 من سورة الذاريات.
ب – (وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) الآية 60 من سورة النحل.
ج – (لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا) الآية 87 من سورة مريم.
د – (وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۖ) الآية 23 من سورة سبأ.
هـ- (قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) الآية 44 من سورة الزمر.
و– (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) الآية 70 من سورة الاسراء .
ز – (فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ) الآية 156 من سورة الأنعام .
ح –(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) الآية 13 من سورة الحجرات
ط – (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ). الآية 256 من سورة البقرة..
ى – (فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ) الآية 20 من سورة آل عمران .
ك – (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ) الآية 48 من سورة الشورى .

ومن مظاهر الثقة بالإنسان احترام الإعلام القرآني للعقل الإنساني. وبالتالي لتلك اللطيفة النورانية التي تتيح له القدرة على التمييز بين الحق والباطل والخير والشر. والثقة بالإنسان أبرز ما تكون في تلك المصارحة التي يتصف بها الوحي السماوي حين يتوجه إلى الجميع ابتداء من النبي محمد صلى الله عليه وسلم حتى آخر مسلم بل وحتى آخر إنسان في العالمين.

المصارحة مع النبي صلى الله عليه وسلم:

هذه المصارحة تبدو في جانبها الإيجابي فيما يأتي من الآيات البينات وهي بعض ما ورد في هذا المعنى في القرآن الكريم:

1 – قوله عز وجل: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)[1].

2 – قوله عز وجل: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ)[2].

3 – قوله عز وجل: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا)[3].

أما الجانب السلبي الذي ظهرت به المصارحة السماوية للرسول صلى الله عليه وسلم فقد ورد على صورة العتاب أوالتصحيح دون أن ينقص ذلك من قدر النبي ودوره الرسولي. وفيما يلي بعض الآيات الواردة في هذا المعنى:

1 – (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[4]

2 – (عَبَسَ وَتَوَلَّى (1) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (2) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى (3) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى (4) أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7))[5].

المصارحة مع المؤمنين:

وقد وردت هذه المصارحة أيضاً في جانبيها الإيجابي والسلبي بالنسبة لجمهور المؤمنين. أما الجانب الإيجابي منهما فنجده في قوله عز وجل:

1 – (وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (64) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (65))[6]

1 . الآية 4 من سورة القلم
2 . الآية 128 من سورة التوبة
3 . الآية 56 من سورة الأحزاب
4 . الآية 67 من سورة الأنفال
5 . الآيات الأولى من سورة عبس
6 . سورة الفرقان

ولوشئنا إحصاء الآيات القرآنية التي تكشف عن الجوانب الإيجابية عند جمهور المؤمنين لاحتجنا إلى صفحات كتاب كبير... لكنّنا نقتصر على الآية التي أوردناها ونحيل القارىء إلى كتاب الله الذي تكاد كلّ سورة من سوره تستوعب الجوانب المشرقة عند جمهور المؤمنين.

لكنّ الوحي السماوي لا يتردد في تصحيح بعض المبادرات وتسليط الضوء على بعض الأخطاء، أو لنقل الخطيئات في تصرف المسلمين حين يواجهون مواقف جديدة لا عهد لهم بها من قبل فتغمّ عليهم معها الطريق فيختارون الاتجاه الذي لا يتفق مع نقاوة المناخ الروحي والخلقي في الإسلام.

وها نحن أولاء نورد بعضاً من النقود الشديدة التي وجّهت إلى جمهور من المسلمين في بعض المواقف فكانت بمثابة الصدمات النفسية التي نجحت في تصحيح المسيرة وفي رأب الصدع وفي توثيق الرابطة بين العقيدة والسلوك.

لنتل فيما يلي الآيات القرآنية التالية ولنشر باختصار إلى المناسبات التي وردت فيها.

1 – قال عزّ وجل تعقيباً على ما حدث قبيل معركة بدر الكبرى حين شعر المسلمون الذين خرجوا مع النبي صلى الله عليه وسلم للحاق بقافلة أبي سفيان بنوع من الخيبة حين فاتتهم تلك القافلة وحين تردّد بعضهم في خوض المعركة ضد مشركي قريش الذين خرجوا لردّ الخطر الذي كان يهدّد القافلة المذكورة. نعم لقد قال الله تبارك وتعالى في هذا المعنى: (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (7) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (8))[1].

هكذا يعاتب الله عز وجل جماعة المسلمين الذين تردّدوا قبيل يوم بدر في مواجهة التجمع القرشي الذي رفض العودة إلى مكة رغم نجاة القافلة وأصرّ على مواجهة المسلمين للحفاظ على هيبة قريش بين القبائل العربية وعلى الامتيازات والمصالح المادية لأهل البلد الحرام الذي يمثلونه في ذلك الوقت.

كان الله سبحانه وتعالى قد وعد المسلمين أن تكون لهم إحدى الطائفتين... فاختار جمهورهم طائفة التجارة وهي أقلّهما كلفة بينما أراد الله أن تكون لهم طائفة المقاتلين مع العلم أنّ في لقاء هذه الطائفة خطر الموت لبعضهم.

المسلمون اختاروا الاتجاه السهل اليسير وآثروا العافية في الوقت الذي اختارت لهم فيه العناية الإلهية الاتجاه الصعب العسير تدريبا لهم على مواجهة المتاعب والأزمات التي تواجه كلّ فئة تطمح إلى تغيير العالم وتنادي بعقيدة جديدة. وكان ما أراد الله لهم فلم يتردّدوا في الاستجابة لأمر الله.

1 . الآيتان 7 – 8 من سورة ا لأنفال

ويتابع الوحي السماوي حكاية ما جرى بعد ذلك حين عزم المسلمون، المهاجرون منهم والأنصار، على مساندة النبي صلى الله عليه وسلم في مواجهة المسلحين من قريش فيقول عز وجل في خطابه لهم في سورة الانفال: (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (9) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (10)).

هكذا يربط الله على قلوب المؤمنين فيتم النصر لهم رغم التفاوت الكبير بين عددهم وعدتهم وبين عدد المشركين من قريش وعدتهم. فكان ما حدث يومذاك درساً للمؤمنين أحدث أعظم التحولات في نفوسهم.

2 – وفي يوم حنين وقعت تجربة أخرى ونزل بسببها عتاب شديد لجمهور المسلمين فبينما كانت الرغبة في الاختيار السهل اليسير وفي الحصول على الغنائم هي التي دفعت جمهور المسلمين إلى التصرّف قبيل معركة بدر الكبرى، إذا بيوم حنين يكشف عن ظاهرة أخرى لا تقل خطراً في أخلاق الشعوب عن ظاهرة يوم بدر. لقد جاءت هذه المعركة بعد النصر الذي حقّقه المسلمون بفتح مكة فركبهم الغرور وأعجبتهم أنفسهم وظنوا أنّ النصر معقودة ألويته لعددهم الكبير وحسب. فأصابهم من جراء ذلك ما ذكرهم بالذي نسوه أو كادوا ينسونه من أن النصر بيد الله وباستمرار الولاء المطلق للذات الإلهية لا بيد الكثرة أو القلّة.

قال عز وجل في محكم تنزيله: " لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ{25} ثُمَّ أَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ{26} [1]

ويعود إلى المسلمين يومذاك ما غرب عنهم من الحقائق ويكتشفون مرة أخرى خطر الغرور الذي ركبهم واستولى على نفوسهم فكادوا ينسون قاعدة رئيسية من قواعد التربية الإسلامية.

3 – لكنّ توجّه السماء إلى الناس بالتصويب والتصحيح والعتاب الخفيف أو النقد الشديد لم يقف عند شخص النبي صلى الله عليه وسلم وجمهور المسلمين بل تناول أيضاً وقائع فردية معينة من مثل واقعة يوم الإفك التي وجّهت فيها تهمة كاذبة إلى السيدة عائشة رضي الله عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم فكادت تحدث أزمة نفسية خطيرة وهزّة اجتماعية كبيرة في صفوف المسلمين. فنزل في هذا الأمر وحي من السماء يتلوه المسلمون في صلواتهم وخلواتهم إلى الله فيتعلّمون منه كيف يدرأون عن أنفسهم قالة السوء وكيف يحذرون خطر الاتهامات الكاذبة. لقد كان يوم الإفك امتحاناً عسيراً لكلّ الفرقاء لا سيما وأن

1 . الآيتان 25 – 26 من سورة التوبة

المسافة التي امتدت بين انتشار حديث الإفك وبين نزول الوحي الذي برّأ السيدة عائشة رضى الله عنها من فوق السموات السبع كانت مسافة زمنية طويلة نسبياً. لقد امتحنت فيها نفوس الكثيرين فانكشفت عمّا كانت تضمّه من الخفايا والنوايا كما انكشفت عن قلق الأبوين وصبر الزوج المطمئن والصمت المترقب لظهور الحقيقة التي أحاطت بها الشائعات. فجاء حكم الله انتصاراً للزوجة البريئة وطمأنة للزوج البريء وتهدئة للهفة الأبوين ورأباً للصدع الخفي الذي كاد يستشري عند العامة. قال تبارك وتعالى في محكم تنزيله: (إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَّكُم بَلْ هُو خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ{11} لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ{12} [1]

ومن الممكن أن نضيف إلى واقعة السيدة عائشة التي انتهت بتأديب فئة من المسلمين وبصدور تشريع خاص يتصل بهذا النوع من الإتهامات الخطيرة، من الممكن أن نضيف إلى هذه الواقعة واقعة الثلاثة الذين خلفوا والتي جاء فيها قول الله عز وجل في محكم تنزيله: " لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ{117} وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ اللهَ هُو التَّوَّابُ الرَّحِيمُ{118} [2]

والجدير بالذكر أنّ قصة الثلاثة الذين تخلّفوا يوم غزوة العسرة عن جيش المسلمين وآثروا الدعة والعافية ثم شعروا بخطورة الذنب الذي ارتكبوه، هي من أكثر القصص تعبيراً عن نمو الضمير الديني العام وعن الأهمية التي أثبتها وحي السماء لظاهرة التضامن المجتمعي... فكانت مرحلة الاستتابة طويلة مضنية امتحنت بها نفوس المسلمين وانكشفت فيها حقيقة ولائهم وتبيّن عمق الإحساس الديني عند الثلاثة المتخلّفين عن اللحاق بالجيش وكيف أنهم أظهروا طاعة لا حدود لها والتزاماً بالعقوبات المعنوية التي أنزلت بهم دون تأفّف أو تردّد فكسب المسلمون أولاً، والثلاثة من الصحابة ثانياً، لحمة شديدة في بنيتهم المجتمعية وقوة في جبهتم الدينية العريضة[3].

***

1 . الآيتان 11 – 12 من سورة النور . وانظر في سيرة ابن هشام ما ورد بالتفصيل حوال واقعة يوم الأفك.
2 . الآيتان 117 – 118 من سورة التوبة
3 . راجع ما ورد في كتاب سيرة ابن هشام.

وخلاصة القول أنّ هذه المصارحات التي بسطت فيها الجوانب الإيجابية والسلبية في سلوك المسلمين جميعاً إن دلّت على شيء فهي دلالة صارخة على الثقة المطلقة التي يوليها الوحي السماوي للإنسان وتوكيده لفعالية الحوار الصريح الذي لا يتردّد في قول الحقيقة دون مبالاة بأي عصبية محتملة تظهر عند الفرد نحو نفسه أو نحو عشيرته أونحو أخ له أوحتى نحو الزوج والزوجة والولد.

كما أنّ هذه المصارحات التي قصد بها التصحيح والتصويب وتحميل المخطىء مسؤولية خطئه وإخضاعه للامتحان العسير دون خوف من أن تؤثر هذه المصارحات في صلابة الصف الإسلامي، هي البرهان الدامغ على نظافة الدعوة وصدق الولاء للعقيدة...

أما النبي المصطفى عليه السلام فلم تعجبه نفسه وهو الذي أحلّه الله مكاناً علياً حين امتدحه وحي السماء، ثم لم يجد أي غضاضة في تقبّل العتاب الرباني حين نبهه إلى بعض ما كان يجب أن يفعله.

وأما المسلمون فقد تعلّموا بهذا النوع من الإعلام الصريح الذي يحاسب بصوت مرتفع ويلوم على رؤوس الأشهاد ويمتدح في وضوح بالغ، لقد تعلّموا كيف يتواضعون في جنب الله ويندمون على خطأ يصدر عنهم فيتوبون إلى الله توبة نصوحاً دون أن تهتز له أعصاب كبرياء أو تتشنج في نفوسهم همسات أنانية.

وأما السيدة عائشة فقد منحت واقعتها كلّ امرأة فاضلة تقية من مثلها كامل الثقة بربها وبنظام المجتمع الإسلامي الذي يحميها من قالة السوء والاتهامات الكاذبة.

وأما الثلاثة الذين تخلّفوا عن جيش المسلمين في يوم العسرة فقد كشفت الوقائع التي رافقت ما صدر عنهم عن أهمية المكاشفة الصريحة، وتأثيرها في توكيد نظافة المجتمع الإسلامي ونمو الوعي الديني وعمق الولاء عند المسلمين وترفّعهم عن كلّ أنواع العصبيات التي حرّرهم منها الدين الجديد.

في ضوء هذا النوع من الحوار الإعلامي نستطيع أن نتبيّن العلاقة الوثيقة بين نوع العملية الإعلامية وبين الخلفية الثقافية العامة التي جاءت بها دعوة السماء وحقّقتها عقيدة الوحدانية.

والواقع أنّ هذا النوع من الإعلام المتميز بالمصارحة والذي يقول الحق وهو يهدي السبيل، إنّ هذا الإعلام لا يمكن أن ينتشر وأن يكون مصدره قوة وتنقية للمجتمع ما لم يكن مرتكزاً إلى دعوة الحق التي تهيمن على الجميع وتدمج المجتمع كلّه في صف واحد متراصٍّ لا شرخ فيه ولا فطور. فلا عجب من بعد أن يقول محمد صلى الله عليه وسلم حين جاءه من يشفع في امرأة شريفة سرقت: "إنما أهلك من كان قبلكم أنّه إذا سرق الشريف منهم تركوه وإذا سرق الضعيف منهم قطعوا يده". وأن يقول في

مناسبة أخرى "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق". ثقة منه بأنّ ردّ الحاكم عن غيّه ورفض الطاعة له حين ينحرف لا يؤثران أبداً في وحدة الصف الإسلامي ولا يوهنان من قوته لأنّ الولاء للعقيدة في هذا المجتمع هو فوق كلّ ولاء ولأنّ العصبية الكريمة لله عز وجل هي أعلى وأرفع شأناً من كلّ عصبية لغيره بل ليست هناك في مثل هذا المجتمع غير العصبية الواحدة للخالق عز وجل.

***

من أجل ذلك كلّه تميّز الإعلام القرآني بالوضوح والصراحة والواقعية دون أي مراعاة لمصلحة فرد أو فئة من الناس لأنّ مصير المجتمع الذي يبنيه الإسلام لا تقرّره حماية فرد مهما علا مقامه أو الحفاظ على فئة مهما عظم شأنها. كلّ ذلك بفضل القاعدة الأساسية التي وضعها الإسلام حين أعلن الربوبية المطلقة لله عز وجل والعبودية المطلقة لهذه الربوبية عند كلّ المخلوقات على سواء ودون استثناء.

الفصل العاشر

الإعلام القرآني والأخلاق

من واجبنا ونحن نتتبع العلاقة القائمة بين الإعلام القرآني وظاهرة الثقة بالإنسان ولا سيما الإنسان المسلم أن نسلّط الضوء على العلاقة القائمة بين هذا الإعلام نفسه وبين الأخلاق العامة التي تتعين بها أصالة المجتمع المسلم وتتحدّد بها أبعاده.

ذلك أنّ الإعلام الذي يقوم على المصارحة فلا يتردّد في توجيه النقد وتصحيح المواقف دون أن ينال من كرامة الذين يتوجّه إليهم بالقول ودون أن يغمز من قناتهم ويشكك في سلامة عقيدتهم، هو في الوقت نفسه أداة تكشف عن طبيعة الأخلاق العامة عند أفراد هذا المجتمع وأنواع الحوار الذي يجري بينهم على اختلاف مواضعهم من المجتمع نفسه.

ولعلّ أبرز ما يكشف هذا الإعلام عنه هو انتفاء الخوف والقلق من أن ينال السوء أي فرد من الأفراد بسبب رأي يصدر عن هذا الفرد أو موقف يتخذه ما دام أنه يقول ويفعل ما يفعله بنية خالصة لوجه الله.

وقبل أن نقدّم بعض الوقائع المروية حول الأخلاق عامة التي تربت على الإعلام القرآني نواجه سؤالاً قد يتردّد في أذهان الكثيرين حول المقياس المادي اوالعملي الذي يمكن أن يقاس به الإخلاص لله في النية والذي يمنح صاحبة حرية في القول والعمل وحقاً في النقد لا يجرؤ أيّ من الناس مهما علا قدره على رفضه وإنكاره على صاحبه أو إنزال العقوبة به.

هذا السؤال من حقّ كلّ باحث عن المعرفة أن يسأله ومن الطبيعي أن يتردّد في عقول الجميع.

وفي رأينا أنّ المقياس المادي أو العملي الذي يطالب به السائل لاكتشاف الصدق عند الناقد والإخلاص في نيته لا يتعيّن بطرائق مادية ولا يساعد عليه جهاز كشف الكذب الذي ابتدع في العصر الحديث بل يتعيّن بالروح العامة للأمة وبالقاسم المعنوي المشترك الذي يضمّ الناس بعضهم إلى بعض.

إنّ الثقة المتبادلة بين أبناء المجتمع الواحد هي حصيلة ثقافة مشتركة نابعة من مبدأ تشريعي إسلامي خطير يقرّر (أنّ كلّ متهم بريء حتى تثبت إدانته). فما دام هذا المبدأ هو القاعدة الخلقية التي يتعامل بها الناس فالناس في حرز حريز من تشتّت العقول والقلوب وانتشار الشكوك والريب.

هذا النوع من الوعي الخلقي لا يحقّقه الوعظ والإرشاد في مجتمع فقد الناس فيه الثقة التي يأمن معها بعضهم بعضاً. إنّه أعقد كثيراً من أن تبسطه طريقة من الطرق المتبعة في التحقيق... ومع ذلك فهو واضح جداً قوي التأثير جداً في مجتمع يتمتّع بالصحة النفسية. ونحن لا نشك بأنّ كلّ حوار إعلامي نابع من عقيدة الوحدانية الصافية والإحساس العميق بتساوي العبوديات أمام الربوبية الواحدة المطلقة هو الينبوع الذي تصدر عنه الثقافة الصحية المطلوبة.

إنّ الثقافة النابعة من عقيدة الصراع بين المخلوق والآلهة أو بين الإنسان ونفسه أو بين الآلهة بعضها مع بعض أو من صراع بين المصالح الفردية والقومية بعيداً عن القيم التي تبثها عقيدة الوحدانية كما جاء بها كتاب الله، هذه الثقافة تتعارض تعارضاً تاماً مع الثقة المبدئية بالإنسان.

من أجل ذلك يجب أن نقرربأنّ الأخلاق العامة التي يتمّ التعامل في ضوئها بين الناس على اختلاف مواضعهم في المجتمع الواحد هي حصيلة المناخ العام الذي تكونه خلفية ثقافية تجعل من الحوار المفتوح بين كلّ الفرقاء وسيلة متميّزة لبناء المجتمع.

ولما كان المناخ العام للخلفية الثقافية الإسلامية ظاهرة أصلية يتمتع بها الدين الذي جاء رحمة للعالمين فإنّ من الطبيعي أن نكتشف في طبيعة الأخلاق العامة عند المسلمين الملتزمين حقاً بالروح الإسلامي وبالتالي بمفهوم عقيدة الوحدانية كما شرحت في هذا الكتاب، من الطبيعي أن نكتشف العلاقة الوثيقة بين هذه الأخلاق العامة وبين المناخ العام النابع من الخلفية الثقافية الإسلامية.

وقد كان في وسعنا أن نبحث عن الشواهد التي تؤكد هذه العلاقة وتحقّقها في الوقائع المروية عن عصر النبي صلى الله عليه وسلم نفسه. لكنّ بعض المشككين قد يحتج رداً علينا بأنّ لشخصية الرسول صلى الله عليه وسلم مناعة وامتيازاً وقوة مستمدّة من طبيعة الدور الذي كان يقوم به. ولذلك آثرنا أن نختار هذه الوقائع مروية عن عصر آخر هو عصر الفاروق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

عمر وضمير الأمة:

وقبل أن نورد بعض الوقائع يجب أن نقرر حقيقة أساسية هامة هي أنّ من في القمة يعكس في تصرفاته واقع من في القاعدة. وبتعبير آخر أنّ تصرفات رجل القمة تعكس روح الأمة ومدى وعيها بالقيم الخلقية وحرصها على ربط هذه القيم بالإسلوب اليومي.

والجدير بالذكر أنّ العلاقة بين تصرفات رجل القمة وواقع رجال القاعدة ليست علاقة سكونية ثابتة بل هي علاقة جدلية متحركة. أي أنّ ما يجري بين الطرفين هو توكيد للقيم المترجمة إلى سلوك أو تصحيح للسلوك عند بعض من ضعف الوعي بالقيم العامة عندهم. وبالقدر الذي يتمّ به هذا التوكيد أو يتمّ به تصحيح السلوك يتعيّن مستوى الوعي عند الأمة.

إنّ عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذ يقرّر معاقبة جبلة بن الأيهم بسبب صفعه للأعرابي حين داس هذا الأخير طرف ثوبه، إنما يقوم بعملية تصحيح لسلوك فردي من أجل الحفاظ على فعالية القيم الثقافية في عصره. كما أنّ إقدام أحد الأقباط على إيصال شكواه إلى أمير المؤمنين من عدوان محمد بن عمروبن العاص عليه هو حصيلة إحساسه العميق بهيمنة قيم كريمة معينة على سلوك الخليفة من ناحية واستعداد الرأي العام لإنصافه ممن اعتدى عليه من ناحية أخرى.

كلّ ذلك ينبع من الإعلام القرآني الذي يصدر عن هيمنة الربوبية المطلقة لله عز وجل وبالتالي هيمنة العبودية الشاملة أمام هذه الربوبية. فليس فيه أرباب من دون الله أو شبه أرباب...وليس فيه امتياز لأي عبد على غيره من عباد الله.

الوضوح في الأخلاق العامة:

لم يكن أحد من المسلمين أيام عمر رضي الله عنه في حاجة إلى إخفاء رأيه لأنه لم يكن يخاف ما يترتّب على مصارحة الآخرين بهذا الرأي. لقد كان يجد في الروح العامة للأمة ما يحميه من الابتزاز والتشكيك المغرض وسلطان الأغنياء وعدوان أصحاب النفوذ حتى أعلاهم مقاماً وهو الخليفة نفسه.

والشاهد على هذا الظاهرة قصص كثيرة مروية منها ما روى من أنّه (جاءت عمر بن الخطاب برود من اليمن ففرّقها بين المسلمين فخرج في نصيب كلّ رجل برد واحد ونصيب عمر كنصيب واحد منهم. قيل: (واعتلى عمر المنبر وعليه البرد وقد فصّله قميصاً، فندب الناس للجهاد، فقال له رجل: لا سمعاً ولا طاعة. فقال عمر: ولِمَ ذلك؟ قال الرجل: لأنّك استأثرت

علينا، لقد خرج في نصيبك من الإبراد بُرد واحد، وهو لا يكفيكَ ثوباً، فكيف فصلته ثوباً وأنتَ رجل طويل؟ فالتفتَ عمر إلى ابنه قائلاً: أجِبه يا عبد الله. فقال عبد الله: أعطيته من بردي فأتم قميصه منه. قال الرجل: أما الآن فالسمع والطاعة)[1].

هذه القصة القصيرة تسلّط الضوء على ظاهرة الوضوح في التعامل. والوضوح كما نعلم هو وحده الذي يحقّق التوازن النفسي عند صاحبه. والتوازن النفسي كما هو مقرّر حصيلة ضرورية وطبيعية لانتفاء الخوف أو القلق... الخوف من صاحب السلطان أو القلق على المستقبل... والقصة التي رويناها تسلط الضوء على انتفاء الخوف عند المواطن العادي لأنّ الروح العامة التي تتعيّن بها أخلاق الأمة قد حقّقت الحماية التامة للمعارضة النقية كما أنها هي وحدها التي تمنح هذه المعارضة نقاوتها.

أما القلق على المستقبل فإنّ الأخلاق العامة في مجتمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه هي التي حالت دون انتشاره ومنحت المواطنين فرصة الإعراب عن احتجاجاتهم ورفضهم لما قد يواجههم من المتاعب اعتقاداً منهم بأنّ الخليفة حين يسمع شكواهم سيصحح الوضع القائم ويسدّ الثغرة التي يشكون منها.

وفيما يلي قصة أخرى تكشف عن انتفاء هذا القلق عند الرجال والنساء. فقد روي أنّ عمر سمع ليلة بكاء صبي فتوجّه نحوه، وقال لأمّه: اتَّقي الله تعالى وأحسني إلى صبيّك! فلمّا كان بعد قليل سمع بكاء الطفل مرة أخرى، فعاد إلى الأم يقول لها مثل الذي قاله من قبل. ثم بكى الطفل للمرة الثالثة فأقدم عمر غاضباً يسأل عن سبب البكاء. قالت الأم وهي لا تعرف مخاطبها: يا عبد الله إنّي أسكته عن الطعام فيأبى ذلك. قال عمر: ولِمْ؟ قالت: لأنّ عمر لا يفرض العطاء إلا للمفطوم. وطفلي هذا لم يفطم بعد. قال: ويحك لا تعجليه عن الفطام! فلمّا صلّى الصبح انفتل إلى الناس وقال لهم والدمع يملأ عينيه: بؤساً لك يا عمر! كم قتلت من أولاد المسلمين! ثمّ أمر مناديه فنادى: لا تجعلوا صبيانكم عن الفطام فإنّا نفرض لكلّ مولود في الإسلام، ثم كتبّ ذلك إلى الآفاق.

حساسية المسؤول أمام القيم الدينية:

في عصرنا الحاضر يتحدّث الناس عن سلطان الرأي العام في الدول المتقدّمة. وينسون أنّ في وسع الرجل الأريب الحاذق أن يتلاعب بعواطف الرأي العام وأن يجعل الحق باطلاً والباطل حقاً. ومع ذلك فهم يرون أنّ سلطان الرأي العام هو الذي يحقّق العدالة ويضمن الحرية. والواقع أنّ الضمانة الكبرى هي في هيمنة الوعي الخلقي النابع من العقيدة الصافية عند

1 . انظر (الفخري في الأدب السلطانية) لابن طبابا.

صاحبها. فهي، أي العقيدة، ليست المجتمع الذي يمكن أن يخدع من قبل الرجل الحاذق القوي، بل هي سلطان يخالط الدم واللحم ويحل في الضمير ويراقب صاحبه مراقبة لا سبيل معها إلى الالتواء. ومن هنا أشرنا في فقرات سابقة إلى هيمنة الخلفية الثقافية التي تحقّقها العقيدة كما شرحناها من قبل. في ضوء هذه الرؤية كان عمر بن الخطاب وغيره من أصحاب السلطان في عصره يتصرّفون ويتحركون.

وقد روي عنهم من وقائع ما لا سبيل إلى استيعابه في مثل هذا الفصل ونحن نقتصر هنا على رؤية واقعتين.

واقعة أبي عبيدة بن الجراح:

قيل: أنّ أبا عبيدة كان يوسع بالشام على عياله. فلمّا بلغ ذلك عمر أنقصَ عطاءَه خوفاً من أن يكون مثلاً سيئاً لمن تحت يده من الناس، فشحبَ لون أبي عبيدة وتغيّرت ثيابه وساءت حاله. ومع ذلك فلم يحاول أن يقتطعَ لنفسه من أموال المسلمين ما لم يؤذَن له بإقتطاعه ولو أراد لفعل، لكنّ أبا عبيدة كان يتصرّف في ضوء قيم نابعة من هيمنة عقيدته ومن الآداب الإسلامية التي شكّلت سلوكه. وعلِمَ عمر بعد ذلك بما صار إليه حال أبي عبيدة فردّ عليه ما كان حبَسه عنه وقال: (يرحَم الله أبا عبيدة! ما أعفَّ وأصبر).

فإذا كان أبو عبيدة قد التزمَ بما أمر به وحرم نفسه مما حرم عليه خضوعاً منه لواجب الطاعة فإنّ عمر بن الخطاب لم يرحم صديقه أبا عبيدة لشيء في نفسه بل فعل ما فعل خضوعاً منه لمفهوم المسؤولية عنده، وهي المسؤولية التي ألزمته بها عقيدته الدينية وآدابها.

واقعة سعد بن أبي وقاص:

وروي في الحوليات التاريخية أنّ عمر بن الخطاب (عزل سعد بن أبي وقاص عن أمارة الكوفة لغير شيء إلا أنّ طائفة من أهل هذه المدينة ثاروا به وقالوا لعمر: أنّه لا يُقسِمُ بالسويّة، ولا يعدِلُ في الرعيّة، ولا يغزو في السريّة. وقد بعث عمر محمد بن مسلمة إلى الكوفة فرأى الناس جميعاً راضين عن سعد. ومع ذلك فقد عزله خوف الفتنة، لأنّ جيوش الفرس كانت تتجمّع للغزو والثأر) [1].

1 . انظر الجزء الثاني من كتاب الفاروق عمر لمحمد حسين هيكل. الفصل (حكومة عمر).

هذه الواقعة لم تكن فريدة في نوعها. فلطالما أقدم عمر على عزل عمّاله لشبهة لا يقطع بها دليل. وعندما سئل يوماً عن سبب هذا التصرف قال: (هان شيء أصلِح به قوماً أن أبدلهم أميراً مكان أمير).

قد يظنّ بعض الناس أنّ في سلوك عمر ما لا يتفق مع ثقته بالعمّال. لكنّ الواقع أنّه قد يفعل ما يفعل إيثاراً منه للعافية ودرأً للفتن في الوقت الذي يعلم فيه براءة العامل مما يتّهم به. فهو لا يراعي صداقة صديق ولا يتصرّف في ضوء ثقته الشخصية بالعامل خوفاً من أن تكون ثقته في غير محلّها. لقد كان ولاؤه للقيم الدينية التي يلتزم بها أكثر وأقوى من ولائه لرأيه. وهو يعلم أنّ العامل المعزول لن ينقم عليه لأنه بسبب من التزامه بالقيم الدينية يدرك الدوافع التي تدفعه إلى مثل هذا التصرّف.

إنّ طاعة أبي عبيدة ووقوفه عندما أمر به هي كطاعة سعد بن أبي وقاص وإدراكه للدافع الخلقي والديني الذي دفع الخليفة إلى عزله.

عمر ومعاوية:

وقد يخطئ عمر في حكم يصدره أو سلوك يصدر عنه فإذا اقتنع بخطأ الحكم لم تردّه عن الاعتراف بالخطأ مكابرة أو عناد. فالمهم عنده هو خدمة الرسالة التي آمن بها والتزم لها. يروى أنّه (قدم الشام راكباً حماراً فتلقّاه معاوية بن أبي سفيان في موكب عظيم، ونزل معاوية وسلم على عمر بالخلافة، فمضى في سبيله ولم يرد عليه. فقال له عبد الرحمن أبن عوف: أتعبتَ الرجل يا أمير المؤمنين، فلو كلّمته، فالتفت عمر إلى معاوية وسأله: إنّك لصاحب الموكب الذي أرى؟ قال معاوية: نعم! قال عمر:مع شدّة احتجابك ووقوفك ذوي الحاجات ببابك؟ قال معاوية: نعم! قال: ولِمَ ويحك؟ وأجابه معاوية: (أمّا الموكب فلأننا ببلاد كثر فيها جواسيس العدو، فإن لم نتخذ العدّة والعدد استخفّ بنا وهجم علينا. وأمّا الحجاب فإننا نخاف من البذلة وجرأة الرعية. وأنا بعد عاملك، فإن استنقصتني نقصت وان استزدتني زدت، وان استوقفتني وقفت). قال عمر بعد أن سكت هنيهة: (ما سألتك عن شيء إلا خرجت منه! إن كنت صادقاً فإنّه رأيٌ لبيب، وإن كنت كاذباً فإنها خدعة أريب، لا آمرك ولا أنهاك!) [1]

في هذه الواقعة لم يغضب عمر لأنّ ركوبته كانت حماراً عادياً ولم تثره مظاهر العظمة في موكب معاوية. ذلك لأنّه يقيس الأمور بغير هذا المقياس.

1 . انظر المرجع السابق نفسه.

ومعاوية كان يدرك هذه الحقيقة ويعلم أنّ عمر بن الخطاب يتصرّف في ضوء المقاييس النابعة من التزامه بعقيدة الإسلام وأخلاقه. كما يعلم أنّ الأخلاق العامة المهيمنة في عصر عمر تنبع من مفهوم العقيدة وما يتصل بها من الآداب الخاصة والعامة. فلما اقتنع عمر بوجهة نظره لم يرد الخليفة عن السكوت عنه إحساسه بتواضع ركوبته ومظاهر الكبرياء في موكب معاويه عامله على الشام، ذلك لأنّه كما قلنا يفكر بعقل المؤمن ويتصرّف بسلوكه. كما أنّ الناس من حوله لم يجدوا ضيراً في تصرّف الرجلين فما كبر معاوية في أعينهم وما صغر عمر في مقاييسهم بل بقي كلّ من الرجلين في مكانته التي تليق به.

حوار طريف:

ولعلّ أبرز ما يلفت النظر في أخلاقيات القوم آنذاك ما يروى من أنّ عمر بن الخطاب قد قال يوماً لرجل رفع إليه قضيته: (إنّي لا أحبّك. فسأله الرجل: فتنقصني من حقّي شيئاً؟ قال عمر: لا. قال الرجل: فما يفرح بالحبّ بعد هذا إلا النساء) [1].

هذه الواقعة تروى في معرض الحديث عن مساواة في قضاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو أمير للمؤمنين. أما نحن فلا نجد فيها هذه الظاهرة وحسب بل نشهد فيها شيئاً آخر أخطر من المساواة لأنّ المساواة هي ثمرة له.

أمّا عمر فقد قال ما قال وهو يعلم أنّ حبه أو بغضه للرجل لا ينقص عنده من حقّه شيئاً. وأمّا الرجل الذي سمع ما سمع من عمر فلم يستشعر خوفاً ولم يساوره القلق ولذلك لم يسكت. وخوفاً من أن يختلط عليه الأمر ولكي يضع الأمور في مكانها الطبيعي لم يتردّد في أن يسأل عمر عن علاقة حبه وكراهيته بما يلتزمه كقاضٍ من العدل بين المتقاضين. فلمّا قال له عمر ما طمأنه على حقّه أجاب الرجل بما ربي عليه من الصراحة والوضوح والثقة بين يدي عمر وبإدراكه العميق لهيمنة الضمير الذي يعلو فوق كلّ الاعتبارات باستثناء العدل الذي تمليه تعاليم الإسلام، أجاب قائلاً: (فما يفرح بالحب بعد هذا إلا النساء). وإذاً هو لا يبالي أيحبّه عمر شخصياً أو يكرهه لأنّه لا يهدف إلى مصاحبته ولا ينوي الاستفادة من صداقته الشخصية رغم المكانة العالية التي كان يتبوّؤها عمر في المجتمع الإسلامي. كلّ ما كان يريده هو حقّه حين يقدّم البينة عليه وفي الوقت نفسه يعلم رغم السؤال الذي وجّهه إلى الخليفة القاضي أنّ قضاءه أنزه وأكرم من أن يتأثر بالحب أو بالكراهية.

1 . (الفخري في الأداب السلطانية) لابن طباطبا

موقف على بن أبي طالب:

وممّا يروى عن مجالس عمر ما قيل من أنّ علي بن أبي طالب قد خوصم لدى عمر من قبل يهودي. فلما انعقد مجلس القضاء قال له عمر: قم يا أبا الحسن واجلس أمام خصمك، أو قال له: ساوِ خصمك يا أبا حسن. فساوى عليّ خصمه وجلس أمامه وقد بدا التأثر على وجهه. فلمّا انتهت الخصومة قال عمر: أكرهت يا عليّ أن تجلس أمام خصمك؟ فأجابه علي: كلّا! ولكنّي كرهت أن لا تسوّي بيننا في مجلس الحكم حين قلت: يا أبا الحسن.

هذه الواقعة تثبت أنّ أخلاق عمر بالذات لم تكن هي التي تستقل بصنع المجتمع الإسلامي... وأنه لم يكن يستمد رصيده الأدبي من سلطان الخلافة... فالقيم التي كانت تحركه هي نفسها القيم التي تحرك غيره حتى ولو كان في موقف كموقف علي رضي الله عنه، أي موقف المتقاضي الذي يحتاج إلى عطف القاضي واهتمامه به في العادة. لكنّ ضمير الأمة الذي كانت تصنعه عقيدة الوحدانية وتشكّله الآداب الإسلامية هو الذي أنطق عليّاً بما قال. وهو لم يفعل ذلك على حساب مصلحته وحقه بل فعله إيثاراً لروح الدين كما كان يدركه. أما حقّه فقد كان مطمئناً للحصول عليه لأنه يثق بعدل عمر... إنّ ما ساءه هو ما توهمه من أن تكون له في نفس عمر منزلة قد تؤثر في إصدار حكم يغمز من قناة اليهودي.

***

وخلاصة القول أنّ هذه الوقائع وعشرات غيرها ملئت بها بطون الكتب التاريخية وتعارف عليها الرواة الصادقون تكشف عن طبيعة الإعلام القرآني الذي طرح أول ما طرح مبدأ الثقة بالإنسان وجعل الهيمنة لرسالة السماء بعيداً عن كلّ الضغوط والمصالح والصداقات بل والاختلافات الدينية وعواطف الحب والكراهية. إنها الأخلاق العامة التي تمثلت في المواطن العادي كما تمثلت في أخلاق الحاكم المتربع فوق قمة المجتمع.

ولو أننا عدنا إلى خصائص الإعلام القرآني كما جاء في عهد المصطفى صلى الله عليه وسلم لوجدنا في كلّ خصيصة منها ما يعتبر مصدراً طبيعياً للأخلاق العامة المشهودة في مجتمع إسلامي ملتزم بدينه.

***

ولا يردّ علينا ما يروى في بطون الكتب التاريخية من أنواع المظالم بعد ذلك. فإنّ الأجيال التالية التي رويت عنها واقعات مخالفة لروح الإعلام الإسلامي لم تعد تتأثر بهذا الإعلام وحده.

لقد تغلغلت في المجتمع الإسلامي ثقافات أجنبية دخيلة وتسلّلت عصبيات مصدرها مصالح خاصة تتّصل بالانتماءات القومية أو القبلية أو الطبقية أو الشخصية. وقد كانت نسبة هذه المظالم تزيد بزيادة نصيب الناس من الإعلام غير القرآني. فتبلبلت عقول الناس بهذا الإعلام الغريب ثمّ لم تعد الثقافة القرآنية هي وحدها المستقلة بتأديب النفوس وتربية القلوب.

وكانت المعركة شديدة عنيفة بين التراث القرآني وبين التراثات الثقافية الوافدة من الخارج.

وإذا كان المجتمع الإسلامي قد ابتُلي باختلاف المذاهب في الرأي واختلاف الفرق في مفهوم العقيدة فمصدر هذا الابتلاء هو هذا الاختلاط الهائل الذي أحدثته الهجمات الثقافية الخارجية والتي لبِسَت لبوس الإسلام حين عجزت عن اقتلاعه من جذوره.

وليس تاريخ الثقافة الإسلامية بعد ظهور الطابع العالمي للمجتمع الإسلامي غير تاريخ لمراحل الصراع والتفاعل بين جملة هائلة من ألوان الفكر والقيم الخلقية والعصبيات والولاءات التي تمتّ بصلة وثيقة إلى الرؤية القرآنية الأصلية من ناحية وبين القيم والثقافة القرآنية من ناحية أخرى.

لقد كان المجتمع الإسلامي في البداية يصنع قيمه انطلاقاً من القرآن ويتأثر بأسلوب الحوار القرآني ثم أصبح من بعد خاضعاً لفئات تحاول أن تطوع ما جاء في القرآن للقيم التي حملتها من خارج المجتمع الإسلامي.

من هنا ضاعت روح الأمة وانبهمت الشخصية الإعلامية الأصلية لكتاب الله وهيمنت الرغبة في المخالفة على الرغبة المتحرّرة في الفهم والتدبر المخلص للآيات القرآنية.

ومن الطبيعي أن تفقد القيم الإسلامية الأصلية سلطانها وأن تلتبس بالحزازات الاجتماعية والقومية بل والحضارية أيضاً. فكانت قيم نابعة من الفكر اليوناني وقيم مثلها نابعة من الثقافات السريانية والفارسية والهندية وغيرها من الثقافات القديمة. وبذلك أصبح الإسلام شكلاً دون المحتوى... وطقوساً دون عقيدة مهيمنة... ومذاهب في الرأي دون التزام بروح القرآن.

وإذا كان المسلمون قد عانوا الكثير من سيئات هذه الهجمات الثقافية الغربية فإنهم رغم ما سجلوه من التراجع ورغم ما تأثروا به من الأخلاق والقيم الغربية الوافدة فقد بقي للإسلام دوره القيادي. صحيح أنّه خسر معارك كثيرة ولم يعد يستقل بصنع الثقافة والإسلام في العالم ولم تعد أخلاق كتاب الله هي الأخلاق الشائعة بكامل نقائها ولم يعد الإعلام القرآني يستقل باجتذاب العقول وإشاعة القيم النابعة منه، فإنهم، أي المسلمين، ما زالوا في صميم الميدان لم يخسروا حرب البقاء أبداً.

وليس ما جرى اليوم من صراعات بين العالم العربي والإسلامي وبين الغزاة الطارئين على اختلاف أشكالهم وتباين أساليبهم، غير البرهان الدامغ على احتفاظ الإسلام بمواطئ قدميه مستعيناً بقدر كاف من الوعي وأسلحة دفاعية تمكّنه من الاستمرار طرفاً أساسياً في معركة البقاء.

***

هذا الواقع الذي تشهد له حقائق كثيرة وأخبار متواترة تعلن عنها وكالات الأنباء وتعكسها المؤتمرات القومية والدولية يفرض علينا إعادة النظر في الفكر الإعلامي الصحيح الذي هو وسيلتنا الوحيدة لبناء قاعدة صالحة لانطلاقة جديدة تنبع قيمها من قيم الإسلام وتتميز أنواع السلوك فيها بالأخلاق المتصلة بهذه القيم.

إنّ سر بقائنا جبهة قائمة في معركة المصير الحضاري التي نخوضها على مستوى الملايين من الناس وبالسلاح النابع من الإنجازات الحضارية هو في إعادة تشكيلنا على ضوء الإعلام الإسلامي.

لقد سئلت السيدة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها عن أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: (كان خُلُقه القرآن). والقرآن كتاب أصيل في الإعلام... كلّ شيء فيه، القصة والحوار، وطريقة الجدل، والقضايا التي يطرحها، والظروف التي يختارها في حواره... صادر عن رؤية إعلامية نابعة من إدراك معيّن للإنسان، ونفسه وقلبه وعقله وردود الأفعال الصادرة عنه.

إنّه النموذج الإعلامي الوحيد الذي ثبتت فاعليته وإيجابيته في صنع الإنسان المسلم وفي التجاوب مع أطماح هذا الإنسان وأحلامه. وليس هذا وحسب فقد مضت القرون ذوات العدد على استمرار هذا الكتاب مصدراً للتعليم والتصحيح وإرسال النداءات إلى القلوب والعقول في صميم العالم الإسلامي. ولا شك أنّ احتفاظ العالم الإسلامي ببقائه جبهة تدفع الأخطار الداهمة عن عقيدة الوحدانية، يعود إلى استمرار كتاب الله معلما لأفراده وشعوبه وإن تباينت درجات التأثر به والاستجابة له عند هذه الشعوب وأولئك الأفراد.

إنّ الأزمة المصيرية التي يواجهها العالم الإسلامي أمام جملة من الأخطار في مقدّمتها هذا السيل الدافق من الإعلام الأجنبي الوافد الذي يتغلغل عميقاً في قلب المسلم وعقله وروحه، وهذا المدّ الصهيوني الذي يرفد سيل الإعلام الأجنبي مستعيناً بأحلافه الدوليين وبالسياسات العدوانية التي تلتزم بها أطراف دولية كثيرة ابتداء من المؤسسات الثقافية حتى الأسلحة المدمّرة الحديثة. إنّ هذه الأزمة تنتظر رداً عربياً إسلامياً شاملاً تقوده خطة إعلامية نابعة من قراءة متدبرة لكتاب الله وموصولة بفهم جديد لقضايا

العصر وحقائقه ندرك بها أنّ الخطوة الرئيسية الأساسية التي يجب أن نقوم بها هي تشكيل المسلم على النمط النبوي الذي قال القرآن عنهفي آية مشهودة: (لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) [1].

والنمط النبوي الكريم الذي يحضّنا القرآن على الإقتداء به ليس هو نمط العالم الذكي[2] الأريب وحسب بل هو نمط صاحب الأخلاق القوية أو بتعبير آخر نمط الاستقامة الموصولة بالإيمان وهو ما قصد إليه النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: "قل آمنتُ بالله ثمّ استقم".

فالنمط هنا النمط الخلقي والإعلام الموصول به هو الإعلام النابع من عقيدة الوحدانية الصادقة. يؤكّد هذا المفهوم أنّ القرآن لم يمدح علم محمد عليه السلام، ونحن نعلم أن ما كان يتميز به من العلم قد تلقاه وحياً من السماء، بل مدح خلق محمد وتحدث عن صفاته التي استوعب بها قلوب الناس واستولى بها على نفوسهم. نجد مصداق ذلك في قوله عز وجل: (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ). وفي قوله: (وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)[3].

ثم يعود القرآن إلى الإطناب في الحديث عن خصائص النبوة وصفاتها الخلقية باعتبار أنها مسؤولية إنسانية ومن صنع الإنسان الذي يحاسب عليها يوم القيامة فيقول الله تبارك وتعالى في محكم تنزيله: (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ).

وليس هذا وحسب فإن ما امتدح الله به أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم من المؤمنين هو أيضاً مما يتصل بالجانب الخلقي كما في قوله تبارك وتعالى: (مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا)[4].

1 . الآية 21 من سورة الأحزاب
2 . هذا لا يعني أنه ليس للعلم دور في إنهاض الأمم بل يعني أن الاستقامة الخلقية مقدّمة عليه.
3 . الآية 159 من سورة آل عمران
4 . الآية 29 من سورة الفتح.

ويتمّ انتصار الإعلام القرآني إلى جانب التنوير العقلي الذي مارسه في تنمية الأخلاق وفي الاهتمام بنظافة السلوك واستقامة التصرّف. وفي هذا الاتجاه تقرير ظاهر بأنّ مصير الأمم موصول بأخلاقها فإذا حسنت أخلاق المسلمين وتطهّر سلوكهم كان النصر حليفهم وكانت الهزيمة قدراً مقدوراً على أعدائهم.

***

ومما يلفت النظر أنّ الآية الكريمة الواردة في سورة الفتح والتي أثبتناها في الفقرة السابقة تحدثت عن مثل شبيه لمثل المسلمين في التوراة والإنجيل. وهذا يعني أنّ الإعلام ذا الأغراض الخلقية والذي ينادي بالاقتداء بأخلاق النبوة لم يكن وقفاً على القرآن وحسب بل هو الإعلام نفسه الذي جاء على لسان كلّ نبي وكلّ رسول قبل محمد عليه السلام. يؤكّد هذا المعنى ما ورد في قوله تبارك وتعالى: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ{4}) [1].

وتنسحب هذه القدوة على الرجال المؤمنين الأبرار ممن تعاقبوا على اختلاف القرون وفي عهود الأنبياء والرسل جميعاً. كما في قوله عز وجل: (لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا).

***

في ضوء ما سبق تقرر حقيقة باقية ثابتة هي أنّ الإعلام الهادف إلى تصحيح الوضع الإنساني والخروج به من متاهات الضياع والضلالة هو الإعلام الذي يعمل على مواجهة الواقع الخلقي والصفات النفسية قبل كلّ شيء.

أما العلم فهو على جلالة شأنه وخطورة الدور الذي يقوم به يبقى أداة يتقرّر مصير الانتفاع منها في ضوء الموقف الخلقي. ولما كان الموقف الخلقي موصولاً بدور القيم في صنع الإنسان وتشكيل نفسه، ولما كانت عقيدة الوحدانية هي القيمة الكبرى التي تهيمن على كلّ ما سواها من القيم فإنّ الموقف الخلقي عند المسلم موصول من قبل ومن بعد بقيمة الوحدانية وبالتالي بما يصدر عنها من الأوامر والنواهي وشروط العمل الصالح.

1 . الآية 4 من سورة الممتحنة.

ولو شئنا أن نحصي ما ورد في هذا المعنى في كتاب الله لضاقت صفحات هذا الفصل عن استيعابه ولذلك نقتصر على ما استشهدنا به تمثيلاً لا حصراً.

المهم أنّ الإعلام القرآني قد جعل من الأخلاق العامة والخاصة مادة أوّلية له. وختاماً لما عرضنا له من القول نذكر ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح وقد عاد من معركة بدر الكبرى. قال: (لقد عدنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر. قيل قد علمنا الجهاد الأصغر فما هو الجهاد الأكبر يا رسول الله؟ قال: جهاد النفس). وبذلك قطع النبي صلى الله عليه وسلم كلّ قول مخالف لهذا المعنى تأدّباً منه بأدب القرآن وتخلّقاً بأخلاقه.

الفصل الحادي عشر

الإعلام القرآني وإعداد النخبة

في سورة الإخلاص تعبير جامع مانع عن مفهوم الوحدانية. يقول الله عز وجل فيه: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (4))..

إنّ فيها دعوة صريحة لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يقول للناس في كلّ وقت من ليل ونهار حين يتوجّه إليهم بالدعوة إلى الله، وأن يقول في كلّ وقت من ليل ونهار حين ينصرف إلى ذات نفسه فيتذكر حضور الله عز وجل ورقابته له وهيمنته عليه وسلطانه المطلق: (الله واحد أحد... والله هو الذي يقصد بالعبادة كما يقصد لقضاء الحاجات... والله وحده ليس له نسب ولا صهر ولا والد ولا ولد... ليس كمثله شيء... ولا كفؤ له في ذاته ولا في صفاته).

إنّ غيرة الله على وحدانيته غير ذات حدود... وهو برحمته يغفر الذنوب لمن يشاء من عباده إلا من أشرك به وضمّ إليه آلهة يعبدها من دونه أو يتشفّع بها عنده فالله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.

***

والإقرار بالوحدانية لا يقف عند القول وحسب... ولا يكتفي بما يردّده اللسان فقط... بل هو اليقين الذي يستوعبه القلب، والسلوك الذي يتحقّق في ضوء هذا اليقين. ففي ظلّ الوحدانية يتردّد فكر المسلم، وتتحرّك جوارحه، وينطلق لسانه، ويتحدّد سلوكه. وفي ظلّ الوحدانية لا دور لأي شريك أو شبه شريك في ربوبية الله عز وجل.

***

والواقع أنّ هذه الوحدانية المطلقة ليست مما يسهل اعتناقه على من يرتبط بالولاء لأي شيء غير الذات الإلهية، ولأي خلق من الخلق، ولأي معنى من المعاني.

وإذا كانت سورة الإخلاص، على وجازتها وقلة آياتها، قد عيّنت مفهوم الوحدانية بالدقّة التي شهدناها والشمول الذي أدركناه، فلأنّ عادة كثيرين من الناس قد جرت على أن يوالوا رموزاً يجعلون منها مواضع للولاء، ومواطن للانتماء، من مثل

عرب الجاهلية الذين كانوا يجدون في البيت الحرام وفي الأصنام التي أقيمت من حول كعبته المشرفة، رموزاً لكبريائهم الشخصية، ومفاخراتهم القبلية فعبدوها من دون الله.

كانوا يقدّسون هذه الأصنام لا لأنها تشفع لهم عند الله وحسب فيما يزعمون... بل لأنها كانت ترمز إلى عصبياتهم القبلية... فلكلّ عشيرة صنمها... ولكلّ قبيلة معبودها الخاص... تغار عليه، وتنتمي إليه... وتمنعه مما تمنع منه الأموال والبنين والنساء.

والشأن هو نفسه بالنسبة إلى البيت الحرام، فقد كانوا يغارون عليه ويقومون على خدمته ويتنازعون شرف الدفاع عنه لا لأنه بيت الله وحسب بل لأنه كان يرمز إلى أمجادهم... ويحقّق لهم امتيازاتهم... ويفردهم بالخير والنفوذ والقوة من دون غيرهم.

***

والواقع أنّ ما كان عرب الجاهلية يتّصفون به من هذا الولاء وذلك الانتماء، هو نفسه ما يتّصف به أصحاب كلّ ملة من الملل في الدنيا كلّها. ولا نزال حتى اليوم نشهد هذه الأنواع من الانتماءات والولاءات التي ترمز إلى كبرياء أصحابها وأمجادهم ومصالحهم وشخصيتهم القومية، فلم تعد العقيدة في الله مقصودة لذاتها بل أصبحت موظفة في خدمة هذه الشخصية القومية أو تلك المصالح والأمجاد والكبرياء.

هذا هو الذي يفسر عصبية كلّ قوم لتراثاتهم الخاصة من مثل حائط المبكى عند اليهود، كما يفسّر عصبية أصحاب كلّ ملة لكتابات بعض كهانهم ومواطن معابدهم.

***

لكنّ الوحدانية ترفض هذا كلّه... وتقرر أنّه لا معبود إلا الله... وأنّه لا شريك له في ذاته وفي ملكه وفي صفاته. فكلّ عبادة له وحده... وكلّ دعاء يوجه إليه دون سواه... وكلّ استعانة لا تكون إلا به... وكلّ شكر لا يكون إلا له.

والواقع أنّ الوحي السماوي قد حرص على توكيد هذه الظاهرة وألح عليها في آيات كثيرة ووقائع متعددة قصداً إلى إصطفاء الصفوة من الناس وتدعيماً لعقيدة الولاء المطلق لله عز وجل.

وقد جرت الأمور في حياة النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم على النحو الذي اختبرت به قلوب المؤمنين، وفتنت به نفوسهم فتنة تناولت كلّ ولاء لهم من دون الله... وكلّ علاقة لهم غير علاقتهم بالله... وكلّ معنى من معاني حياتهم غير المعنى الذي يشدّهم إلى الله عز وجل.

ولو شئنا أن نتعرّف إلى جوهر السياسة الإعلامية التربوية في كتاب الله لتبيّن لنا أنّ الإخلاص لوحدانيته عز وجل هو الغاية الكبرى التي قصد إليها من خلال أنواع من القول وفنون من التوجيه وإعداد من الوقائع. إنّ السياسة الإعلامية التربوية كما يتبيّن لنا من سياق الوحي كلّه هي إعداد المسلمين بحيث يتّصفون بأخلاق النخبة من الناس. فلا يقبل منهم عدل عن الإقرار بالوحدانية المطلقة، ولا يعذرون في أي موقف لا يكون فيه الولاء صرفاً لأوامر الله ورسوله، حتى ولو كان في هذه الأوامر ما لا يتفق مع الكرامة المزعومة التي تصنعها العصبية لغير الله. إذ لا كرامة للمؤمن إلا في عبادته الخالصة لوجه الله الكريم.

أما الشاهد الأول على غيرة الله سبحانه وتعالى على ربوبيته التي لا تقبل شريكاً أو شبه شريك من أنواع الخلق كلّهم، فإنّنا نجده في الموقف الشهير الذي وقفه النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم من عمّه أبي طالب حين جاء يساومه عليه الصلاة والسلام في إجراء تسوية مع المشركين بحيث يمتنع عن مهاجمة الشرك وتسفيه أحلام المشركين وعن الحملة على أصنامهم.

فقال المصطفى عليه السلام له وقد ظنّ أنّ عمه مسلمه إلى قريش: "يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه".

لكنّ هذا الشاهد لا يكفي وحده لغرس الوحدانية في القلوب. فقد كان المسلمون في حاجة إلى وقائع وأحداث تتخلّل مسيرة حياتهم الممتدة في عهد النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، ثم تكون كلّ واقعة منها بمثابة امتحان خطير لمفهوم الوحدانية عندهم، وتصفية تامة لنفوسهم من كلّ كدورات الجاهلية، وتوكيد لأخلاق الطاعة عندهم لله عز وجل ولرسوله، وتعميق لثقتهم المطلقة بقيادة النبي المصطفى عليه السلام.

وبتعبير آخر لتكوين أمّة منتخبة يكون فيها كلّ فرد من الأفراد على مستوى الوعي القيادي.

***

يوم الحديبية:

وبالرغم من أنّ يوم أحد ويوم حنين من بعده، كانا من الأيام التي امتحنت فيها عقيدة المسلمين، وتطهّرت فيها نفوسهم، وثبت فيها ولاء المخلصين منهم للعقيدة الخالصة التي يعتقدون، وبالرغم من أنّ واقعة الثلاثة الذين خلفوا يوم معركة تبوك كانت امتحاناً لثلاثة من المؤمنين بطأ بهم عملهم عن الالتزام لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم للحاق به في تلك الغزوة، وكانت أيضاً امتحاناً للمسلمين في المدينة حين طلب إليهم أن يقاطعوا هؤلاء الثلاثة حتى يقضي الله فيهم قضاءه، وكانت امتحاناً لنساء هؤلاء الثلاثة بدورهنّ، فإنّ يومين آخرين من أيام المسلمين كانا عنوانين كبيرين على فعالية الإعلام القرآني، وأغراضه التربوية البعيدة، تلك الأغراض التي يتحقّق بها مفهوم النخبة في العقيدة، والنخبة في الالتزام لأوامر الله، والنخبة في التعلق بالله عز وجل والثقة برسوله الكريم.

وخلاصة يوم الحديبية كما يحدّثنا عنه أصحاب السيرة النبوية الشريفة أنّ ألفاً وخمسمائة من المسلمين قد رافقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في العام السادس من الهجرة للحج إلى بيت الله الحرام، وهم على ثقة من أنهم سيدخلون مكة المكرمة وسيطوفون حول الكعبة ويصلّون فوق ساحة البيت الحرام... لكنّ مسيرة الأحداث صدمتهم بعد اللقاء الذي جرى بين سهيل بن عمرو موفد قريش، والنبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، والاتفاق على عودة المسلمين إلى المدينة في ذلك العام مقابل السماح لهم بالحج إلى بيت الله الحرام من العام المقبل.

هذا الاتفاق، مع كلّ الأحداث التي رافقته، ولا سيما حين وافق النبي عليه السلام على تسليم ولد سهيل الهارب من جحيم قريش إلى أبيه، قد زلزل نفوس المسلمين، وأشاع روح التململ في نفوسهم وكاد يدفعهم إلى التمرّد حين لم يدركوا الحكمة النبوية منه، حتى أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو من أقرب الناس إلى النبي، ومن أشد الناس حماسة لعقيدة الوحدانية، ودعوة الإسلام، قال في معرض التساؤل: كيف نقبل الدنية في ديننا ؟!

ولم يكن في وسع النبي صلى الله عليه وسلم أن يقول للناس الدوافع التي دفعته إلى إمضاء هذا الاتفاق مقتصراً على قوله لمن سأله متشكّكاً في حكمة الاتفاق: "إنّي عبد الله ورسوله ولن يضيّعني أبداً".

هذا الموقف كان جديراً بزلزلة القلوب المطمئنة، وقد كاد يورد المسلمين التهلكة لولا أنّ الله قد مسح على قلوبهم برعايته، فعادت نفوسهم إليهم. وغلبت أخلاق الطاعة والوثوق بنبيّهم عليهم فاستجابوا لما أمروا به وعادوا إلى المدينة تحوطهم رعاية الله، وتكلؤهم عنايته.

لقد كان يوم الحديبية واقعة استثنائية امتحنت فيها النفوس وفتنت فيها القلوب، لأنّ هذا اليوم قد صدم الناس في أعزّ ما كانوا يفاخرون به، ويمنّون النفس بالحصول عليه، وهو الدخول إلى بيت الله الحرام والطواف حول الكعبة المشرفة.

ولا عجب في أن يمتحن الله عز وجل عباده وأن يفتنهم ليحيا من حيَّ عن بيّنة، وليتبيّن من يتّبع الرسول ممّن ينقلب على عقبيه وقد نجح الامتحان، وكشفت الفتنة عن قلوب تطهّرت بالإيمان، وثبتت للتجربة، وانتصر فيها اليقين على وسوسات الشيطان الرجيم.

الصلاة باتجاه بيت المقدس ثم التحوّل إلى البيت الحرام:

وتأتي قصة الصلاة إلى بيت المقدس ثم التحوّل عنه إلى البيت الحرام بمثابة امتحان آخر لعب دوراً كبيراً في زلزلة الصفوف وتنبيه العقول والقلوب على حقيقة الربوبية، وفي تعميق الولاء لله عز وجل وتوثيق العلاقة بين الجيل الإسلامي الأول وبين الرسول صلى الله عليه وسلم.

والجدير بالذكر أنّ هذه القصة قد كشفت عن أنّ فتنة المسلمين لم تكن عند نزول الوحي بضرورة التحوّل عن بيت المقدس إلى البيت الحرام في أداء الصلوات وحسب، بل كشفت أيضاً عن فتنة سابقة لها رافقت المسلمين وامتحنتهم خلال المدة التي توجّهوا فيها بالصلاة إلى بيت المقدس.

***

كان اليهود في أثناء ذلك يهمسون في آذان بعضهم، ويقولون لمن يشايعهم من المنافقين وأهل الشرك، أنّ توجّه المسلمين بالصلاة إلى بيت المقدس هو الدليل الساطع على أنّنا نحن اليهود أصحاب الحق. يكفي أنّ محمداً قد قلّدنا في التوجّه إلى بيت المقدس لأنه لم يجد غير قبلتنا قبلة صالحة للتوجّه إلى الله.

والحقيقة أنه قد كان لهذا الكلام المهموس تأثيره في النفوس لأنه استطاع أن يضلّل قلوب بعض الناس وأن يثير تساؤلات لا يجدون جواباً عنها في حدود ما يدركون من الحقائق.

ومن الطبيعي أن يخوض كلّ مسلم معركة حامية مع نفسه، وأن يواجه وسوسات الشياطين وحلفائهم من منافقي المدينة ويهودها بكلّ ما كان يملك من يقين العقيدة، وقوة الأخلاق، وتمام الثقة بشخصية الرسول عليه السلام. هذا مع العلم أنّ الفترة التي لعبت فيها الفتنة دورها في امتحان اليقين عند المسلمين قد امتدت فيما تقول الروايات التاريخية ستة عشر أوسبعة عشر شهراً. وهي فترة طويلة نسبياً حين نتذكر قلّة عدد المسلمين وسهولة الاتصال بين المشكّكين من المنافقين واليهود، وبينهم.

***

والواقع أنّ هذه القضية قد لعبت دوراً كبيراً في مسيرة الإسلام خلال تلك الفترة، لا سيما وأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم كان راغباً في أعماقه في التوجّه بالصلاة إلى الكعبة في البيت الحرام.

فإذا بلغت هذه الفترة الغرض المقصود منها وهو ضمان الطاعة للرسول، وتوثيق الرباط بين المسلمين وربهم، وبقائهم على ولائهم المطلق له قضت حكمة الله عز وجل أن يواجه المسلمون صدمة أخرى حين صدر الأمر بالتحوّل في الصلاة عن بيت المقدس إلى البيت الحرام.

صحيح أنّ الأمر بالتحوّل عن بيت المقدس قد أرضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأراح المسلمين فجنّبهم المأزق الذي يواجهونه حين كان اليهود يمنون عليهم بما يزعمونه من أنّ توجّه المسلمين إلى بيت المقدس هو اعتراف منهم بأنّ اليهود على الحق، لكنّ اليهود بعد هذا التحوّل لم يعدموا وسيلة جديدة للتشكيك في شرعية هذا الأمر الجديد.

***

لقد أغضبهم بالطبع أنّ المسلمين تحوّلوا عن قبلتهم. ولم يعودوا يجدون مبرراً لما كانوا يزعمونه من الرأي. لكنهم حين أصبح التحوّل إلى البيت الحرام حقيقة واقعة، راحوا يفكرون في ابتداع مزاعم وحجج جديدة للإيقاع بالمسلمين وتضليلهم.

قالوا لهم: إذا كانت صلاتكم نحو بيت المقدس صلاة مشروعة فلماذا تحوّلتم إلى البيت الحرام؟ وإذا كانت قبلة البيت الحرام هي الحق فإنّ صلاتكم التي توجّهتم بها نحوبيت المقدس يجب أن تكون باطلة. فلماذا لم تتوجّهوا منذ البداية نحو البيت الحرام؟

والحقيقة أنّ لمثل هذا المنطق تأثيره في أصحاب الإيمان الضعيف ممّن كانوا على حرفٍ في دينهم. لكنّ الذين صبروا على الصلاة نحو بيت المقدس خلافاً لما كانوا قد تعوّدوه من التوجّه إلى البيت الحرام وألفوه من تقديس الكعبة، كانوا جديرين بالصبر أيضا حين راح اليهود والمنافقون يهمسون في آذانهم بمثل هذه الشكوك.

ولما كانت لهذه الفتنة التي بدأت بالتوجّه في الصلاة إلى بيت المقدس من ثم استؤنفت بالعودة إلى البيت الحرام، نقول لما كانت لهذه الفتنة أهميتها وخطورتها في التشكيك قضت العناية الإلهية رحمة بالعباد، أن تتعرّض لهذه القضية وللظروف التي رافقتها والملابسات التي صدرت عنها، فإذا بالوحي السماوي ينزل بالكلام الفصل ويرفع عن المسلمين إصرهم الذي أثقل كاهلهم وبين السبب الحقيقي لهذا الأمر الإلهي. قال عز وجل في محكم تنزيله: (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) [1]. هذا هو المبدأ العام الذي بسطه الوحي السماوي ليقول للناس أينما تولّوا في صلاتكم فأنتم أمام وجه الله عز وجل. إذ ليس لأرضٍ فضلٌ على أرضٍ أخرى في هذا المعنى.

ثم نجد ابتداء من الآية 144 من سورة البقرة توضيحاً لقصة التوجّه إلى البيت المقدس بالصلاة أولاً ثم التحوّل عنه إلى البيت الحرام.

والملاحظ في هذه الآيات الكريمة أنّ الوحي السماوي قد نزل مطابقاً لما في نفس الرسول عليه السلام من الرغبة في التوجّه بالصلاة إلى الكعبة. وهي كما يبدو لنا خفية حال أدب النبي مع ربه دون ظهورها على لسانه أو في تصرفاته. وفي هذه الظاهرة التي حدثنا عنها القرآن الكريم ما يدلّ إلى تلك الطاعة المطلقة عند النبي عليه السلام لما يأتيه من أوامر السماء. لا سيما وأنه صلى الله عليه وسلم كان على مثل اليقين من أنّ لما أمر به من الصلاة نحو بيت المقدس حكمة عند الله عز وجل، وأنّ هذه الحكمة بقيت قائمة بعد الأمر بتحوّله في الصلاة إلى البيت الحرام.

ويقرّر الوحي السماوي في أثناء ذلك بأنّ التوجّه نحو البيت الحرام هو الحق الذي يعلمه أهل الكتاب مما يجدونه عندهم في التوراة والإنجيل.

1 . الآية 115 من سورة البقرة

ثم يمضي الوحي السماوي فيقول لمحمد: أنّ أهل الكتاب لن يتّبعوا قبلتك مهما تحمل إليهم من الآيات البينات فاستقم كما أمرت واتّبع القبلة التي أمرت بالتوجّه إليها فما أنت بتابع قبلتهم أبداً. وليس هذا وحسب فإنّ أهل الكتاب لا يقتصرون على الامتناع عن اتّباع قبلتك فقط بل يمتنع بعضهم عن اتّباع قبلة بعض. إنهم أصحاب هوى... والهوى يدعو إلى المكابرة والعناد... كما أنه مصدر للضلالة. ولئن اتّبعت أهواءهم يا محمد من بعد ما جاءك من العلم إنّك إذاً لمن الظالمين.

ويكرّر الله عز وجل قول حقيقة طالما سلط الأضواء عليها، فيقول للنبي عليه السلام ما معناه: إنّ أهل الكتاب يعرفون أنك على حق تماماً كما يعرفون أبناءهم لكنّ فريقاً منهم يكتمون هذا الحق قصداً إلى التعمية والتضليل. فالحق يا محمد هو من ربك فلا تكن من الشاكّين الممترين أبداً.

***

يقول الله عز وجل في كتابه: (قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (144) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ۚ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (145) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (146) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (147))[1].

***

والجدير بالذكر أنّ هذا النص القرآني قد سبق بحقيقة أساسية قررتها العناية الإلهية وجعلت الأمة الإسلامية بها شاهداً على الناس. كما جعلت الرسول شهيداً على هذه الأمة. وهذا يعني أنّ الحق والباطل لا يتقرّران بالمواقف التي يتّخذها غير المسلمين، ولا يتحدّدان بالأقوال الصادرة عنهم. فالأمة الإسلامية هي الحكم الذي يحتكم إليه... والدين الذي تعتنقه هو المرجع الذي يرجع إليه في الفصل بين الناس. هذه الأمة هي الشاهدة على الهداة والضالين... وهي التي تتولى زرع الطريق إلى الله بالشواهد الحقيقية. ولما كان الرسول صلى الله عليه وسلم هو الموحى إليه، وهو المسؤول أمام الله عن مصير الدعوة الإسلامية في أمة الإسلام أولاً وفي دنيا العالمين ثانياً، فقد وجب أن يكون الشاهد الموثوق والمصدق على الخلق كلّهم.

1 . الآيات 144-147 من سورة البقرة

وبعد إقرار هذه الحقيقة التي منحت المسلمين ثقتهم المطلقة بالربّ الذي يعبدون والرسالة التي يحملون، والتي جعلت الحق يدور معهم حيث يدورون ما داموا متمسكين بعقيدتهم، يتوجّه الله إلى نبيه ويعلمه بأنّ واقعة التوجه نحو بيت المقدس ثم نحو البيت الحرام لم يقصد بها غير امتحان اليقين عند المسلمين والكشف عن نصيب كلّ مسلم من العقيدة ومدى موالاته للدعوة التي جاءت إليه. أما ما يقوله السفهاء ويرددونه من المزاعم حول هذه الواقعة فلا يجب أن يأبه له المسلمون أو أن يبالوا به ذلك لأنّ لله المشرق والمغرب فأينما تولّوا وجوهكم فأنتم مع الله وبين يديه. هو الذي يتولى بالهداية من يشاء من عباده إلى صراطه المستقيم.

يقول الله عز وجل في سورة البقرة: (سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (142) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (143)).

***

نعود مرة أخرى فنتساءل: لماذا كانت كلّ هذه الفتن التي امتحنت بها قلوب المسلمين؟ وما هي النتائج التي ترتبت عليها فيما بعد؟

أما الاجابة عن السؤال الأول فقد وجدناها في النص القرآني أعلاه.

لقد كانت هذه الفتن وفي مقدّمتها فتنة التوجّه إلى بيت المقدس في الصلاة ثم التحوّل عنه إلى البيت الحرام لتحقيق غرض واحد أساسي هو الكشف عن قوة الإيمان في النفوس، وتقييم روح الصمود والثقة بالله ورسوله عند عامة المسلمين.

***

وأما الإجابة عن السؤال الثاني الذي يتعلّق بالنتائج المترتبة على الفتنة فيما بعد فقد جاءت صريحة واضحة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم.

ولما كانت هذه الوفاة كما جاء في الروايات التاريخية الموثوقة، صدمة قاسية على نفوس المسلمين بعامة... فقد وجب إعداد هؤلاء المسلمين منذ البداية إعداداً تربوياً خاصاً بحيث تخلص عبادتهم لله عز وجل فلا يخامر عقيدتهم شك كثير أو قليل. وبحيث ينصرفون انصرافاً تاماً عن كلّ ولاء غير ولائهم للربّ المعبود، ولو قد بقيت بقية من شوائب الولاء لغير الله في نفوسهم،

لكانت وفاة النبي صلى الله عليه وسلم جديرة بزلزلة النفوس، وتفريق الصفوف، والقضاء على كلّ المكاسب العظيمة التي حقّقتها دعوة الإسلام في نفوسهم خلال الفترة التي عايشوا فيها محمداً صلى الله عليه وسلم.

لقد علّمهم الرسول عليه السلام بالقول وبالفعل بأنّه لا باقي إلا الله... ولا ربّ إلا الله... ولا عبادة إلا لوجه الله... وأنه هو شخصياً لا يعدو أن يكون عبداً من عباد الله ينطبق عليه ما ينطبق على سواه.

- فهو عبد الله ورسوله...
- وليس له من الأمر شيء...
- وهو عاجزٌ عن أن يهدي الناس بنفسِه إلى الدين القويم...
- ومهمّته تقف عند التبليغ. فلا سلطان له على أحد كما لا سلطان له على نفسه.
- يأكل ويشرب ويتزوج ثم يموت، كما يأكل كلّ الناس ويشربون ويتزوجون ثم يموتون.
- ثم هو يمشي في الأسواق شأنه شأن غيره.
- وهو لا يعلم شيئاً غير ما يعلمه الله إياه. لا يستقلّ بأمر من أمور الدعوة ولا يحكم إلا بما يوحيه الله إليه.

***

ومع ذلك فقد أحدثت وفاة الرسول عليه السلام زلزلة في النفوس حتى أنّ عمر رضي الله عنه قد رفض التسليم بهذا الأمر الواقع لشدّة ما أصابه من الحزن وأهمّه من فراق محمد له، فراح تحت وطأة هذه الصدمة يقول لمن حوله بلهجة التهديد:

من قال أنّ محمداً قد مات قطعت رأسه بهذا السيف.

وشاعت في الناس الأقاويل... وذهبوا كلّ مذهب في تفسير هذه الظاهرة. وكان القاسم المشترك في كلّ هذه المذاهب هو ظاهرة الروع التي لفّت الجميع وعصفت بهم.

لكنّ الواقع أيضاً بأنّ هذه الصدمة القاسية التي كانت تهدد باختلال التوازنات النفسية عند الناس، وببروز الاختلاف حول الصيغة المناسبة لاستمرار دعوة الإسلام في الأرض، نقول: إنّ هذه الصدمة القاسية لم تلبث أن فقدت حدّتها ولم تبلغ غايتها في النفوس حين وقف أبو بكر رضي الله عنه يعظ الناس ويذكرهم... يعظهم أن يضلّوا ويذكّرهم بما نسوه من أنّ محمداً هو عبد الله أولاً ورسوله ثانياً، وأنه يصيبه ما يصيب العباد لأنّ الرسالة لا تميزه من الناس فيما يتعلق بحقيقة الكون والفساد، أو الحياة والموت. قال فيما روي عنه:

"من كان يعبد محمداً فإنّ محمداً قد مات. ومن كان يعبد الله فإنّ الله حيّ لا يموت".. (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ۚ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)[1].

***

لقد كان لتلاوة هذه الآية الكريمة أثر عميق كشف عن حقيقة الولاء لله عز وجل وأثبت أنّ الزلزلة التي أصيب بها المسلمون بعد تلك الوفاة مباشرة كانت صادرة عن حبهم العميق لشخص محمد... لكنّ هذا الحب لم يجاوز حدوده البشرية ولم يبلغ درجة العبادة التي تلتبس بها الحقيقة على الناس. فما أسرع ما عادت إلى المسلمين نفوسهم، فسكنت بلابلهم، واطمأنّت قلوبهم واكتشفوا أنّ ولاءهم لمعبودهم الحقيقي هو الذي يستأثر بكلّ عقولهم وقلوبهم. هكذا استقامت الطريق واجتمعت القلوب فسهل على المسلمين أن يتدبروا شؤونهم قبل أن يوضع الجسد الطاهر في مثواه الأخير.

لقد كشف يوم السقيفة، وهو اليوم الذي استمر به الوجود الإسلامي على صورة دولة، عن عظيم وعي المسلمين بعقيدتهم، وولائهم للرسالة التي يحملون، وعن الإنجازات المعجبة المدهشة التي حقّقتها في نفوسهم سلسلة الوقائع التي فتنوا بها وامتحنوا بها خلال عشرين عاما ونيف.

كما أنّ النجاح المنقطع النظير ليوم السقيفة قد سلّط الضوء على فعالية الإعلام القرآني الذي نزل منجّماً في ضوء الواقع، واتخذ صفة الحوار المكشوف والمنظم مع كلّ الفرقاء... مع الرسول نفسه، ومع المؤمنين، ثم مع مشركي قريش، والمنافقين واليهود في المدينة، وأخيراً مع الوفود التي كانت تفد على رسول الله في أثناء ذلك.

***

1 . الآية 144 من سورة آل عمران

والجدير بالذكر أنّ هذه الوقائع قد كشفت عن جوهر العملية الإعلامية وعيّنت مسيرتها. لقد أثبتت أنّ الغاية من الإعلام هي تكوين نخبة من المؤمنين تكون بمثابة الركيزة الأساسية لصرح الدعوة الإسلامية.

لكنّ الاهتمام بالنخبة لم يكن يحول دون السعي إلى نشر العقيدة على أوسع نطاق ممكن. ولما كانت قوة العقيدة تتأثر بعاملَي المكان والزمان. فقد وجب أن يكون ولاء المقيمين بعيداً عن المدينة المنورة ومكة المكرمة وأن يكون ولاء من كان عهدهم بالجاهلية قريباً، على درجات متفاوتة من القوة.

لقد بدا بعد وفاة الرسول عليه السلام أنّ هؤلاء البعيدين كانوا يواجهون معركة شديدة بين أخلاق الدعوة الجديدة والتزاماتها الاجتماعية والإقتصادية وبين ما كانوا تعوّدوه من الأخلاق والعادات والتقاليد، وما كانوا يتعاملون به من القيم.

كان منهم من استيقظت في نفوسهم غيرة العصبية القبلية وغلبت عليهم، فدفعتهم هذه الغيرة الى تأييد أنبياء مزعومين منهم وفي مقدّمتهم مسيلمة الكذاب.

وكان منهم من غلبت عليه روح الفردية، فجهل أهمية التعاون الاجتماعي، ورفض أن يواسي فقراء المسلمين بماله وبالتالي رفض أن يدفع الزكاة المفروضة واشترط لبقائه على الإسلام إعفاءه من الزكاة.

وكان منهم من ظنّ أنّ دنيا الإسلام قد انتهت وأفلست بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فانفضّ عن الدعوة ورجع إلى وثنية جاهليته.

لكنّ الحكمة الإلهية قضت أن يكون مصير الدعوة الإسلامية مرتبطاً بهذه النخبة التي كانت تقيم بخاصة في المدينة المنورة أولاً ثم في مكة المكرمة.

فإذا بالخليفة الأول أبي بكر رضي الله عنه، يجيش الجيوش ويبعث البعوث إلى كلّ وجهة صيانة للدعوة الجديدة وحفاظاً على وحدة المسلمين.

والواقع أنّ أبا بكر، وإن أصرّ على محاربة المرتدين كلّهم، ومنهم الممتنعون عن تأدية زكاة أموالهم، ووقف من عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن غيره الموقف المتصلّب الذي يحدّثنا التاريخ عنه، فإنّ هذا الخليفة العظيم ما كان في وسعه أن يضع حداً لأخطار الردّة لولا أنّ من حوله من الناس كانوا يشاركونه الرأي أو يؤثرون الطاعة على كلّ اعتبار آخر.

لقد وجد عند الجميع الاستعداد المطلق للجهاد في سبيل الله، وتقديم الغالي والرخيص صيانة لهذه الدعوة وتدعيماً لمواقعها في النفوس وفي البلاد.

***

على أننا يجب أن نعترف بحقيقة أخرى تفرضها طبيعة الأحداث الدامية التي تعاقبت بعد ذلك والمواقف التي ترتبت عليها بعودة الناس إلى الصف الواحد، والتزامهم للعقيدة والأوامر والنواهي التي جاء بها الوحي القرآني أو صدرت عن محمد صلى الله عليه وسلم.

إنّ السهولة النسبية التي عادت فيها النفوس إلى الله، واستقامت بها الطريق أمام العرب، تدلّ إلى أنّ الإعلام الإسلامي قد أحدث بعض التغيرات الجذرية في نفوس البعيدين عن مركز الدعوة الأساسي. ولا ينفي هذا التغيير أو يقلّل من شأنه أنّ عرب الجزيرة قد تفاوتت شدّتهم في رفض الدعوة الجديدة والارتداد عنها. والملاحظ أنّ أكثرهم تشدّداً في ردّتهم لم يلبثوا بعد إرسال البعوث العسكرية أن عادوا إلى الصف الإسلامي، ولم يؤثر عنهم بعد ذلك أي محاولة للارتداد مرة أخرى. كلّ ما في الأمر أنهم كانوا في حاجة إلى مزيد من الوقت ومزيد من الاتصال بمركز الدعوة الأساسي ليكتشفوا ما في هذه الدعوة من الحق فيستجيبون لندائه.

من هنا يتأكد لنا أنّ الإعلام الإسلامي بعامة والقرآني بخاصة، قد اتخذا سياسة واضحة في التعامل مع الناس. هذه السياسة تقوم على القواعد التالية:

1 – لا مساومة ولا تسوية مع العقيدة التي هي رأس هذا الدين بل هي كلّ كيانه.

2 – تثبيت العقيدة مشروط بتعريض المسلمين لسلسلة من الفتن والصدمات التي يقصد بها القضاء على كلّ ولاء غير الولاء لله عز وجل. وتصفية القلوب من كلّ عقيدة غير عقيدة الوحدانية.

3 – اتصال الإعلام بكلّ واقعة من الوقائع للكشف عن الإنجازات الإيجابية للدعوة إلى الله في الوقت نفسه الذي يحاول فيه الإعلام مواجهة المسلمين بالجوانب السلبية من تصرفاتهم حتى ولو كانوا في قمة النصر وأشدّ حالات الابتهاج، تربية لهم، ووضعاً للأمور في نصابها.

4 – رفض كلّ تساهل في أي موقف من المواقف فلا تشفع للخاطىء سابقته في الإسلام حفاظا على حدود الله وصيانة لدينه. فليس المقصود بالجهاد والعمل مجرد النجاح وانتزاع النصر وحسب بل المقصود هو أن يكون النجاح نظيفا وأن يكون النصر انتصارا لأخلاق الدعوة وعقيدتها والالتزامات المترتبة عليها لا طرداً لجنود العدو وحسب.

5 – الفوز بقيادة دينية واعية بمسؤولياتها تصلح لأنّ تكون ضمانة ثابتة لمسيرة الدعوة إلى الله. والقيادة الدينية هذه هي ما يطلق عليه إسم النخبة.

من هنا تستبين لنا تلك العلاقة الوثيقة بين الإعلام القرآني والنخبة من المسلمين. ويتضح لنا أيضاً بأن وجود القيادة الخالصة الإيمان هي الركيزة أو القاعدة التي تتكوّن فوقها الهرمية الإسلامية الثابتة... إنها حكمة الله ولن نجد لحكمة الله تبديلاً أو تحويلاً... فهي القائمة بالحق لأنها هي الحق ولم تأت إلا بالحق.

الفصل الثاني عشر

الإعلام القرآني والجغرافية الطبيعية والبشرية

قد يكون في هذا العنوان بعض الأغراب.

ومن حق القارىء أن يتعرّف إلى حقيقة ما يتحدّث هذا العنوان عنه ويشير إليه من تلك العلاقة القائمة بين العملية الإعلامية من ناحية والجغرافية الطبيعية والبشرية من ناحية أخرى.

***

يقول الإعلاميون ما خلاصته: إنّ مهمة الإعلامي هي عقد اتصال بينه وبين الآخرين. فهو يوجّه رسالة من لدنه لمن يستقبلها ويتفاعل معها فيعين موقفه منها ثم يقوم بتوجيه ردّه عليها إلى المرسل.

هذا كلام معقول... وبالتالي: تعريف سليم للعملية الإعلامية يتناسب طرداً مع أطراف هذه العملية والغرض المقصود منها.

لكن يبقى السؤال الخاص بعنوان هذا الفصل: كيف تقوم الجغرافية الطبيعية والبشرية بمهمة إعلامية معينة؟ ثم كيف السبيل إلى ضبط المقومات الخاصة بالدور الإعلامي الذي تقوم به الجغرافية.

***

تفرض علينا مقاربة هذا الموضوع أن نعود إلى موقف من المواقف التي حدثنا عنها القرآن الكريم. وهو الموقف الذي سجله أبو الأنبياء إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليهم. لقد روى لنا الوحي السماوي خلاصة لحوار جرى بين هذا النبي الكريم وبين بعض الأكوان من حوله.

وخلاصة هذا الحوار أنّ بعض أفلاك الفضاء قد أثار اهتمامه بادىء الرأي وأحدث في نفسه كثيراً من الروع، فظنّ أنّ في هذه الافلاك روحاً إلهياً، وتفسيراً لخروج الخلق من حوله بعامة، ولخروجه هو إلى الدنيا بخاصة.

ثم لم يلبث، وقد شهد ما يصيب هذه الأفلاك من تغيرات حتى أدرك بفطرته أنها لا تصلح أن تكون مصدراً لخلق العوالم، بعد أن أسقط منها واحداً وراء الآخر وبلغ عالم الشمس في جولته الشاملة. وبوحي من فطرته السليمة وجه وجهه نحو الله عز وجل، فاطر السماوات والأرض.

قال الله تبارك وتعالى في محكم تنزيله حول هذا الموقف: (وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (75) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79))[1].

هكذا انتهى الحوار الذي جرى بين إبراهيم الخليل عليه السلام وبين بعض المعالم البارزة من عالم الأفلاك، إلى الكفر بالألوهية المزعومة لهذه الأفلاك، وبالتالي إلى اكتشاف عقيدة الوحدانية التي تعلو بالقلب فوق الأكوان كلّها، أكوان الفضاء البعيد والقريب، وأكوان الأرض.

ولا عجب في أن يجري مثل هذا الحوار فإنّ الدور الذي تقوم به الأفلاك، والوظيفة التي تؤديها، يدفعان ملكة التفكير الإنساني إلى تقليب الوجه في طبيعة الخلق وأصوله ومصادره وبالتالي في القوة الحقيقية التي أخرجته من الظلمات إلى النور.

وهذا يعني أنّ في وسعنا قياس ما حدث لإبراهيم الخليل مع الأفلاك على ما يمكن أن يحدث بين كلّ المعالم الكونية الأخرى وبين الناس في كلّ زمان ومكان.

والثابت أنّ حواراً مستمراً جرى بين الإنسان وبين كلّ ما حوله من أشياء الفضاء العريض وأشياء الأرض، وأنه على أثر هذا الحوار وبسببه، وفي ضوء ما استيقظ في نفسه من الوعي الفطري، قد وقع على أشتات من المعبودات، فكانت القرون الكثيرة من التاريخ سجلاً لهذه الاختبارات.

1 . الآيات 75 - 79 من سورة الأنعام

فمن سلمت فطرته انتهى بحواره إلى الوحدانية، ومن فسدت فطرته والتبس عليه الأمر سقط على معلم من المعالم الكونية وظنّ فيه ما يظنّ العابد في ربه.

وهذا هو الذي يفسر تعاقب العقائد الوثنية، والجهالة التي تعلق أصحابها بإله أو أكثر من الآلهة المزعومة. فكان هناك من وجد إلهه في كوكب من الكواكب أو نجم من النجوم. وكان أيضاً من اختار تأليه الأشجار والأحجار، وأنواع من الحيوان. وكان كذلك من جعل من الأحبار أرباباً له.

***

من هنا ندرك أنّ الحوار قد كان ولا يزال بين الإنسان وأشتات من المخلوقات التي تحيط به. والفائز هو الذي مسحت العناية الإلهية على قلبه، وفتحت له باب الهداية بتلك اللطيفة النورانية التي أقدرته على التمييز بين العقائد الأسطورية وبين عقيدة الوحدانية الخالصة لوجه الله الكريم.

على أنّ الحوار بين الإنسان وما حوله من الأكوان لا يحدث أثره في حدود الإلهيات وحسب. فقد يحدث هذا الأثر فيما دون ذلك. ذلك لأنّ الإنسان بفطرته التي فطر عليها، وبطبيعة تكوينه، يستمد الكثير من القيم، ويحدد الكثير من المواقف في ضوء الظروف المادية والجغرافية التي تحيط به. فأخلاق أبناء الجبال وأفكارهم ليست أخلاق من يعيشون في السهول أو عند شواطىء البحار... ذلك أنّ هؤلاء وأولئك يستمدون صورهم وعاداتهم وصفاتهم من طبيعة الأرض، وصفات الفضاء.

والملاحظ أنّ التراث الأسطوري هو أغنى ما يكون عند من يعيشون في الغابات أو يقضون حياتهم في مخارم الجبال ووديانها أو من تتعاقب عليهم الأنواء والأمطار وتتكاثف الغيوم في أجوائهم أو تكثر عندهم العواصف. أما الصحراء بجفاف مناخها وصفاء سمائها وبساطة أشياء الحياة فيها فهي لا تزوّد الإنسان بالأساطير، ولا تبعث في نفسه من الانفعالات ما يبعثها غيرها من أنواع التضاريس.

إنّ إتصال ابن الصحراء باللانهاية عبر الوضوح والصفاء والبساطة التي تحيط به يمكّنه من استشعار الحقيقة العلوية الواحدة، ويمنحه القدرة على إدراك القوة الخالقة بقدر أكبر من البساطة، ويمهد الطريق أمامه نحواستيعاب أوفر لمفهوم الوحدانية.

والصحراء العربية نموذج فريد من نوعه يؤكّد صحة هذا التفسير. ولعل ما يروى من أنّ عبادة الأوثان والأنصاب التي كانت مركوزة حول الكعبة قبل الإسلام، قد نشأت على أثر اتصال من يدعى باسم عمرو بن لحي ببعض المعابد في بلاد الشام، أو

غير بلاد الشام، فحمل صنماً من أصنامها إلى الكعبة، نقول: لعلّ هذه الرواية أن تؤكد لنا أنّ عبادة الأصنام في عصر الجاهلية لم تكن نابعة من مجتمع الجزيرة العربية بالذات بل هي بضاعة دخيلة غزت هذا المجتمع ثم تأصلت فيه بسبب من العدوى وحسب.

يضاف إلى ما سبق أنّ تكاثر الأوثان والأصنام في مكة المكرمة، ثم انتشارها على صورة حجر أونصب أو شجرة في طول أرض الجزيرة وعرضها كان بسبب من التنافس القائم بين العصبيات القبلية. والعصبيات القبلية هي مصدر الغيرة بين مجتمعات الجزيرة، فلا يرضى أصحابها أن يكون لغيرهم ما ليس لهم. وكان اختيار الاصنام لكلّ قبيلة على حدة يتمّ في ضوء الأمزجة والظروف أو أحداث خاصة تجري فتدفع من يقومون بها إلى تجسيد الألوهية في شيء من أشياء الأرض التي يقيمون فيها أو في حيوان أو نبات من حيواناتها ونباتاتها.

***

كما يؤكّد هذه الظاهرة فقر آداب الجاهلية في القصص الأسطوري الذي يرمز إلى الوثنيات المنتشرة في الصحراء.

وإذا كانت القبائل قد تنافست في إقامة أوثانها في رحاب مكة وحول الكعبة بالذات، فإنّ مصدر هذا التنافس هو الدور التاريخي الذي كانت تقوم به الكعبة، والتراث الروحي الغامض الذي ترمز إليه. ولا يبعد أن يكون اجتماع الأوثان حول الكعبة إعلاناً عن نمو شعور وحدويّ غامص، أو إرهاصاً بالتحولات الاجتماعية الفكرية والروحية التي تتابعت بعد ذلك.

فمكة كما نعلم كانت مركز استقطاب للقبائل... وقد استوعب هذا الاستقطاب الجانب الاقتصادي كما استوعب الجانب الثقافي في الوقت نفسه. حيث كانت الأسواق السنوية الموسمية التي تعقد حول مكة والمناطق المحيطة بها، من أهم التجمعات التي يجد فيها الناس حاجاتهم من أسباب المعاش، وحاجاتهم من أسباب الثقافة. لقد كانت هذه الأسواق مواطن مزدهرة للنشاط التجاري إلى جانب النشاط الثقافي متمثلاً في الشعر والخطابة والمباهاة بالأمجاد التي يزهى بها القادمون إلى هذه الأسواق.

***

من هنا ندرك أنّ مجتمع الجزيرة العربية لم يعرف الوثنية باعتبارها حصيلة ثقافة أصيلة نابعة من التفاعل التاريخي بين الناس والأرض، بل باعتبارها ثقافة دخيلة وجدت فرصتها للانتشار بسبب الفساد الذي أصاب الحنيفية السمحاء، والانحراف الذي

اتصف به التراث الإبراهيمي منذ رفع إبراهيم الخليل وولده اسماعيل قواعد هذه الحنيفية في البيت الحرام مجسدة في بنية الكعبة المشرفة.

إنها بتعبير آخر تمثل حالة أسلوب في ثقافة الصحراء وفي قيمها الدينية، نشأ عنها نوع من الانفصام الطارىء بين مجتمع الصحراء وبين التراث الديني الابراهيمي.

والجدير بالذكر أنّ الدعوة الإسلامية التي انطلقت برسالة خاتم الأنبياء والرسل محمد صلى الله عليه وسلم، لم تكن دعوة جديدة لا أصول لها بل كانت إحياء لدعوة قديمة قصد به تحرير الناس من أوشاب الوثنية، والعودة بهم إلى دين إبراهيم الخليل... أي أنّ المقصود بهذا الإحياء هو العودة إلى الأصالة، وإيقاظ الأمة على حقيقتها، وشدّها إلى تراثها التاريخي الذي يمتد في الماضي عبر ستة وعشرين قرناً من السنين.

***

هكذا يتبيّن لنا أنّ الجذور العميقة لمجتمع الصحراء هي جذور الوحدانية وأنّ هذه الجذور قد وجدت مكانها الطبيعي في بنية الصحراء وفي موحياتها حيث تمكّن العودة إليها بقدر أقلّ نسبياً من الجهد، وحظ أكبر من النجاح.

ومما يلفت النظر أنّ العناية الإلهية قد اختارت وادي مكة موطناً للبيت الحرام الذي هو أول بيت وضع للناس منذ بدء الخليقة كما جاء في كتاب الله [1].

ويفسّر هذا الاختيار أنّ هذا الوادي لا زرع فيه ولا ضرع. وأنه لا يوفر لسكّانه أي مصدر من مصادر الرزق. فهو واد قاحل جاف تحيط به تلال صخرية لا تصلح لأي زراعة من الزراعات حتى ليمكننا القول بأنّ هذا الوادي هو صحراء الصحراء. أي هو صحراوي بامتياز.

1 . انظر الآية 96 من سورة آل عمران

إنّ صورة هذا الوادي لا تساعد الخيال الفطير على أيّ تصوّر، ولا تغذّيه بأي أسطورة من الأساطير التي تكثر في مواطن الخصب والغابات كما لا تتعاقب فيه الفصول السنوية الأربع بالمعنى الذي نعرفه في غيره من أقطار الأرض المختلفة.

فالجو الصحراوي والاستعداد لتقبل فكرة الوحدانية يكادان يتلازمان. والانفصال بينهما لا ينبع من طبيعتهما بل هو حصيلة دعوات طارئة، وتيارات دينية دخيلة، والله كما نعلم " أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ " [1].

***

قد يتساءل معترض فيقول: إذا كانت الصحراء بعامة، ووادي مكة بخاصة، هما المؤهلان بطبيعة تكوينهما لتلقي رسالة الوحدانية، فلماذا لم تنطلق دعوات موسى وعيسى ومن بينهما من الأنبياء والرسل، من قلب الصحراء أو من وادي مكة؟

وهو اعتراض منطقي في ظاهره. لكنّ الحقيقة غير ذلك. فالدعوة الموسوية وإن كانت دعوة وحدانية إلا أنها كانت دعوة محلية صدرت عن واحد من أبناء إسرائيل، وعاشت جلّ تاريخها في صفوف الاسرائيليين. وقد كان دورها الحقيقي مع فرعون مصر وزبانيته دوراً ثانوياً يتمثل في محاولة موسى عليه السلام تحرير شعبه من بني إسرائيل من ظلم فرعون وعدوانه عليه.

هذه الدعوة هي أشبه ما تكون بمقدّمة يجري بها إعداد الناس للرسالة الخاتمة التي جاء بها محمد صلى الله عليه وسلم بعد قرابة عشرين قرناً.

لقد كانت هذه الدعوة ذات أبعاد محلية في الحقيقة والواقع واستمرت دعوة محلية بطبيعة الظروف والخصائص التي اتصف بها بنو اسرائيل.

وقد سبق في علم الله أنّ الدعوة العالمية اللاحقة هي التي ستكون الرسالة العالمية الخاتمة لعقيدة الوحدانية.

والشأن هو نفسه في عهد عيسى عليه السلام. فهو لم يأت لينقض ما جاء به موسى عليه السلام من قبله. لقد كانت رسالته محاولة جادة لتليين النفوس اليهودية الجاسية ولفتح الأبواب التي أغلقها اليهود على أنفسهم. ولا يتعارض مع هذا الرأي أنّ دعوة المسيح قد اتخذت من بعده شخصية تاريخية مستقلة. فقد بقيت رغم انفصال أتباعه عن اليهودية فيما بعد ذات صبغة خلقية تفتقد التنظيم الذي يجسدها على صورة علاقات وتشريعات في المجتمعات التي أعتنقتها ولا تزال حتى يومنا هذا.

1 . من الآية 124 من سورة الأنعام

لقد بقيت المسيحية رغم استقلالها التاريخي موصولة بالتراث اليهودي على صورة من الصور.

***

وتتكرّر هذه الظاهرة على صورة أضيق في النبوات التي ظهرت بين العهدين الموسوي والعيسوي، كما كان الطابع المحلي بارزاً في النبوات التي ظهرت بعد العهد الإبراهيمي حتى ظهور موسى عليه السلام.

والملاحظ أنّ النبوات والرسالات المتعاقبة بعد أن وضع إبراهيم الخليل عليه السلام أحجار الأساس للكعبة المشرفة في مكة، حتى ظهور عيسى عليه السلام، قد انتشرت داخل الجزيرة العربية أولاً وبالذات ثم نبتت لها نابتات في مصر، في شخص يوسف عليه السلام، وفي سيناء وجنوب بلاد الشام، في أنبياء بني إسرائيل ورسلهم.

أما الأولون فيحدثنا القرآن عن بعضهم: منهم هود وصالح وشعيب وآخرون من دونهم لا نعلمهم... وأما الثانون فيحدثنا القرآن عن بعضهم أيضاً: منهم داود وسليمان وآخرون من دونهما لا نعلمهم.

كلّ هذا يعني أن النبوات والرسالات المتعاقبة بين العهدين الإبراهيمي والمحمدي، كانت أنشطة دينية محلية يستوعبها بلد واحد أو قبيل واحد من الناس. لقد كانت محاولات مساعدة غايتها تنبيه القلوب وتليينها... وقد تفاوتت طرائقها في التعامل مع الناس الذين عاشت بين ظهرانيهم، بين عقوبة تبلغ درجة الإبادة، وبين إدهاش وإثارة بأنواع من المعجزات.

وكانت كلّها متفقة مع الثقافات والعادات والتقاليد الشائعة في صفوف هؤلاء الناس.

***

ويغلب على ظنّنا أنّ انتشار النبوات والرسالات داخل الجزيرة العربية، وفي بعض البلدان التي تحيط بها، هو إعلان رباني غير مباشر عن وحدة المسيرة الحضارية بين الصحراء والبلدان المحيطة بها. يكفي أن نتذكر بأنّ موطن ابراهيم الخليل عليه السلام هو في قرية أور جنوب العراق، وأنّ مواطن أنبياء اسرائيل تنتشر بين جنوب بلاد الشام وصحراء سيناء، وأنّ مصر كانت موطناً ليوسف عليه السلام وموطن موسى كذلك.

ولما كانت وحدة الثقافة الدينية إعلاناً عن وحدة الناس في المواطن المذكورة فإنّ الصورة النهائية لهذا المد التاريخي تتحدّد كما يلي:

1 – إبراهيم الخليل هو واضع حجر الأساس لدين الحنيفية، وهو الذي جعل من وادي مكة بأمر من الله مركزاً عالمياً لاستقطاب عقيدة الوحدانية.

2 – أنّ الرسالات والنبوات التي تعاقبت بعده حتى عهد الناس بعيسى عليه السلام هي محاولات تمهيدية لخروج محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً للعالمين.

3 – ولما كانت بداية الدعوة الابراهيمية قد انطلقت من مكة المكرمة، ثم ختمت هذه الدعوة على لسان محمد صلى الله عليه وسلم منطلقة من مكة أيضاً بأبعادها العالمية، فقد تقرّر لدينا أنّ وادي مكة هو الأول والآخر في المسيرة الكبرى لدعوة السماء على امتداد ستة وعشرين قرناً.

4 – يلاحظ أنّ التكوين الجغرافي لكلّ الأقطار المتصلة بالصحراء هو تكوين مشابه للبنية الصحراوية. فإنّ كلّاً من هذه الأقطار على صورة واحة كبيرة تحيط بها الصحراء من كلّ جوانبها أو من أكثر هذه الجوانب. فهي بطبيعة مواقعها تتشابه كثيراً أو قليلاً مع موقع الجزيرة العربية. وتبقى الجزيرة مع ذلك أكثرها استعداداً لاستيعاب مفهوم الوحدانية كما بيّنّا من قبل.

***

من هنا يتبيّن لنا أنّ للجغرافيا الطبيعية دوراً إعلامياً كالدور الذي قامت به أفلاك السماء مع إبراهيم الخليل عليه السلام. وهو نفسه الدور الذي تقوم به كلّ قطاعات الأرض مع الناس الذين يعيشون فوقها. فلها من تضاريسها وأجوائها وفصولها، وحرّها وبردها، وطبيعة العمران الناشىء فيها، دورها الخاص في تشكيل النفوس وتحديد القيم ورسم المسيرات الاجتماعية وتعيين الموارد الاقتصادية.

وليس أدلّ على الطابع المميز لجغرافية الصحراء الطبيعية أنّ دعوة الوحدانية في أصفى معانيها وأعلى درجاتها قد ثبتت وأثمرت فيها وبقيت رغم تعاقب الأجيال الكثيرة، ثم صمدت أمام كلّ الثقافات والملل التي عدت عليها عبر القرون، في هذه المنطقة من العالم.

الجغرافية البشرية للصحراء:

ولكي ندرك الدور الذي قامت وتقوم به الجزيرة العربية في الميدان الحضاري يجب أن نتعرّف إلى المعنى التاريخي، والوقائع التاريخية، التي تعاقبت بفعل الأجيال البشرية في طول هذه الصحراء وعرضها.

فالجزيرة العربية لم تكن في يوم من الأيام موطناً يتّصف الناس فيه بالسكون والثبات... بل كانت الحركية فيهم هي الصفة الأساسية الغالبة عليهم.

ولا يهمنا هنا أن نتعرّف إلى أسباب هذه الحركية، وإن كانت واضحة بيّنة لكلّ ذي عقل واع، وعينين مبصرتين. بل المهم أن نتتبع طريق التحرّك البشري الذي سجلته الحوليات التاريخية.

الصحراء رحم ولود:

تقول الحوليات التاريخية أنّ تاريخ الصحراء في أبرز وقائعه هو تاريخ الموجات البشرية المتمثلة في مئات القبائل العربية التي نزحت من جنوب غرب الصحراء إلى جنوب شرقها وبالتالي إلى شمال شرقها من ناحية وإلى الشمال عبر بلاد الحجاز وبدرجة أقلّ إلى الغرب عبر البحر الأحمر، كما أنّ بعض القبائل قد نزح إلى الشرق عبر الخليج العربي.

ثمّ استمرت عمليات النزوح ليستقر أصحابها في العراق وبلاد الشام وسواحل أفريقيا الشرقية ومصر ومن ثمّ إلى الشمال الأفريقي[1].

وقد استطاع أصحاب هذه الموجات المتعاقبة أن يؤسّسوا سلسلة من الحضارات وأن يخلفوا وراء كلّ منها تراثاً يكشف عن الدور الإيجابي الذي قامت به في مسيرة الحضارات البشرية.

هذه الظاهرة الصحراوية البشرية الأصيلة هي التي قدمت تلك المنطقة على صورة رحم ولود تقذف بين فترة وفترة بأجيال من الناس يتصفون بالحيوية والفتوة ويبحثون تحت تأثيرها عن أرض صالحة للاستقرار وإعمار الأرض. فإذا بلغوا هذه الأرض المطمئنة لهم بادروا إلى صنع ملحمة حضارية يشترك فيها القلب الواعي، والإرادة الهادفة، والرغبة الجادة في تكوين مجتمع متقدّم.

1 . انظر مقدمة كتاب " ولادة مملكة " للمؤرخ الفرنسي بنوا ميشان – تعريب رمضان لاوند نشر دار أسود للنشر – بيروت – 1977.

والجدير بالذكر أنّ هذه الرحم قد أخرجت إلى المنطقة التي تعرف اليوم باسم الوطن العربي عدداً كبيراً من الموجات البشرية التي لعبت أدواراً حضارية متفاوتة في سعتها وثرائها العقلي والروحي. لكنّ القاسم المشترك بينها لا يهبط دون الوعي بأهمية المجتمع المنظم وبناء دولة تستقل فيه بصنع الحياة، ديناً، وثقافة، ونظاماً، وعادات وتقاليد، وقيماً.

وفيما يلي نورد أسماء دول نشأت بفضل القبائل العربية النازحة من الصحراء لا على سبيل الإحاطة والحصر بل على سبيل التمثيل وحسب.

(أ) الدول التي أنشأتها القبائل العربية النازحة إلى الشمال الشرقي للجزيرة:

1 – الأكاديون: وقد استمرت دولتهم بين عام 3500 وعام 2250 ق.م عاصمة الدولة هي (آكاد). ومكانها سهل شنعار أولاً، ثم توسّعت وشملت سوريا والعراق في حدودها اليوم. وقد انهارت هذه الدولة على أيدي قبائل بربرية هبطت من الشمال. أما أشهر ملوكها فهو صارغون الأول (2450 ق.م).

2– الدولة البابلية الأولى (العموريون). وقد استمرت قائمة بين عام 3500 وعام 1531 ق.م. عاصمتها بابل. وموطنها في أطراف سهل شنعار.أما أشهر ملوكها فهو حمورابي (1728– 1686 ق.م). وحّد سوريا والعراق. واشتهرت هذه الدولة بقوانينها ونهضتها العمرانية وقد تمّ تدميرها بأيدي الكاشيين الذين هبطوا إليها من هضبة إيران.

3 – الأشوريون: استمر حكم دولتهم بين عام 612 والقرن الرابع ق.م. شيّدوا مدينة آشور وكانت عاصمتهم مدينة نينوى في الشمال الشرقي من العراق. أما أشهر ملوكهم فهو (تغلات فلاصر الأول ثم الثالث). وسيطروا على الآراميين والفينيقيين ومصر. ثمّ دمر دولتهم تحالف الكلدانيين والميديين.

4 – الدولة البابلية الثانية (الكلدانيون). استمرت بين 612 و539 ق.م. عاصمتها بابل وراء الفرات بين النهرين. أشهر ملوكها بختنصر (نبوخذ نصر) الذي دمّر دولة يهوذا وسبى اليهود. وتمّ تدمير الدولة البابلية الثانية على يد "قورش" مؤسّس الدولة الساسانية الفارسية.

5 – المناذرة (اللخميون). نشأت هذه الدولة حول منتصف القرن الثاني للميلاد وانتهت عام 632 بعد الميلاد. عاصمتها (الحيرة) قرب نهر الفرات. تولّى الحكم فيها 25 ملكاً يحمل أكثرهم اسم المنذر. وأشهر ملوكها المنذر الثالث اللخمي والنعمان بن المنذر. فتحها العرب المسلمون.

(ب) أما القبائل التي نزحت إلى بلاد الشام وأسّست فيها دولاً عربية فهي:

1 – العموريون: وقد نشأت دولتهم واستمرت بين عام 2500 وعام 1700 ق.م تقريباً. أما عاصمتهم فهي مدينة (ماري) عند التقاء نهر الخابور بنهر الفرات. وقد توسّعت هذه المملكة حتى بلغت الخليج العربي على امتداد الفرات ثم دمرها حمورابي من ملوك البابليين.

2 – الكنعانيون: نشأت دولتهم عام 2500 ق.م. واستمرت حتى 1100 ق.م. وكانت لهم عدة عواصم: "يبوس" القدس، وبيت شان "بيسان" وعكو "عكا" وجبرون (الخليل).

كلّ مدينة من هذه المدن وما حولها من الأرض كانت دولة مستقلة وإلى جانبها في شرق الأردن نشأت مماليك مؤاب وعمون. وقد دمّرها العبرانيون وأحرقوها.

3 – الفينيقيون وهم فريق من الكنعانيين: نشأت دولتهم عام 2500 ق.م واستمرت حتى 332 ق.م. أما عواصمهم فهي: (أوغاريت) رأس شمرة، وجبيل، وصيدا، وصور، وقرطاجة. والأخيرة في أفريقيا الشمالية. وقد ازدهرت هذه الدولة حضارياً وكان لها أسطولها البحري الكبير ثم أصبحت في قرطاجة قوة تهدد روما. كما دمّرها في بلاد الشام الإسكندر المقدوني 332 ق.م.

4 – الآراميون: نشأت دولتهم عام 1500 واستمرت حتى عام 732 ق.م. نشأت عنها مملكة حماه، ومملكة دمشق، ومملكة آرام حتى الخابور، ثم مملكة أرباض. وهذا يعني أنّ دولة الآراميين كانت مجموعة ممالك، إلا أنها كانت تتّحد عندما يواجهها خطر خارجي. وقد تمّ تدمير هذه الدولة على يد الأشوريين.

5 – الأنباط: نشأت دولتهم عام 500 ق.م. واستمرت حتى عام 106 للميلاد. عاصمتها هي البتراء. وكانت تقوم في منتصف المسافة بين إيلات والبحر الميت. قامت هذه الدولة في منطقة الأردن. وأشهر ملوكها الحارث الثالث الذي دمر الجيش اليهودي قرب اللد. وقد ضمّت إليها منطقة دمشق وحوران وامتد سلطانها حتى البحر الأحمر. ثم دمّرت على يد الرومان.

6 – التدمريون: نشأت دولتهم في الألف الثاني قبل الميلاد واستمرت حتى 270 م. عاصمتها تدمر وهي قائمة في قلب الصحراء من بادية الشام. أشهر ملوكها "أذينه" ثم الملكة "زنوبيا". دمرها الرومان وأخذوا ملكتها زنوبيا أسيرة إلى روما.

7 – الغساسنة "آل جفنة": نشأت دولتهم في منتصف القرن الميلادي الثاني واستمرت حتى عام 632م. وكانت لها عاصمتان دمشق وبصرى. من أشهر ملوكها الحارث بن جبله. امتدت سلطته من الرصافة حتى خليج العقبة. وآخر زعمائها جبلة بن الأيهم. ثمّ فتحها المسلمون[1].

***

هذا وقد كانت الفتوح العربية الإسلامية التي بدأت في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ثمّ اتسعت بخطوات متدرجة سريعة خلال العهد الأموي، نقول هذه الفتوح كانت أوسع الهجرات التي سجلتها الحوليات التاريخية للجزيرة العربية وأرسخها قدما وأبعدها أثراً في تغيير وجه الدنيا لأنها حملت معها رسالة سماوية ذات أبعاد عالمية. فنشأت عنها حضارة متّسعة الأرجاء عميقة الأثر واستطاعت أن تصنع السلام في ضوء العقيدة الإسلامية والتعاليم النابعة منها. وهي الهجرة الكبرى التي لا تزال رغم كلّ النكسات العسكرية والسياسية والثقافية اللاحقة تحتفظ بأصالتها وبقدرتها على الصمود أمام الغزوات الخارجية في ميدان الحرب كما في ميدان القيم الثقافية والبنية الحضارية الشاملة.

وقد بدت الهجرات السابقة على الهجرة الإسلامية، بالأدوار التي قامت بها، بمثابة المقدّمات التمهيدية لنشوء الدولة العربية الكبرى... فهي فيما يبدو لنا تمثل الخط العسكري السياسي الذي يوازي في عملية التمهيد الخط الطويل للرسالات السماوية السابقة التي جاء الإسلام مصدقاً لها ومهيمناً عليها في الوقت نفسه.

***

أما الهجرات العربية الى الشرق الأفريقي بما فيه السودان العربي ثمّ إلى مصر وما وراءها من بلدان الشمال الأفريقي، فقد كانت قبل الإسلام أبطأ نسبياً من الهجرات التي انطلقت نحو العراق وبلاد الشام لكنّها تميّزت بالاستمرار رغم الصعوبات التي كانت تواجهها بالحاجز المتمثل في البحر الأحمر من ناحية وفي صحراء سيناء من ناحية أخرى.

1 . انظر ص 74 – 75 من كتاب " فن الحرب " تأليف بسام العسلي. نشر " دار الفكر ".

لقد كانت هذه الهجرات أشبه بمسيل الماء في باطن الأرض حتى إذا وجد طبقة يستطيع النفاذ منها إلى السطح لا يلبث حتى يخرج إليه على صورة جاليات واسعة متميزة بالنشاط والحيوية وبصورة خاصة برؤية دينية وقدرات حضارية استطاعت أن تكون مراكز استقطاب ديني وثقافي واقتصادي.

والجدير بالذكر أنّ هذه الجاليات قد نمت وتمكنت من التكيف للبيئات الجديدة وتفاوتت مصائرها تبعاً للقدرات التي كانت تتمثل بكلّ منها على حدة أو بجملتها معاً بعد بداية الفتوح العربية الإسلامية، على ألّا ننسى أبداً بأن هذه الجاليات قد لعبت أدوارها التاريخية قبل الإسلام بدرجة أقل.

وكانت أهم جالية ظهرت قبل ميلاد المسيح هي دولة قرطاجة التي تعتبر نتاجاً حضارياً للفينيقيين المهاجرين اليها بأساطيلهم البحرية. يضاف إليها تلك العلاقات التي كانت قائمة بين جنوب غربي الجزيرة العربية، حيث بلاد اليمن، وبين الساحل الأفريقي الشرقي الطويل، وبصورة خاصة بلاد الحبشة. والعلاقات العربية الحبشية كما نعلم كانت تتراوح بين حالة الحرب التي انتهت إلى محاولة أبرهة الفاشلة لاحتلال مكة والقضاء على الكعبة المشرفة، مركز عبادة العرب وهيكلهم الأعظم، في عصر جاهليتهم، وبين حالة السلام حيث ظهر التعاطف الشديد بين الفريقين عبر الجيل الإسلامي الأول الذي هاجر فريق منه إلى الحبشة حيث الأمن والسلامة من عدوان مشركي قريش.

***

أما بعد الفتوح العربية الإسلامية فقد تضاعف المد العربي بفضل تفوقه الثقافي من ناحية وعقيدته الدينية من ناحية أخرى. فسجّل التاريخ العربي الإسلامي لبلاد السودان العربية سلسلة من التحوّلات والإنجازات ومراحل من الاختلاط الاجتماعي والثقافي بين القادمين من عدوة البحر الأحمر المقابلة وبين سكان البلاد الأصليين على الصورة التي تمت في بقية المهاجر العربية الإسلامية، لكن بصورة أضيق وبسرعة أبطأ.

ولو أنّنا ألقينا نظرة سريعة على التاريخ العربي في السودان لاستبانت لنا ضخامة الوقائع التي تتابعت والإنجازات التي تحقّقت.

يقول الدكتور يوسف فضل حسن في مقدّمة كتابه "مقدّمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي" ما يلي: "تعود صلة العرب بالسودان الشرقي، ونعني به المنطقة الواقعة جنوب مصر والصحراء الكبرى والتي تمتد حتى خط عرض 12 و11 شمالاً وتمتد من البحر الأحمر حتى اقليم دارفور غرباً، وبعبارة أخرى نفس الأقاليم التي تكون جمهورية السودان الديمقراطية، عدا

بعض الأجزاء الجنوبية منها، إلى أزمان بعيدة قبل ظهور الإسلام إذ عبر بعضهم البحر الأحمر، رغم عسر ملاحته، طلباً للثراء أو بحثاً عن الكلأ، كما شقّ آخرون طريقهم عبر صحراء سيناء.

تشهد على هذه الهجرات الأخبار التاريخية والآثار الحميرية التي اكتشفت في منطقة حلايب، كما يؤكّدها وجود بعض المجموعات القبلية كالبني عامر التي تتحدّث لغة سامية — وهي لغة التقري– وازدادت هذه الصلة أهمية وعمقاً بظهور الإسلام الذي أعطاها السند الروحي والمادي فتدفّق العرب في أعداد كبيرة حتى وقفوا على أبواب النوبة والبجة، وعقدوا معهم الهدنات والمعاهدات وتحت ستار تلك الاتفاقيات توغل التجار العرب حتى بلغوا سوبا. وفي بطء ويسر داما بضعة قرون انفتح المهاجرون العرب على المجموعات الوطنية من بجة ونوبة وعنج وغيرهم فعايشوهم واختلطوا بهم مصاهرة واسترقاقاً، واستغلوا نظام الوراثة عن طريق الأم حتى مكّنوا لأنفسهم وتبوّأوا الوظائف القيادية في مجتمعهم الجديد ونشروا الإسلام بين المجموعات المسيحية والوثنية من سكان السودان الشرقي[1].

هذه الصورة التاريخية التي طرحها الدكتور يوسف فضل حسن في مقدمة كتابه تسلط الضوء على جانب من الدور الذي قامت به الموجات البشرية العربية المتجهة إلى سواحل أفريقية الشرقية.

وقد تكرّرت هذه الصورة في مصر وفي بقية بلدان الشمال الأفريقي حتى شواطىء الأطلسي.

والجدير بالذكر أنّ المد العربي الإسلامي الذي بلغ تلك المناطق الشاسعة من البلدان الآسيوية والافريقية لم يكن ليحقّق الإنجازات المشهودة له لو لم تكن البنية الثقافية التحتية لكلّ هذه البلدان قد تمّ تكوينها وتكاملها عبر قرون خلت وسبقت ظهور الإسلام.

وهذا يعني أنّ المد العربي الإسلامي لم يبدأ من فراغ. فدورته هي استئناف لحركة تاريخية طبيعية قديمة تفرضها إلى جانب الظروف الجغرافية الطبيعية المتشابهة، تلك الهجرات الواسعة التي كانت تقوم بها ولا تزال موجات بشرية لا تنقطع. فهي كالتيارات المائية التي تقتحم المسايل القائمة طوراً في سرعة شديدة وأطواراً في بطء ظاهر تبعاً لطبيعة التضاريس الجغرافية.

ومهما يكن الأمر فإنّ ثبات الشخصية القومية في هذه البلدان، لغة وثقافة وديناً، هو الآية الكبرى على وجود قاسم حضاري مشترك يضمّ هذه البقاع الشاسعة بعضها إلى بعض ويجعل منها وحدة قومية ثم حضارية. ولعلّ الوحدة الحضارية قد

1 . انظر ص 5 – 6 من كتاب " مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي " للدكتور يوسف فضل حسن – نشر الدار السودانية.

حقّقت الكثير من قيمها ومعانيها في هذه البقاع بفضل التعريب الواقعي الذي أقبلت عليه شعوب هذه البقاع في يسر ظاهر. ثمّ لم تجد ضيراً في أن تمدّ تراثها التاريخي الروحي وتدمجه بالتراث التاريخي الروحي للجزيرة العربية. وهي ظاهرة فريدة في تاريخ الهجرات الحضارية الواسعة.

وليس أدلّ على التلاقي التلقائي بين الموجات البشرية، التي كانت منها الموجة العربية الإسلامية المنطلق الأعظم والأكمل، وبين شعوب البقاع العربية الآسيوية والافريقية، من أنّ العروبة والإسلام قد اتّحدا فيها اتحاداً اندماجياً خلافاً للبقاع الإسلامية الأخرى.

وفي هذا الاتحاد الاندماجي ما يفسر ويشرح حالات الجزر التي سجلتها موجات الجزيرة العربية الحاملة لرسالة الإسلام في بعض بلدان أوروبا كشبه الجزيرة الايبيرية حيث تقوم اليوم أسبانيا والبرتغال، وفي جزيرة صقلية، التي هي اليوم قطعة من ايطاليا، البلد الأوروبي الآخر، وفي جزر أخرى منتشرة في البحر الأبيض المتوسط من مثل قبرص وأقريطش وغيرها.

في هذا البقاع الأوروبية والمتوسطية لم يستطع المد العربي الإسلامي أن يحتفظ بقواعده اللغوية والدينية باستثناء مواقع دينية في بعض جزيرة قبرص حيث يقيم شعب تركي مسلم.

كما أنّ هذا الاتحاد الإندماجي بين العروبة والإسلام قد ميّز البقاع العربية عن بقية بلدان العالم الإسلامي في السودان الافريقي الذي يمتد فيما وراء السودان العربي وينتشر حتى شواطىء أفريقيا الوسطى، وبلدان العالم الإسلامي الذي يمتد شرقاً باتجاه ايران وأفغانستان وباكستان وماليزيا وأندونيسيا، ثم بلدان العالم الإسلامي الذي يمتد شمالاً في تركيا وقطاعات واسعة من أوروبا الشرقية وجنوب الاتحاد السوفياتي.

***

ألا نستطيع بعد هذا العرض التاريخي أن نعيّن الدور الإعلامي الذي تقوم به الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا البشرية للجزيرة العربية؟

إنّ للتاريخ، الذي هو سجلّ للتحركات البشرية والحضارية، قوانين كما هي قوانين الطبيعة التي لا تغلب أبداً مهما وضعت أمامها العراقيل والعقبات. والمقصود بذلك أنّ انتصار أي إنجاز حضاري، إن في ميدان اللغة والثقافة والعقيدة، أو في ميدان التقدّم المادي، مشروط بأوضاع وظروف قانونية ثابتة لا سبيل إلى إلغائها والتغلّب عليها.

فالإنجاز الحضاري لا يتمّ بقوة الاحتلال العسكري أبداً بل يتمّ بالاندماج العفوي بين الأطراف المختلفة حين تحتل القيم الثقافية والعقيدة الدينية مكانها من العقل والقلب والنفس، واللغة من هذه العقيدة وتلك القيم هي الإطار الحي الذي يجسدها جميعاً باعتبار أنّ الكلمة هي أداة التعبير عنها والصلة التي تشدّ شعوب الأمة وطوائفها بعضها إلى بعض.

والجدير بالذكر أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قد سلط الضوء على هذه الظاهرة حين أخبر صحابته بأنّ دور اللغة على أهميته لا يعدو أن يكون دور الأداة الموصلة. أما العلاقة التي تحقّق الوحدة بين الناس وتوثق الصلة بينهم فهي علاقة العقيدة وما ينشأ عنها من القيم الثقافية والتقاليد والعادات والاخلاق المنبثقة منها.

جاء في الحديث الشريف كما رواه الحافظ ابن عساكر بسنده إلى مالك عن الزهير عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال:

"جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي: فقال: هؤلاء الأوس والخزرج قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هؤلاء؟ فقام اليه معاذ فأخذ بتلبيبه حتى أتى به النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بمقالته، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مغضباً يجر رداءه حتى دخل المسجد، ثم نودي الصلاة جامعة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس إنّ الربّ ربّ واحد، وإن الأب أب واحد، وإنّ الدين دين واحد، ألا وإنّ العربية ليست لكم بأب ولا أم، إنما هي لسان، فمن تكلّم بالعربية فهو عربي، فقال معاذ وهو آخذ بتلبيبه: ما تقول في هذا المنافق؟ فقال: دعه إلى النار. قال: فكان ممّن ارتدّ فقتل في الردّة"[1].

هكذا يتأكّد لنا أنّ العقيدة الواحدة والثقافة المشتركة اللتين انتشرتا في طول الأرض العربية الشاسعة، لم تجدا في تراثات شعوب هذه الأرض في فترة الفتوح مقاومات جدية يتعذّر معها تحقّق الاتحاد الاندماجي الذي يتجسد في انتشار اللغة الواحدة. ولذلك فقد تراجعت اللغات المحلية وأخذت تختفي على مراحل متدرجة لا لأنّ العربية قد فرضت عليها فرضاً، بل لأنّ العربية هي الأداة التي انتقلت بها العقيدة والقيم الثقافية الناشئة عنها إلى شعوب هذه الأرض.

1 . ابن عساكر: 450. وقد ورد هذا الحديث النبوي الشريف في ص 7 من المرجع السابق.

***

ولا عجب في أن تكون بين شعوب الأرض العربية اليوم بنيات ثقافية تحتية قديمة مشتركة. فقد جاءت دعوة الإسلام مصدقة لما كانت تدين به تلك الشعوب أو أكثرها على الأقلّ من الدين الذي هو دين الوحدانية متمثلاً في اليهودية والنصرانية. وإلى جانب تصديقها لرسالات السماء السابقة جاءت مصحّحة لها ومقوّمة لما انحرف من تعاليمها. لكنّها جاءت قوية غامرة بسيطة القيم واضحة الأبعاد فلم تلبث تلك الشعوب أن أقبلت عليها.

وقد حدث مثل ذلك في الميدان اللغوي. فقد ثبت أنّ أكثر اللغات التي كانت منتشرة في البقاع العربية تعود في أصولها إلى لغة الجزيرة العربية.

وهذا يعني أنّ العربية كلغة جاءت مصدقة لهذه اللغات ومشابهة لها في قواعدها الأساسية. فهي إذا لم تكن تمثل بانتشارها نقلة لغوية جذرية بل تمثل عملية تصحيح وتقويم أو عودة إلى الأصول.

فالأرض العربية هي المجال الطبيعي الذي لا تشعر فيه اللغة العربية بالغربة، ولا يشعر فيها الناس بمثل ذلك. وبذلك كان دور العقيدة الإسلامية والثقافة النابعة منها ودور اللغة التي كانت أداة التعبير عنها، تتويجاً لمسيرة تاريخية قديمة ذات جذور عميقة في العقول والقلوب والنفوس.

إنّ ما سبق لنا من القول بأنّ الجزيرة العربية من بقية الوجود العربي الإسلامي هي الرحم الولود لا يعدو الواقع ولا يتعارض مع قانون التحرك التاريخي. بل هو تقرير للشروط الطبيعية لكلّ مدّ قومي حضاري ذي محتوى ديني ثقافي أصيل.

وإذا كنّا قد تحدثنا عن علاقة قائمة بين الإعلام وبين الجغرافيا الطبيعية والبشرية فلأنّنا ندرك، من خلال ما قرّره علينا كتاب الله عز وجل، وحدة شاملة في الخلق. أي وحدة تؤكّد ذاتها في نظام الخلق كلّه ابتداء من المجرات التي لا يستوعب الخيال البشري أبعادها وانتهاء بالذريرات البالغة الصغر التي تقف عند حافة العدم. والوحدة في النظام لا تتبدّى في الأبعاد المادية وحسب بل في الأبعاد العقلية والنفسية أيضاً. وبعبارة أخرى هي وحدة وضعت أجزاؤها وتحدّدت نوعياتها بميزان دقيق بحيث لا تنفصل فيها اللغة عن الثقافة العامة ولا تتعارض فيها الثقافة مع الأخلاق، والأخلاق مع العقيدة، والعقيدة مع نظام العيش، ونظام العيش مع الأرض نفسها، وبالتالي مع الظروف الطبيعية التي تحيط بنظام العيش نفسه. فالكون الذي خلقته العناية

الإلهية متكامل موزون وضع كلّ شيء فيه بقدر بحيث يتمّ به التوازن الدقيق الذي يكفل عمارة الإنسان للأرض، وعمارته لعقله وقلبه ونفسه.

ولنا في كتاب الله الشواهد الكثيرة التي تدل إلى وجود ظاهرة التكامل والدقة والإتزان في كبير الأمور وصغيرها، وفي الجوانب المادية والأدبية، وفي النظم الاجتماعية والنمو الاقتصادي.

إنّ صورة الخلق كما جاء بها وحي السماء هي صورة الكون العظيم الذي لا تندّ فيه كبيرة أو صغيرة عن العناية الإلهية. فالعناية الإلهية تمسك السماء أن تقع على الأرض.

والعناية الإلهية تسقط مياه الأمطار بأقدار معلومة.

والعناية الإلهية تنظم شؤون الحياة والموت.

والعناية الإلهية تمنح حركة الكون مسيرتها.

والعناية الإلهية تعين للكون والطبيعة قوانينهما.

وهذا يعني أنّ استمرار الكون والحياة هو حصيلة إرادة إلهية قائمة.

وهنا نلجأ إلى كتاب الله لنستبين الإشارات الدالة إلى كلّ هذه العنايات التي تحدثنا عنها. يقول الله عز وجل:

1 – (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ)[1]

2 – (إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا)[2]

3 – (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا)[3]

4 – (لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ)[4]

5 – (فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا)[5]

1 . من الآية 65 من سورة الحج
2 . من الآية 3 من سورة الطلاق
3 . من الآية 2 من سورة الملك
4 . من الآية 40 من سورة يس
5 . من الآية 13 من سورة فاطر

فإذا كان الله محيطاً بكلّ شيء، عالماً بكلّ واقعة، حاضراً في كلّ موقف، مهيمناً على كلّ كبيرة وصغيرة، وإذا كان تبارك وتعالى يقول في محكم تنزيله: (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)[1] فقد ترتّب على هذا كلّه أنه حين يجعل رسالته في أفراد معيّنين وفي تاريخ معين وينيط مسؤولية رسالته لشعب معين، فهو لا يفعل هذا كلّه بطريقة الإرتجال ولا يخرجه فوضى إلى الدنيا بل يفعله بحساب موزون وبقدر محدود ولغرض واضح محدّد. وهو يفعل ذلك أيضاً في ضوء المواهب التي هيّأها لرسله وللقائمين على دينه وفي ضوء الظروف المادية والطبيعية التي تتّفق مع أغراض هذه الرسالة.

ولو كشف لنا الستار عن سر الخلق لتبيّن لنا في ضوء ما عرفناه من دقائق الحياة، والتوازن الداخلي للجسد الحي ولا سيما للجسد البشري، إنّ الوحدة الخلقية المتكاملة هي الحقيقة الباقية التي خرجت من بين يدي الله عز وجل.

فلا عجب من بعد أن نقول: إنّ للجغرافيا الطبيعية والجغرافيا البشرية دوراً إعلامياً تجد به دعوة الإسلام بعض ما تحتاج إليه من أسباب الانتشار والشيوع فلا عبثية ولا غياب للمنطق، ولا متاهة في التحرّك في صنع الله.

لقد تمّ اختيار وادي مكة موطناً للبيت الحرام لغرض إعلامي. وتمّ بناء أول بيت وضع للناس في مكة لعبادة الله في ضوء غرض إعلامي آخر.

وتمّ إرسال الرسل مع ما رافقهم من الرسالات والوقائع المادية وردود الفعل المعنوية والإنجازات التي تحقّقت في طول الجزيرة العربية وأطراف البلدان المحيطة بها لحكمة إعلامية أيضاً... ثم كانت خاتمة الرسالات الإعجاز القرآني الذي رافقها في شعب يتحرّك في ضوء دورات بشرية متكرّرة على امتداد الأجيال والقرون، تتويجاً للعملية الإعلامية الدينية التي كانت تمام الكمال في الأرض، وعنواناً على الرحمة الإلهية الواسعة.

وإذا كنا قد ربطنا بين الواقع الجغرافي الطبيعي والبشري وبين الشروط المطلوبة لنجاح الدعوة إلى الله فلأنّنا نعتقد كما سبق أن قررنا من قبل بأنّ العقل والقلب والنفس لا تتعامل مع أفكار تجريدية وحسب ولا تتبلغ الحقائق كما لا تستقبل الرسالات من الألسنة الناطقة فقط، بل تكتشفها في رسائل أخرى تأتيها من تقليب الوجوه في خلق السماوات والأرض، ومن التعامل مع الناس.

أما الرسائل التي تأتي من أنواع الخلق المادي فقد لفت القرآن نظرنا إليها وألح علينا أن نتدبّر أسرارها ومظاهرها المعجزة في عشرات من الآيات كما في قوله عز وجل في سورة ق: (أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ

1 . من الآية 124 من سورة الأنعام

(6) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7))، وقوله أيضاً في سورة الغاشية: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21)) .

وهي مع آيات أخرى شبيهة بها توجّه دعوة صريحة إلى الإنسان للنظر فيما حوله والتفكّر في المعاني والدلالات التي تحفل بها أشياء الخلق أمامه على أساس أنّ أشياء الخلق هذه رسالات موجهة إليه تدلّه إلى الحضور الإلهي الظاهر فيها.

وأمّا الرسائل التي تأتي من قبل الناس فهي لا تقف عند الكلام المنطوق بل تصدر عن الأفعال والتصرّفات. وبذلك كان صلى الله عليه وسلم فيما يفعله ويقرره ويتخذه من أنواع السلوك رسالة حية توجه معانيها إلى من حولها دون كلام يتردد على الألسنة. وهذا هو المقصود من قوله عز وجل: (لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا).

وعملاً بهذه الخطة قضت إرادة الله أن تكون تصرفات المؤمنين أيضاً بمثابة رسالة تنطق بلسان الحال وتوصل دعوتها إلى الناس كافة.

ويكون بعض مصير هذه الدعوة السماوية مرتبطاً بفعالية تلك الرسالة الناطقة بلسان الحال والتي يتبلغ الناس محتواها من السلوك العملي لرجال الدعوة. ولا شك أنّ السابقين الاولين الذين خرجوا إلى الدنيا برسالة السماء فوجاً وراء فوج هم ومن سار سيرتهم أقدر الناس على تمثيل القدوة الصالحة وعلى تبليغ الدعوة إلى الله.

فهرست

	الموضوع	الصفحة
	إهداء	5
	ثبت المراجع	6
	مقدّمة عامّة حول الإعلام والمعرفة في القرآن	7
الباب الأول / الفصل الأول	آدم عليه السلام (النموذج البشري الباقي للإعلام السماوي)	23
الفصل الثاني	نماذج بشرية أخرى ومفارقات	34
الفصل الثالث	مدخل إلى سياسة الإعلام السماوي	49
الفصل الرابع	السياسة الإعلامية في القرآن	53
الفصل الخامس	المعجزات قبل محمد صلى الله عليه وسلم	100
الباب الثاني / الفصل الأول	الإعلام القرآني والحرية	127
الفصل الثاني	الإعلام القرآني وقول الحقيقة	132
الفصل الثالث	الإعلام القرآني والخلفية الثقافية المشتركة	136
الفصل الرابع	الإعلام القرآني والحوار المفتوح	139
الفصل الخامس	الواقعية في الإعلام القرآني	149
الفصل السادس	الإعلام القرآني والتصور الإسلامي	151
الفصل السابع	الإعلام القرآني والتكرار	160
الفصل الثامن	الإعلام القرآني والقصة	169
الفصل التاسع	الإعلام القرآني والثقة بالإنسان	190
الفصل العاشر	الإعلام القرآني والأخلاق	202
الفصل الحادي عشر	الإعلام القرآني وإعداد النخبة	215
الفصل الثاني عشر	الإعلام القرآني والجغرافية الطبيعية والبشرية	229